الدكتور محمد البهي

من مفاهيم القرآن
في العقيدة والسلوك

دار الفكر

الطبعة الأولى

١٣٩٣هـ – ١٩٧٣م

دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت : البناية المركزية الطابق الثاني ٢٠٥ ص.ب ٧٠٦١ برقيا فيكسي هاتف ٢٤٤٧٣٩
القاهرة : ١ شارع سليمان الحلبي (دوبريه سابقا) ص.ب ١٥٠٤ برقيا فيكسبيرنتس هاتف ٤٤٠٦٢

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن هـــذا الكتاب ـ من : مفاهيم القرآن ، في العقيدة والسلوك ـ يرد تصورات المفاهيم الاسلامية لدى الشباب المسلم اليوم على الأقـل .. الى مـا يرجح ، او يقرب ، أن يكون مرداً لكتاب الله وسنة رسوله عليه السلام.. إذ قد طرأ على هذه المفاهيم تغييرات: بمرور القرون ، وباختلاف العهود من : قوة .. الى ضعف ، ومن تقرب الى كتاب الله .. الى هروب منه ومحاولة إبعاده عن مجالات الحياة . وأصبح الوضع منها الآن ، كما يهزأ برجل الدين في : المسرحيات ، والتمثيليات ، والأفلام ويقدم فيها ، على أنه : أضحوكة ومصدر فكاهة ، او أنه غريب عن المجتمع الذي يعيش فيه .. كذلك آل أمر هذه المفاهيم ـ او كثير منها ـ في تصور الجيل المعاصر : الى أنهـا لا تستحق الاكتراث بمضمونها ، فهي تنتسب الى الماضي الذي لا يعود ، وتتحدث عن أمور لا تعيش في واقع الحياة اليوم .

مثلا : آل أمر : « الاحسان » الى أنه العطاء التافه الذي يعبر عن مذلة الآخذ له ، واليوم عصر العلم ، وعصر الاشتراكية !! مع ان الاحسان مبدأ اسلامي رئيسي جاء مفهومه في القرآن ليعطي حقيقة ضرورية يترابط على

أساسها المجتمع ، ويتماسك بعضه الى بعض في : مودة ، وإخاء . وهي حقيقة تسمو فوق العدل . لأنها تمثل الانسانية .. بقدر ما تبعد الأنانية في المواقف والسلوك .

وآل أمر : « الوسيلة » الى أنها الوساطة بين الانسان والله ، على نمط ما تأخذ به الكنيسة الكاثوليكية في حياة الانسان ، وعلى نحو مـــا يعتقده او يتصوره : غلاة الشيعة .. في الإمام ، والبهائية .. في الباب . مع أن الوسيلة ـ كما يرد مفهومها في القرآن ـ لا تختلف عن العمل الصالح الذي يتقرب بـه الانسان الى ربه .

وآل أمر : « قوامة» الرجل على المرأة في الأسرة وفي العلاقة الزوجية.. الى أنها استبداد يباشره الرجل بعضلاته ، ويحطم بـــه كل محبة ومودة في العلاقة الأسرية . مع أنها مسئولية ألقيت على عاتقه بفضل تكوينه الخاص في طبيعته ، وبفضل قدرته وجـــلده على مشاق الحياة : في سبيل السعي ، لتحصيل الرزق على هذه الأرض .

كما آلت : « درجة » الرجل على المرأة في دائرة : الحقوق ، والواجبات المماثلة .. الى نوع من التمييز والافضلية له على المرأة . مع أن الدرجة التي أسندت اليه في القرآن هي نوع من التفوق في حسن المعاملة ، طلب منه أن يباشره في علاقته بالمرأة ، دون أن يطلب مقابلاً له .. منها . فهي درجة في التهذيب ، والتسامح ، ولطف المعاملة الكريمة ، وليست أمراً ينطوي اطلاقاً على أي نوع من أنواع السيادة والتمييز ، أي أن هذا المفهوم القرآني «للدرجة» يطلب من الرجل : الانسانية والتهذيب ، في موقفه من المرأة ، وليس على العكس ، من اقراره : السيادة والتسلط عليها .

وآل أمر : «الجن » ـ أو أمر العفاريت ـ في حياة المسلمين الى خطورة: في تأثيرها عليهم ، وفي طلب الاستعانة بها منهم .. حتى أصبح لها شأن في

تحديد المصير لديهم ، وأصبحت لها فاعلية في اعتقادهم ، بجانب فاعلية الله . وانصبت هذه الفاعلية على علم الغيب واستطلاعه ، وما يأتي به الغد القريب او البعيد . مع أن هذا الدور الذي ينسب الى الجن والذي آل اليه المفهوم.. ينفيه القرآن .. ويرجعه الى : ادعاء الكهان بمكة .. رغبة في استغلال عامة أتباعهم .

وهكذا : لأن عهود الضعف التي أتت على المسلمين ، وعهود التشكك والتشكيك في القيم الاسلامية ، وعهود التلبيس والخداع عند التلويح بقيم أخرى : علمانية .. وإلحادية مادية ماركسية ، من شأنهـا أن تفصل عن « المفاهيم الاسلامية » .. مضمونها الواقعي والايجابي في حياة الأمة الاسلامية وأفرادها ، وأن تشد هذه المفاهيم وتميل بهـا .. الى ما يجعلها غير جديرة بالاعتبار ، او يضعها موضع السخرية والتندر .

وما في هذا الكتاب من محاولة لرد المفاهيم الاسلامية الى مصدرها الرئيسي وهو القرآن ـ مبعداً عنها : الضعف والهوان ، او الميـل والتحريف ـ هو جزء من تجلية الاسلام ، وابعاد ما التبس ودخل عليه : بفعل الزمن.. او بفعل المتربصين به سوءاً .

ولم تلتزم هـذه المحاولة : العرض على نمط الأحرف الهجائية ، كما يصنع القاموس ، او تصنع دائرة المعارف . بل آثرت الأخذ : بنظام يلتئم مع هدف القرآن ممـا جاء فيه من : عقيدة ، ومنهج للسلوك . ولذا : عرضت المفاهيم في فصلين رئيسيين: أحدهما لمفاهيم العقيدة ، والآخر لمفاهيم السلوك الانساني.

وهي محاولة أرجو أن تتبعها محاولات من آخرين ، تزيد في تجلية الاسلام وتخليصه مما طرأ عليه .. كما أرجو أن تتبع منا ببقية لها . وأسأل المولى جل شأنه التوفيق ، والثواب .

مصر الجديدة : صفر سنة ١٣٩٣ هـ. — محمد البهي

: ابريل سنة ١٩٧٣ م.

الفصل الأول

في العقيدة

أ ـ في دائرة الألوهية .

ب ـ في دائرة الرسالة والرسول .

جـ ـ في دائرة المخلوقات .

د ـ في دائرة الانسان .

هـ ـ في دائرة الحياة الأخروية .

أ ـ في دائرة الألوهية

وجود الله – أسماء الله الحسنى – الاسلام دين الله – الذكر – الحكمة – الكتاب المصدق – الحق – الهداية للحق – البينة – المثل – الآية – النسخ – الايمان بالله – الشرك بالله – ضلال المشركين – الكفر بالله – الصد عن سبيل الله – الغيب – النفاق – عباد الرحمن – المستكبرون – المستضعفون – الخاشعون .

وجود الله

في حوار بين أجنبي يتشبث بإنكار الله ، وآخر مسلم يؤمن بالله . سأل الأجنبي المسلم : ان كان الله موجوداً ، فاسأله أن يقدم لك سيارة ؟ . فأجاب المسلم : حتى اذا سألته ، فقدم إليّ سيارة، فإني لا أستطيع تموينها بالبنزين؟. فرد عليه الأجنبي المنكر لوجود الله بقوله: اسأله كذلك: ان يقدم لك البنزين؟. وهنا قدم هذا الأجنبي للمسلم ، النصح بترك الاعتقاد في الخرافة . وهكذا: كان الحوار ، من جانب ذلك الأجنبي ، على أساس : ان الله شخص موجود، على نمط الانسان في وجوده .

هل الله موجود كشخص ؟ أم وجود الله يتجلى في صفاته التي يوصف بها من : الخلق ، والقدرة ، والإرادة ، والحياة ، والعلم ، والغنى ، والرحمة ، والجبروت ، والعدل .. وغير ذلك من الصفات ، التي هي في واقع الأمر تعبر عن القيم الرفيعة ، والمثل العليا ، التي يجب أن يتقرب منها الانسان بالاحترام ، والعبادة ، والمحاكاة ، حتى يكون على شبه وقرب من الله ؟ .

هناك منطق يتعامل به كثير من الناس . وهو منطق الطفولة البشرية . وهذا المنطق يقضي : بأن الوجود لا يكون إلا لمحسوس : يشاهد بالعين ، او يسمع بالأذن او يلمس باليد . وأن ما عدا المحسوس هو غير موجود . كما يقضي هذا المنطق الطفولي : بأن الإله على غرار الانسان . فما للانسان من صفات : كالأكل والشرب ، والزواج ، والنسل، والموت، والحياة، والضعف، والقوة .. هو كذلك ، من صفات الإله . ولذا، يجب : أن يكون بين الآلهة

ذكوراً ، وإناثاً ، وأقوياء، وضعفاء ، ومن يتناسلون، ويأكلون ، ويشربون.. الخ . ومنطق الطفولة البشرية يمكن : أن يسترسل به ، كما استرسل ذلك الأجنبي الذي يتشبث بإنكار الله ، فسأل زميله المسلم معه في العمل : اسأل الله : أن يهديك سيارة ، وبنزيناً ؟

ومنطق الطفولة البشرية هذا ، يعتبر – في الأصل – ظاهرة للطفل في مرحلته الأولى . لأن الطفل ، يتصرف بباعث الأنانية وحدها . فهو يرى : أن كل ما في عالمه ، ممـــا يحيط به : هو لذاته وحدها . وكذلك : أن تفكيره لا يفارق الأمر المادي المحسوس . فعند غضبه لا يسكته وعد ، او وعيد . وإنما يسكته – بدل الوعد – تقديم : لعبة له بالفعل او أي أمر آخر مادي ينجذب اليه ، او قطعة من الحلوى . كما يسكته – بـدل الوعيد والتهديد – ايقاع نوع من العقوبة والجزاء عليه بالفعل .

ويلازم منطق الطفل ، الكبار ، الذين لم يتخلصوا بعد ، من طغيان الأنانية عليهم،وبالتالي يلتزمون الاتجاه المادي في تفكيرهم. ومن ثم ، ينكرون الله ، لأنه لا يُرى بالأبصار، ولا يعرف باحدى الحواس الأخرى في الانسان. واذا أقروا بإله ، فيقرون به على نمط الانسان . ومن هنا كانت الوثنية في الاعتقاد .

والله موجود . ولكنه ليس شخصاً ، وليس على نمط الانسان في صفاته وتحديده . انه ذات ، تجليها صفاتها العديدة . وبمـا أنه : أكمل موجود ، فصفاته التي له ، تعبر : عن المثل الرفيعة التي يجب أن يقترب منها الانسان المؤمن بـــه . وعبادة الانسان لله : بالصلاة ، والصوم ، والزكاة ، والحج ، والجهاد في سبيل الله،هي حمل له على أن يتقرب من صفات الله جل شأنه ويتشبه بها . وتقربه هو بمحاكاة هذه الصفات في ذاته . وهنا المؤمن العابد على سبيل الحقيقة ، هو : الذي يسعى : الى العلم ، والقوة ، والإبداع ، والاتقان في العمل ؛ فيحاكي صفات : العلم ، والقدرة ، والخلق في ذات الله سبحانـه

وتعالى . ويسعى كذلك الى تحقيق العدل ، وتحصيل الغنى بالقناعة ، والرأفة بالنسبة للمؤمنين والشدة بالنسبة للكافرين المعاندين ، فيحاكي صفات : العدل والغنى ، والرحمة والجبروت في ذلك جل شأنه . وهكذا .. ولذا : يروى في الحديث الشريف : « المؤمن القوي ، خـــير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف » .وقوة المؤمن وضعفه : في مدى محاكاته ، في ذاته : مـــا للمولى سبحانه من صفات .

ومن هنا كان الايمان بالله هو الطريق لرفع مستوى الانسان في انسانيته ، وللحيلولة دون التزامه بمنطق الطفولة البشرية ، القائم على حب الذات، وعدم الاعتراف بالغير ، والمخاصمة في سبيل تحصيل المنع للذات وحدها ، ولو على حساب شقاء الآخرين وحرمانهم .

وعبادة الصوم تساعد في الواقـــع على تحصيل الغنى بالقناعة والاكتفاء الذاتي .

والدين ، والايمان بالله : لا يستهدفان تقسيم متع الحياة المادية . وانمـــا يستهدفان : أن يعيش الانسان انساناً : في تعارضه ومودته ، وإخـــائه وإقراره بالمساواة في الاعتبار البشري وبالمشاركة في خيرات الدنيا : وليس : أن يعيش الانسان حيواناً في صورة انسان ، او طفلاً في جسم انسان كبير .

وآيات القرآن الكونية والانسانية التي جاءت في محيط الألوهية .. تشير فقط الى وحدانية الله سبحانه ، التي يحملها شعار الايمان بالله وهو : « لا إله إلا الله» . لأن الألوهية في ذاتها قائمة في فطرة الانسان وطبيعته . إذ الانسان يحس في وجوده موجوداً : كبيراً وآخر صغيراً من الموجودات ، ويتأثر في حياته بالخضوع لمن هو أكبر منه في تصوره وأكثر اعتباراً وأعظم شأناً منه . فهناك في تصور كل انسان موجود هو أكبر منه في حياته ، وهو إلهه ويطيعه عن طريق مباشر او غير مباشر . ولذا كان الشرك في الألوهية أمراً عادياً في حياة الناس الذين لم يبلغوا برسالة الله ، او بلغوا إياها ولكنهم لم يؤمنوا

بما جاء فيها ، عناداً واستكباراً . ووظيفة الرسالة الإلهية — وهي وظيفة القرآن — هداية الناس الى وحدة الألوهية — وليس الى وجودها — في الله وحده . وهو ذلك الموجود المتصف بصفات الكمال كلها . وليس هناك كامل لا يعتريه النقص بحال سوى الله جل جلاله ، ومن ينكر الله فهو مشرك ، أي يتصور آلهة غير الله ، او كافر ، أي لم يؤمن بوحدة الألوهية في الله وبما أنزل على الرسول محمد ﷺ .

وجاء القرآن يستنكر أن يكون هناك فريق من الناس لا يؤمن باستحقاق الله وحده للألوهية ، في قول الله تعالى : « يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم ، هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض ؟ لا إله إلا هو ، فأنى تؤفكون » [1] . ويعد هذا الفريق من الجهال : كما جاء في قوله : «الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل . له مقاليد السموات والأرض ، والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون، قل : أفغير الله تأمروني أعبد، أيها الجاهلون ؟ » [2] .

ولذا يطلب من الرسول عليه الصلاة والسلام في مواجهته للمشركين أن يعلن : ان القرآن جاء لتبليغ الوحدة في الألوهية ، وأنه — عليه السلام — باق في ايمانه بهذه الوحدة ، وعلى الدعوة اليها : « قل : أي شيء أكبر شهادة ؟ قل : الله شهيد بيني وبينكم ، وأوحي إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ ، أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ، قل : لا أشهد ، قل : إنما هو إله واحد ، وانني بريء مما تشركون » [3] . ثم يقول القرآن — مؤكداً — : « ولا تدع مع الله إلهاً آخر لا إله إلا هو ، كل شيء هالك

---

(١) فاطر : ٣ .
(٢) الزمر : ٦٢ — ٦٤ .
(٣) الانعام : ١٩ .

إلا وجهه ، له الحكم وإليه ترجعون »[1] .

والدعوة الى الوحدة في الألوهية – وليس الى وجود الألوهية ذاتها – هي دعوة الرسالة الإلهية منذ أن نزلت ، ودعوة كل رسول كلف بها . فقد جاء مثلاً في دعوة هود الى قوم عاد ، قول الله تعالى : « والى عاد أخاهم هودا قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، ان انتم إلا مفترون»[2]. وهذا يدل على أن وجود الألوهية – في أية صورة – أمر مفروغ منه .

أسماء الله الحسنى :

إن أسماء الله الحسنى هي صفات كمال فيه . اذا ذكرت صفة منها عبرت عن كمال مطلق في ذاته : « هو الله الذي لا إله إلا هو ، عالم الغيب والشهادة ، هو الرحمن الرحيم .

هو الذي لا إله إلا هو ، الملك ، القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، الجبار ، المتكبر ، سبحان الله عما يشركون .

هو الله ، الخالق ، الباريء ، المصور ، له الأسماء الحسنى ، يسبح له ما في السموات والأرض ، وهو العزيز الحكيم »[3] . فهذه الأسماء أو الصفات جميعها – وغيرها مما ورد بها القرآن الكريم – هي قيم عليا رفيعة لذات المولى جل جلاله ، وكما تدل على سمو الذات العليّة ورفعتها وكمالها غير المحدود ، تجذب الداعي للمولى كي يتقرب منها في عبادته ودعواته : « ولله الأسماء الحسنى ، فادعوه بها (أي تقربوا اليه بها : بذكرها وترديدها ، وبمحاكاتها في السلوك والتصرفات) وذروا الذين يلحدون في أسمائه (أي

---

(١) القصص : ٨٨ .

(٢) هود : ٥٠ .

(٣) الحشر : ٢٢ – ٢٤ .

واتركوا اولئكم وشأنهم ، الذين يظلمون أنفسهم بانتهاك حرمة هذه الأسماء والحط من قدرها ، وهم الوثنيون الماديون الذين يشركون مع الله جلت قدرته آلهة أخرى لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً) سيجزون ما كانوا يعملون[1]».
وبأية صفة او بأي اسم من أسمائه الحسنى يناجي بها العابد ربه فإنه يتقرب بها ، وبمحاكاة أية صفة من صفاته في سلوكه وتصرفاته يتقرب بهـــا اليه سبحانه : « قل : ادعوا الله ، او ادعوا الرحمن ، أياً ما تدعوا ، فله الأسماء الحسنى، ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها ، وابتغ بين ذلك سبيلا ، وقل : الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ، ولم يكن له شريك في الملك ، ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيراً »[2] .

والعبادة الحقيقة التي يذكر فيها المؤمن صفات ربه وأسمائه الحسنى ليست ترديد هذه الصفات والأسماء على اللسان في صوت بين الجهر والسرية . وإنما تأمل هذه الصفات والأسماء ومحاولة التأثر بها ، ثم محاكاتها في مجال التطبيق والسلوك الانساني ، بعد مجال التأمل والتذكر . وما أحوج الانسان الى أن يتذكر كالات الله التي تعبر عنها أسماؤه الحسنى ، ويحاول أن يتقرب بهـــا اليه في تصرفاته ، وبالأخص مع ذاته الانسانية أولاً :

١ ــ ان الانسان في حاجة الى أن يعلم ، ويعلم على وجه أخص : الدلائل في الوجود على وحدة الله المطلقة في كماله المطلق فيخشاه ويعبده ، والعلم صفة او اسم من أسماء الله الحسنى .

٢ ــ والانسان في حاجة ليعلم : انـــه عقل وشهوة ، ومنطق وهوى ، وهو بحاجة ليسوّد عقله على شهوته ، ومنطقه على هواه فيرتفع عن المهانة

---

(١) الاعراف : ١٨٠ .
(٢) الإسراء : ١١٠ – ١١١ .

والمذلة لشهوته وهواه، ان أراد لنفسه أن يكون انساناً . والمهيمن، والعزيز: من صفات الله الحسنى .

٣ - والانسان في حاجة ليعلم : ان في اطمئنانه مع نفسه وفي علاقته بالآخرين معه .. سعادته ومتعته الحقيقية ، فيسعى الى السلام بينه وبين نفسه فلا يترك هواه في صراع مع نفسه او مع غيره ، يجنوحه وحدته . والسلام من صفات الله وأسمائه الحسنى .

٤ - والانسان في حاجة ليعلم : ان القناعة عن مقدرة هي طريق الكرامة البشرية . والغنى من صفات الله وأسمائه الحسنى .

٥ - والانسان في حاجة ليعلم : ان تميز انسان عن انسان هو في عمله ، وفي اتقانه لهذا العمل ، وأمانته في أدائه ، وبذلك يجيء عمله نموذجاً ومثالاً. والخلق ، والابداع ، والتصوير : من صفات الله وأسمائه الحسنى .

٦ - والانسان في حاجة ليعلم : ان ممالأة الشر: فيها القضاء على انسانية الانسان وحضارته ، وان الطريق لصيانة الانسانية هو في الوقوف في وجهه وتحدي مصادره . والجبار من صفات الله وأسمائه الحسنى .

٧ - والانسان في حاجة ليعلم : ان الانسان الذي لا يؤمن ، هو : ضعيف يسلم نفسه لكل دافع ، ونحو أي اتجاه . وسبيل نجاته من الضعف هو الايمان . والمؤمن صفة من صفات الله وأسمائه الحسنى .. وهكذا : أسماء الله الحسنى فيها سر قوة الانسان : في انسانيته ، وعلى هواه وشهوته ، وفي طمأنينته وعدم إذلاله ومهانته ، وفي جده في سعيه وفي اتقانه لعمله .. فيها سر الانسان المؤمن ، العادل المتخلق بخلق الله جل شأنه .

الاسلام دين الله

لكي نعرف : ما هو دين الله ؟ نرجع الى الرسالة الإلهية الأولى على عهد ابراهيم عليه السلام .

والقرآن الكريم يقص علينا دين ابراهيم الذي أمر باتباعه وتبليغه للناس ، فيما تذكره هذه الآيات الثلاث :

« ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ،
« ولقد اصطفيناه في الدنيا ، وإنه في الآخرة لمن الصالحين .
« إذ قال له ربه أسلم قال : أسلمت لرب العالمين .
« ووصى بها (أي بملته) إبراهيم .. بنيه – ويعقوب – يا بني :
« إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون .
« أم كنتم شهداء ، إذ حضر يعقوب الموت ، إذ قال لبنيه :
« ما تعبدون من بعدي ؟
« قالوا : نعبد إلهك ، وإله آبائك : ابراهيم ، واسماعيل ، واسحاق ،
« إلهاً واحداً ، ونحن له مسلمون » [١] .

... فقد ذكرت هذه الآيات :

أولاً : أن ابراهيم عليه الصلاة والسلام كان رسولاً مصطفى ومختاراً من الله ، « ولقد اصطفيناه في الدنيا » .

وثانياً : أن الدين الذي جاء به كان رسالة من الله سبحانه وتعالى : « إن الله اصطفى لكم الدين » وأن هذه الرسالة لا يميل عنها إلا من انحرف عن جادة الحكمة : « ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه » .

وثالثاً : أنه طلب من أبنائه أن يسلموا ، وأن لا يدركهم الموت إلا وهم مسلمون : « فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون » .

ورابعاً : أن يعقوب – بعده – سأل أبناءه بدوره عن نوع عبادتهم فأجابوه : بأنهم مسلمون . يعبدون إلهاً واحداً ، وهو ما كان يعبده ابراهيم واسماعيل ، وإسحاق من قبل : « قالوا : نعبد إلهك وإله آبائك : ابراهيم ،

---

(١) البقرة ١٣٠ – ١٣٣

واسماعيل ، واسحاق ، إلهاً واحداً ، ونحن له مسلمون » .

فالاسلام كان رسالة ابراهيم ، ورسالة من بعده من الرسل من أبنائه ، وأتباع اسماعيل واسحاق ويعقوب كانوا أيضاً على دين الاسلام .

كما نرجع الى القرآن ذاته في التعرف على دين الله على عهد الرسول محمد عليه الصلاة والسلام ، فنتلو هاتين الآيتين في سورة آل عمران ، والخطاب فيهما موجه اليه ﷺ والى المؤمنين به :

« قل آمنا بالله ،

« وما أنزل علينا ، وما أنزل على ابراهيم ، واسماعيل ، واسحاق ،

« ويعقوب ، والأسباط (وهم من نسل يعقوب) ،

« وما أوتي موسى وعيسى ، والنبيون من ربهم ،

« لا نفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون .

« ومن يبتغ غير الأسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من

« الخاسرين »[1] .

... فالقرآن هنا يأمر :

أولاً : بالإيمان بالله .

وثانياً : بالإيمان بما أنزل على محمد ﷺ ، وبما كان من رسالة نزلت على ابراهيم – حتى عيسى عليهم السلام ، دون التفرقة بين أحد منهم .

وثالثاً : بأن هذه الرسالة هي : الاسلام ، وأن من يتبع غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه ، وهو في الآخرة من الخاسرين .

وأخيراً : أن المؤمنين بهذه الرسالة هم مسلمون .

---

(١) آل عمران ٨٤ – ٨٥

فالاسلام هو دين الله على أي عهد من عهود الرسل .

والمؤمنون بدين الله هم المسلمون ، في أي وقت من أوقات الرسالة الإلهية.

والآن : ما هو مضمون الدعوة لدين الله ؟

أو : ما هو مضمون دعوة الأسلام ؟

يتحدث القرآن عن مضمون هذه الدعوة فيما تقوله الآيات الكريمة ، والخطاب فيها كذلك للرسول محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام :

« قل :

« يا أيها الناس !

« إن كنتم في شك من ديني فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ،

« ولكن أعبد الذي يتوفاكم ،

« وأمرت أن أكون من المؤمنين .

« وأن أقم وجهك للدين حنيفاً ، ولا تكونن من المشركين .

« ولا تدعُ من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك (أي في واقع الأمر ،

« وعلى طول المدى) ،

« فإن فعلت فإنك إذاً من الظالمين .

« وان يمسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وأن يردك بخير فلا راد لفضله،

« يصيب به من يشاء من عباده ، وهو الغفور الرحيم .

« قل : يا أيها الناس :

« قد جاءكم الحق من ربكم ،

« فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ،

« ومن ضل فإنما يضل عليها ،

« وما أنا عليكم بوكيل (أي لا ألزمكم وأكرهكم على الإيمان) »[1] .

---

(١) يونس ١٠٤ – ١٠٨

... ففي هـذه الآيات يتحدث القرآن عن مضمون الدعوة الى دين الله ، وهو الإسلام في كل عهد من عهود الرسالة الإلهية ومضمونها هو :

الإيمان بالله وحده ،

والله صاحب القدرة على إنهاء الآجال : « ولكن أعبد الذي يتوفاكم» ،

وهو صاحب انهاء الأزمات والشدائد : « وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو » .

وهو الذي لا يستطيع موجود آخر أن يرد فضله وخيره لانسان ما : « وان يردك بخير فلا راد لفضله » .

وأنه صاحب المغفرة والرحمة : « وهو الغفور الرحيم » .

النهي عن الشرك ، وعن الوثنية المادية : « وأن أقم وجهك للدين حنيفاً ولا تكونن من المشركين » .

وعن توجيه العبادة — وهي منتهى الإحترام والإجلال — الى ما لا يملك في واقع الأمر ضراً ولا نفعاً لأحد .. لما هو عاجز عن المحافظـة على ذاته ، فضلاً عن عجزه عن قدرة الاعطاء للآخرين : « ولا تدعُ من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك » .

عدم الاكراه والإلزام في شأن الايمان بالله . إذ الايمان والكفر تعود نتائجهما على المؤمن ، أو على الكافر وحدهما : « فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها ، وما أنا عليكم بوكيل » .

وبهذا يكون : الاسلام :

دين الله في كل وقت ،

ودين الله هو الوقوف بالعبادة والاحترام عند المولى سبحانه وصفاته التي تمثل القيم العليا في حياة الانسان .

وهو عدم التجاوز بالعبادة والاحترام الى الموجودين الآخرين مع الإنسان أياً كان نوعهم . فهم أشباح تستمد ظل وجودها من غيرها .

وأن دين الله لا اكراه فيه ، ولا ارهاب في حمل الناس على طاعته .

ودين الله – الذي هو الاسلام في كل وقت – إذا كان يدعو في جوهره الى قصر العبادة على الله وحده ، فإنه يريد أن يحتفظ للانسان بكرامته .

وإذا كان لا إكراه فيه فإنه يريد أن يحفظ عليه حريته ومشيئته .

وهنا كان الاسلام : دين الله ودين الانسانية معاً .

الذكر :

يقول الله تعالى في سورة : ص : « ص . والقرآن ذي الذكر (أي والقرآن صاحب الشرف والنباهة) » . ويقسم الله جل شأنه بحرف « الصاد » من حروف الهجاء العربي – وكذلك إذ يقسم بأي حرف أو حروف أخرى منه في أي موضع آخر – إنما ليوضح : أن مدخول القسم وهو هنا : « والقرآن ذي الذكر » : في ظهوره وعدم انكاره – إلا من متعنت – يشبه حرف « الصاد » في وضوح كونه من أحرف الهجاء العربي ، إذ ليس هناك عربي ينكر : أن حرف الصاد من هجاء الكلمات العربية ، بل ومما تتميز به هذه اللغة من غيرها من اللغات ، إلا اذا كان هذا العربي متعنتاً في إنكاره .

فوصف القرآن الكريم بالذكر –أي بالشرف والنباهة– كأنه أمر مفروغ منه ، لا يحتاج الى مزيد من البيان. وأخذ القرآن هذا الوصف ، لأنه الكتاب السماوي الوحيد ، والأخير – بعد التوراة – الذي يجمع بين منهج الحياة كشريعة ، ومنهج السلوك العملي كهداية : « وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا : ما أنزل الله على بشر من شيء ، قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى : نوراً وهدى للناس ؟ تجعلونه قراطيس : تبدونها ، وتخفون كثيراً (أي تجعلونه أوراقاً مفرقة وأجزاء ينفصل بعضها عن بعض ، فيمكن إظهار

البعض وإخفاء البعض الآخر منها : للاحتراف والتكسب ، بدل الإبقاء عليه كوحدة واحدة : إما أن تظهر فتعرف كلها أو تختفي فتنكر جميعها) وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم (والخطاب موجه لبني اسرائيل) قل : الله ، ثم ذرهم في خوضهم يلعبون . وهذا كتاب (أي القرآن) أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه (وهو كتاب موسى . أما كتاب عيسى فهو استمرار لما أنزل على موسى) ولتنذر أم القرى ومن حولها (يقصد مكة وضواحيها) والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به (وهم غير المشركين الوثنيين الماديين) وهم على صلاتهم يحافظون »[1] .

ففي خطاب الله لبني اسرائيل بالرد عليهم في شأن إنكارهم نزول القرآن على الرسول عليه السلام لأنه بشر : يذكر القرآن أن التوراة — وهم يعتقدون أنها كتاب الله — أنزلت على موسى وهو بشر ، كما يبين أن القرآن وهو على غرار التوراة في التفصيل ، وفي الجمع بين العقيدة والشريعة ، أنزل على محمد وهو بشر كذلك ، صلوات الله وسلامه عليه .

ولوضوح وصف القرآن بالذكر ، جاء : « الذكر » — بهذا التعريف وبدون اضافة الى كلمة أخرى تعبيراً عن القرآن نفسه في مواضع عديدة من كتاب الله ، بحيث لا يراد منه إلا ما يراد من القرآن . يقول الله تعالى :

١ — « وأنزلنا إليك الذكر (أي القرآن ككتاب لله) لتبين للناس ما نزل إليهم ، ولعلهم يتفكرون »[2] . ويقول :

٢ — « إنّا نحن نزّلنا الذكر (أي القرآن) وإنّا له لحافظون »[3] .
ويقول :

---

(١) الانعام ٩١ — ٩٢
(٢) النحل : ٤٤
(٣) الحجر : ٩

٣ – « وقالوا (أي مشركو مكة من الوثنيين الماديين) : يا أيها الذي نزل عليه الذكر (أي القرآن) انك لمجنون » [١] . واتهموه عليه الصلاة والسلام بالجنون لأن ما جاء به في القرآن يقضي على أساطيرهم ، وعلى استغلالهم واحترافهم بالدين ، وعلى الأرستقراطية الدينية ، والطبقية في الدين :

بين عامة الأتباع ، والكهان ،

والقوى الخفية التي يدعى لها : استراق السمع من غيب السماء .

وعلى هذا النحو قول الله تعالى : « وان يكاد الذين كفروا (وهم المشركون الماديون أنفسهم) ليزلقونك بأبصارهم (أي ليمحونك من الوجود غيظاً) لما سمعوا الذكر (أي القرآن) ويقولون إنه لمجنون » [٢] . ويقول :

٤ – « إنما تنذر من اتبع الذكر (أي القرآن) وخشي الرحمن بالغيب (أي انما تثمر بشارتك وانذارك بالقرآن وبهدايته : بمن يؤمن بالقرآن ويخشى ربه ، وهو لا يدركه بالبصر) » [٣] . ويقول :

٥ – « ولقد كتبنا في الزبور (وهو كتاب داود الذي أرسل به) من بعد الذكر (وهو القرآن – كتاب محمد عليه الصلاة والسلام –) : أن الأرض يرثها عبادي الصالحون » [٤] . أي أن تمكين عباد الله الصالحين من الأرض ، وخلافتهم عليها .. أمر مقضى به من عند الله ، منذ أن أرسل برسالته الى الناس عليها .. حتى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام . فهو مكتوب في القرآن فيما يقوله الله تعالى : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات : ليستخلفنهم في الأرض ، كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً ، يعبدونني ، لا يشركون

---

(١) الحجر : ٦
(٢) القلم : ٥١
(٣) يس : ١١
(٤) الأنبياء : ١٠٥

بي شيئاً ، ومن كفر بعد ذلك ، فأولئك هم الفاسقون »[1] . وكان مكتوباً كذلك في رسالة داود .

وهكذا ترد كلمة « الذكر » بهذا التعريف في القرآن الكريم : لكتاب الله ، الذي هو القرآن ، في أغلب ما ترد فيه . فإذا أطلق: الذكر — بعد ذلك — على تلاوة « الأوراد » أو على « الحضرة » التي تتلى فيها هذه الأوراد ويباشرها فريق الزهاد.. فلأن الأصل في الأوراد أن تكون من القرآن وآياته.

الحكمة :

يقول الله تعالى في سورة الإسراء[2] : « وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه ، وبالوالدين احساناً . الى أن يقول : « ذلك مما أوحى اليك ربك من الحكمة ، ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتلقى في جهنم ملوماً مدحوراً » . ويشير بقوله : « ذلك مما أوحى اليك ربك من الحكمة » .. الى الوصايا العديدة التي ذكرت قبل هذه الآية : ابتداء من عبادة الله وحده الى عدم الخيلاء في حركة السير . وهذه الوصايا :

١ — عبادة الله وحده .

٢ — والاحسان في معاملة الوالدين .

٣ — واعطاء حقوق ذي القربى ، واليتامى ، والمساكين .

٤ — والاعتدال في انفاق المال على النفس .

٥ — وتجنب قتل الأولاد خشية الفقر .

٦ — وعدم الاعتداء على الاعراض بالزنا .

---

(١) النور : ٥٥
(٢) الاسراء : ٢٣ — ٣٩

٧ – وعدم الاعتداء على النفوس بالقتل .

٨ – وعدم المساس بأموال اليتامى والضعفاء .

٩ – والوفاء بالعهد .

١٠ – والعدل في التعامل ، والوفاء بالحقوق والواجبات .

١١ – وعدم التجسس ، وعدم تتبع ما لا يعني الانسان .

١٢ – وعدم الخيلاء في حركة السير .

وهي وصايا عملية في سلوك الانسان ، حتى عبادة الله وحده ، تحدد منهج السلوك التطبيقي في الحياة ، وتكون قواعد الأخلاق التي يجب أن يسير عليها الانسان . وعقب أن يذكرها القرآن الكريم في وصاياه – التي هي أوامر ، أو نواهي هنا – يشير اليها بأنها وحي من « الحكمة » لله : « ذلك مما أوحى اليك ربك من الحكمة » . والحكمة إذن هي المنهاج العملي للسلوك في مقابل الاعتقاد . فإذا قرنت الحكمة بالكتاب – أي جاءت مقترنة معه – في آية من آيات القرآن ، كما في قوله تعالى : « ولولا فضل الله عليكم ورحمته لهمّت طائفة منهم (أي من المشركين الماديين الملحدين) أن يضلوك ، وما يضلون إلا أنفسهم ، وما يضرونك من شيء ، وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة »[1] . فالمقصود بالحكمة كذلك: المنهج العملي أو ما يسمى بالشريعة. إذ الشريعة هي الطريق ، والسبيل . والمقصود بالكتاب ما تضمن العقيدة . وإذن قول الله : « وأنزل عليك الكتاب ، والحكمة » معناه : أنزل عليك العقيدة والشريعة معاً . أي أنزل عليك ديناً متكاملاً ، يمثل الاعتقاد الصحيح ، كما يمثل المنهج العملي السليم . ولذا كان التعقيب في هذه الآية بقوله : « وكان فضل الله عليك عظيما » . لأن الجمع في الوحي الى رسول من الرسل : بين العقيدة ، والشريعة ، يعبر عن ميزة الرسول وفضله بين الرسل .

---

(١) النساء : ١١٣

وكذا قوله تعالى في سورة البقرة : « يؤتي الحكمة من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً »[1] . بعد تلك الآيات التي أوصت بالإنفاق في سبيل الله : ابتداء من قوله : « مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل ، في كل سنبلة مائة حبة .. الى قوله .. الشيطان يعدكم الفقر ، ويأمركم بالفحشاء ، والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً ، والله واسع عليم »[2] . فإن الحكمة هنا أقرب الى المنهج العملي في السلوك . لأن الانفاق سبيل وطريق عملي في الحياة .

وعلى هـذا النحو ما جاء في قصة داود في قوله : « وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء »[3] . فالحكمة التي أعطيها داود من قبل الله هي : الأخلاق والسلوك المستقيم . فقد عرف عنه أنه كان ذا خلق كريم ، وذا شجاعة في سبيل الايمان بالله . ولذا انتصر في القتال ضد الأشوريين لتخليص أسرى بني اسرائيل لديهم . وقد كان أسرهم الأشوريون في حرب معهم : أذلوهم واقتحموا عليهم ديارهم ، وهدموا ما كان لهم من حضارة مادية ومعابد ، وبينها هيكل سليمان . وإلى هذه الهزيمة يشير القرآن الكريم في سورة الإسراء : « وقضينا الى بني اسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيراً (أي لتطغون طغياناً ظاهراً) . فإذا جاء وعد أولاهما (أي وعد عقاب الأولى) بعثنا عليكم عبـاداً لنا أولي بأس شديد (وربمـا يقصد القرآن الأشوريين) فجاسوا خلال الديار (أي اقتحموهـا وهلكوا ما وجدوا فيها) وكان وعداً مفعولاً (أي ناجزاً ونافذاً) »[4] .

وعلى هذا المعنى يحمل مفهوم « الحكمـة » – وهو معنى الشريعة أو المنهج

---

(١) البقرة : ٢٦٩

(٢) ٢٦١ – ٢٦٨

(٣) البقرة : ٢٥١

(٤) الإسراء : ٤ – ٥

العملي والأخلاقي للسلوك – اذا جاءت كلمة الحكمة في آية وحدها ، أو مقترنة مع كلمة « الكتاب » . على أن يقصد بالكتاب عندئذ : ما يحدد مضمون العقيدة. كما في قوله تعالى : « هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته (أي آيات الله التي يوحي بها اليه مما يشمل الشريعة ، والعقيدة معاً) ويعلمهم الكتاب (أي العقيدة) والحكمة (أي الشريعة وآداب السلوك) وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين »[(١)] .

وفيما يقوله جبريل – مبشراً مريم بعيسى المسيح عليه السلام – رداً على سؤالها : « قالت رب ، أنى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر ؟ قال : كذلك الله يخلق ما يشاء ، إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون . ويعلمه الكتاب (أي العقيدة) والحكمة (أي الشريعة) والتوراة والانجيل (أي ما يجمع الأمرين من عقيدة وشريعة) ورسولاً الى بني اسرائيل »[(٢)] . وفيما يقوله جبريل هنا في هذا الحوار من : كتاب ، وحكمة .. لا يخرج معناهما عما ذكر من قبل . وذكر التوراة والانجيل بعد ذلك هو ذكر لما عرف عند بني اسرائيل مما يعم العقيدة ، والشريعة . تأكيداً بأن رسالة عيسى هي في نطاق ما جاء به موسى من قبل . وبذلك تكون حجته في بني اسرائيل حجة واضحة .

الكتاب المصدق :

يقول الله تعالى : في سورة الإحقاف :

« ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة ،

« وهذا كتاب مصدق ، لساناً عربياً ، لينـذر الذين ظلموا ، وبشرى للمحسنين »[(٣)] .

---

(١) الجمعة : ٢
(٢) آل عمران : ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩
(٣) الاحقاف : ١٢

يذكر القرآن في بيان حُجّيته، وأنه من عند الله ، بأن سبقه كتاب موسى عليه السلام – وهو التوراة – كشريعة ورحمة للمؤمنين ، أرسل به من قبل ربه . وما جاء في القرآن هو على نحو ما في كتاب موسى . فهو شريعة كذلك ، ورحمة للمؤمنين به . ولذا فهو مصدق له ، ولكنه بلسان عربي .

وكتاب موسى كان معروفاً وسبق الايمان به . فاذا كان القرآن متساوقاً لما نزل فيه فليست هنالك موانع تقف في طريق الايمان به كذلك ، إلا اذا كانت موانع من حرص على جاه أو زعامة ، أو من تأثر بتقاليد . وهذه موانع خارجة عن موضوعه .

وتوافق القرآن مع التوراة في تفصيل رسالة الله ، كنظام لحياة الانسان ومنهج يسير عليه الانسان في سلوكه وفي علاقته بالآخرين ، ان كان حجة لصحة نزول القرآن والوحي به ، كما تهدف الآية ، فلا ينبغي أن يتخذ سبيلا – كما يروجه كثير من المستشرقين – لادعاء : أنه لهـذا التوافق : من تأليف الرسول محمد عليه الصلاة والسلام ، تأثر فيه بما لليهود من كتاب . إذ أن القرآن في الوقت الذي يؤيد فيه ما نزل في التوراة ، رسالة موسى ، يكشف أيضاً عما اختلف اليهود فيه عن هذه الرسالة بما أضافوه ، أو حرفوه ، أو أولوه من أقوالها : « أن هذا القرآن يقص على بني اسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون »[1] . وهو لهذا معيار لرسالة الله في ذاتها .

ولو انه كان مؤلفاً خاصاً للرسول عليه الصلاة والسلام – كما يروجه هؤلاء المستشرقون – متأثراً فيه بما لليهود من دين ، لما كان فاصلاً بين الحق في ذاته ، وهو ما في التوراة كرسالة لله على عهد موسى ، وباطل بني اسرائيل ، وهو ما أضافوه ، أو حرفوه ، أو أولوه واختلفوا فيه عن هذه الرسالة .

وكون القرآن مصدقاً لكتاب موسى ثم حاكياً لما اختلف فيه بنو اسرائيل ، دليل صدقه هو فيما جاء به من عند الله . إذ كيف يتسنى للرسول عليه الصلاة

---

(١) النمل : ٧٦

والسلام – كمؤلف للقرآن ، حسب ادعاء هؤلاء المستشرقين ، وادعاء السابقين من أهل الكتاب – أن يفصل في تراث اليهود الديني بين ما هو من قبل الله جاء به موسى، وما صنعوه هم : امالة برسالة الله الى تمييز عنصري لهم ، أو الى تبرير مواقفهم من الأنبياء بعد موسى ، أو مواقف كبرائهم من ضعفائهم : في اخراج بعضهم بعضاً من ديارهم ، وحل سفك الدماء في سبيل الابقاء على زعامات خاصة ؟

ومهمة القرآن – بعد كونه مصدقاً لما سبقه من كتاب – هي مهمة الرسالة الإلهية في كل عهد: أن ينذر به الرسول ﷺ، الظالمين لأنفسهم برفضهم قبوله ، ويبشر به المحسنين لأنفسهم وفي سلوكهم الانساني على العموم الذي آمنوا به .. ينذر الظالمين بسوء جزائهم في الدنيا والآخرة ، ويبشر المحسنين المؤمنين بحسن جزائهم في الدارين معاً ، كذلك .

فالظالمون الذين يعارضون قبول الايمان بالقرآن هم أولئكم الذين وقعوا – أو يقعون – تحت طغيان « المادية » في حياتهم . ويخشون بالايمان به فوات جاه مادي ، هو جاه الزعامة والرياسة ، أو فوات متعة مادية ، هي متعة ترفهم على حساب حرمان الضعفاء فيهم وشقائهم . فالقرآن كل دعوته تتمثل في العدل في المبادلة والمعاملة ، وفي الاحسان في الاعطاء أكثر من الأخذ . والعدل يشكل موازنة لا غبن فيها . والاحسان يعطي الدليل على انسانية المحسن في سلوكه مع الآخرين . وفي قبول دعوة القرآن تنازل عن الرياسات والزعامات التي تحصل لأصحاب الرياسة والزعامة : متعاً مادية ، وترفاً مادياً ، على حساب الآخرين .

وقد جاء في العهد الذي أخذه الله على بني اسرائيل ، أن طلب اليهم أن يستعينوا بالصبر والصلاة ، فيما تذكره الآية :

« واستعينوا بالصبر والصلاة ، وأنها لكبيرة إلا على الخاشعين ، الذين

يظنون أنهم مُلاقو ربهم ، وأنهم اليه راجعون »[1] . طلب اليهم أن يستعينوا بالصبر في عودتهم الى الايمــان ، لأن انتقالهم من وضعهم المادي في الرياسة والمبالغة في الاستمتاع بالمتع المادية .. الى الايمان بالاعتدال في الاستمتاع بالدنيا وزينتها ، وعدم الاسراف في طيباتها — وهو نتيجة الايمان بالله — ليس من السهل أن تتحمله النفس البشرية المادية ، ولذا لا بد لها من فضيلة الصبر على ذلك .. كما طلب اليهم — في هذه الآية كذلك — أن يستعينوا بالصلاة في هذا الانتقال ، لما في الصلاة من اتصال مباشر بالله ، وبعد عن طغيان المادية .

وفي الوقت الذي يطلب القرآن اليهم الاستعانة بالصلاة : يحكم على أنهـا لكبيرة ، وعظيمة شاقة بالنسبة لأصحاب الرياسات ؛ لأنهـا دليل التحول بالفعل من المادية الى الروحية ؛ وهذا أمر يشق عليهم . أما الخاشعون الضعفاء فيهم ، الذين لا تسيطر المـادية عليهم فلا ينكرون اليوم الآخر ، ويظنون أنهم مع ذلك ملاقو ربهم ، فلا تكبر عليهم الصلاة ولا تشق عليهم ، إذ تحولهم من وضعهم السابق الى الوضع الجديد في الايمـان بالله ، أيسر من تحول المستكبرين فيهم ، لأنهم قد لا يخسرون مادياً شيئاً ، وان هم خسروا شيئاً ، فقليل ما يخسرون .

فهؤلاء الظالمون يكون القرآن إنذاراً لهم بسقوط مجتمعاتهم ، أو بالانتقام منهم عن طريق الحاقدين عليهم فيهـا ، ثم بعقاب الله لهم في آخرتهم ، ومن أجل هذا الجزاء الأليم في دنياهم ، وفي آخرتهم ، يتضح ظلمهم لانفسهم .

أما المحسنون فالقرآن بشرى لهم ، بأنـه لا خوف عليهم ولا هم يحزنون في دنياهم وفي آخرتهم على السواء ، لأنهم لم يصنعوا سوءاً ، يضمر لهم غيرهم العداء بسببه في دنياهم ، ثم يجازيهم الله عليه في لقائهم معه في الآخرة جلت قدرته ، لأنهم أحسنوا أي أعطوا أكثر مما أخذوا ، وبذلك كانوا يؤثرون

(١) البقرة : ٤٥

غيرهم على أنفسهم ، فلهم حسن السمعة في الدنيا ، ورضاه الله في الآخرة .

الحـــق :

مفهوم « الحق » — حسبما ورد استعماله في كثير من آيات القرآن الكريم — يراد به ما ينبغي ويجب أن يتحقق ، ويجب أن يكون في واقع الأمر . لأنه في وقوعه ترتبط به مصلحة عامة .

فإذا أطلق المولى على نفسه : الحق ، في قول الله تعالى : « فذالكم الله ربكم الحق » [1] . فإنه يقصد بالحق في وصفه سبحانه : ما ينبغي ويجب أن يتحقق من ربوبيته وحده . واذا استطردت الآيـــة فذكرت : « فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟ » . فإنها تعني : ليس هناك : بعد ما ينبغي أن يتحقق من ربوبية الله وحده.. إلا الضلال ، وهو ما لا ينبغي أن يكون ويتحقق من ربوبية موجود آخر عداه .

وكذلك — في مجال اقامة الحجة على المشركين الماديين — اذا قال القرآن مستفهماً على سبيل الانكار : « هل من شركائكم من يهدي الى الحق »؟[2]. فالمعنى: من يهدي الى ما ينبغي أن يتحقق ، من صراط سوي في السلوك ، ودليل صدق على الاعتقاد . ثم إذا جاء على أثر هذا الاستفهام الانكاري الذي يتضمن نفي : أن يكون أحد من الشركاء لله على استطاعة : من هداية من يعبده . قوله تعالى : « قل الله يهدي الى الحق » . فالمقصود أمر الرسول عليه الصلاة والسلام أن يعلن : أن الله وحده — دون الشركاء له والأنداد التي يعتقد فيها المعارضون — هو الذي يملك الهداية لعباده . والنتيجة الآن بعد اعلان : أن الشركاء الذين يتوجه اليهم بالعبادة أولئكم المعارضون الماديون.. لا يستطيعون هداية من يعبدونهم ، وبعد الاعلان كذلك : إن الله وحـده هو الذي يملك

---

(١) يونس : ٣٢

(٢) يونس : ٣٥

الهداية لمن يعبده .. النتيجة هي : أن الذي يملك الهدايــة ينبغي أن تتحقق العبادة له ، دون ما سواه ممن لا يقدر عليها ، وهو أولى بأن يتبع من غيره. وقد عبرت آية أخرى عن هــذه النتيجة بقوله تعالى : « أفمن يهدي الى الحق (أي الى ما ينبغي أن يتحقق من الهــداية) أحق أن يتبع ، أم من لا يهدي (أي لا يملك بذاته الهدايــة) إلا أن يهدى (أي يهدى من غيره) ؟ وهذا استفهام أريد به : إثبات التبعية لمن يملك الهداية ، ونفيها عمن ليست باستطاعته وفي مقدوره .

فكلمة « الحق » في هذه الآيات — وأمثالها كثير — تعطي أن المعنى منها هو ما ينبغي أن يقع ويتحقق ، وتترتب على وقوعه وتحققــه مصلحة عامة . والمصلحة العــامة التي تترتب هنا على وصف الله لنفسه بالحق ، في قوله : « فذلكم الله ربكم الحق » .. هي أن قصر العبادة على الله وحده الذي ينبغي أن تتحقق ربوبيته ، دون غيره ممن يدعي أنهم أنداد له .. يحفظ على الناس كراماتهم ، فلا يذلون لمخلوق كائن من كان — فضلاً عن أن يذلوا لما هو دون الانسان — في العبادة والطاعة . والانسان بإنسانيته لا يوجد على هذه الأرض ليأكل ، ويشرب ، وينسل ، كما هو شأن الحيوان . وإنمــا وجد ليؤمن بكرامته التي تتمثل في الايمان بالله وحده ، وليدافع عن هذه الكرامــة في مواجهة محاولة غيره استعباده ، وجعله تابعاً طيّعاً لظله .

وهذه هي عينها : المصلحة العامة التي تتوخى من التعبير بالحق — بمعنى ما ينبغي أن يتحقق — في الآيات الأخرى هنا التي تقصر امكان الهداية للبشر على الله وحده ، دون ما يدعى له من أنــداد ، وهي قوله تعالى : « قل : هل من شركائكم من يهدي الى الحق ؟ قل : الله يهــدي الى الحق . أفمن يهدي الى الحق أحق أن يتبع أم من لا يهدي إلا أن يهــدى ؟ » — هذه المصلحة العامة التي تترتب على وقوع ما يجب هنا أن يقع ، وعلى تحقق مــا ينبغي أن يتحقق : من التبعية والعبادة لله وحده ، دون الشركاء والأنداد .. تكمن في محافظة الناس على مستواهم الانساني، وعلى تميزهم في الخلق عما سواهم.

ذلك التميز الذي يتمثل في: عقل الانسان، وقلبه . وعبادة الأصنام ، وعبادة ما دون الله في أية صورة تعبر عن سخرية بالعقل ، والقلب في الانسان العابد لما سواه : جل جلاله .

ومع بقاء مفهوم « الحق » في القرآن على معنى : ما ينبغي ويجب أن يتحقق ، فقد يقصد به ، وبما ينبغي أن يتحقق .. القرآن نفسه خاصة . كما جاء في قوله تعالى : « ولما جاءهم الحق (أي ما ينبغي أن يتحقق كسبيل للهداية وهـــو القرآن) قالوا : هذا سحر ، وانا به كافرون . وقالوا : لولا (أي هلا) أنزل هذا القرآن (وهو الحق في قوله : ولما جاءهم الحق) على رجل من القريتين (مكة – والطائف) عظيم ؟ » [1] . وكما ذكر أيضاً في قول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا : لا تتخذوا عدوي وعدوكم .. أولياء، تلقون اليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق (وهو القرآن) » [2] .. فيما جاء في الموضعين هنا ، من : انكار المنكرين لما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام ، ولما نزل عليه من وحي .. يوجه : أن المعني بالحق .. هو القرآن ، ولكن مـــع استصحاب المعنى الأصيل للحق ، وهو : ما ينبغي أن يتحقق ويجب أن يقع ، لا ما سواه .

الهداية للحق :

يقول الله تعالى في سورة الأحقاف :

قالوا : يا قومنا (: انا سمعنا كتاباً انزل من بعد موسى ، مصدقاً لما بين يديه ، يهدي الى الحق ، والى طريق مستقم) [3] .

ان هذا القول جاء على لسان نفر من «الجن» . أي على لسان مجموعة غير معهودة من الناس ، أو بجموعة من الغرباء عن أهل مكة .

---

(١) الزخرف : ٣٠ – ٣١
(٢) الممتحنة : ١
(٣) الاحقاف : ٣٠

والجن معناه في الأصل : القوة الخفيـة التي لا ترى ، أو القوة المستترة . ولكن أريد به هنا : المجهول غير المعهود ، أو الغريب ، لأنه كذلك مستتر، وبذا : كأنه لا يحس .

وهذا النفر من الجن الذي يوجه نداءه الى قومه ، بعد أن عاد إليه ، هو ذلك النفر الذي طلب من الرسول عليه الصلاة والسلام في سورة : « الجن » أن يتحدث عنه ، فيما يقوله القرآن الكريم : « قل : أوحي إلي : أنه استمع نفر من الجن فقالوا: إنا سمعنا قرآناً عجباً . يهدي الى الرشد فآمنا به ، ولن نشرك بربنا أحداً »[1] .

وقد كان هذا النفر على علم بكتاب موسى عليه السلام ، وهو التوراة . فعندما استمع إلى تلاوة القرآن الكريم ووجده متفقـاً مع التوراة كرسالة لله ، آمن به ، وآمن كذلك بأنه يهدي إلى الحق وإلى صراط مستقيم . وأخذ على نفسه –من أجل إيمانه– مسئولية الدعوة إليه في قومه. فكان نداء هذا النفر إياهم : «يا قومنا ! أجيبوا داعي الله، وآمنوا به ، يغفر لكم من ذنوبكم، ويجركم من عذاب أليم . ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض ، وليس له من دونه أولياء ، أولئك في ضلال مبين »[2] .

ودعوة الداعي إلى الله هي الدعوة إلى عدم الشرك به ، وإلى قصر العبادة على الله وحده . كما جاءت في تلك الآيـة في سورة الجن : « إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرشد ، فآمنا به ، ولن نشرك بربنا أحداً » .

وإيمان هذا النفر من الجن بالقرآن وبهدايته للناس ، وبرسالة الرسول محمد ﷺ ، دليـل على : أن الإنسان لو تجرد من الهوى ، ومن حزبية الزعامة والرياسة ، ومن الحرص على المصلحة الشخصية ، فإنه لا بد أن يؤمن بهداية

---

(١) الجن : ١ ، ٢

(٢) الأحقاف : ٣١ ، ٣٢

الحق ، ممثلة في القرآن : كتاب الله .

وإذ يلفت القرآن الكريم نظر الرسول عليه الصلاة والسلام إلى حادث هذا النفر الغريب ، فيما تقوله آية سابقة : « وإذ صرفنا إليك (أي وجهنا وأملنا إليك) نفراً من الجن يستمعون القرآن ، فلما حضروه ، قالوا : انصتوا ، فلما قضي (أي فلما انتهت تلاوته) ولوا إلى قومهم منذرين. (أي اتجهوا مسرعين نحو قومهم ،ومحذرين إياهم).. إذ يلفت القرآن نظر الرسول عليه السلام إلى هذا الحادث ، فإنه يريد أن يؤكد له : أن معارضة المشركين من العرب في مكة للقرآن ، ولرسالته : ليست بسبب موضوعية الرسالة ، وما فيها من هداية للحق ، ومن توجيه إنساني كريم في السلوك إلى الطريق المستقم . بل لأسباب خارجة عن ذلك تماماً . وهي أسباب تتصل بوضعهم الاجتماعي ، والأسري معاً .

فمنزلتهم الاجتماعية هي منزلة الأشراف والأسياد ، هم أصحاب الزعامة في قريش . ومنزلتهم كذلك : هي منزلة الذين يأمرون فيطاعون ، إن كرهاً أو طوعاً .. منزلة الذين يفيدون أدبياً ، واقتصادياً من وضعهم الاجتماعي القائم .

ثم من الجانب الأسري هم أقرباء للرسول عليه الصلاة والسلام . وهو لم يكن فيهم صاحب سطوة ، ولا ثراء ، ولا جاه . فكيف – إذا هم أطاعوه الآن – يوافقون باختيارهم على التنازل عن وضعهم الاجتماعي في قريش ، ويخسرون بهذا التنازل منافع أدبية واقتصادية ؟ . وكيف هم – إذا أطاعوه الآن أيضاً – يسلمون له الريادة ، وينقلون إليه الجاه ، وربما الثراء كذلك (في زعمهم) ؟ ، وهو من هو فيهم : عديم الجاه والسطوة ؟

إذ لو كانت « موضوعية » القرآن هي السبب في معارضة مشركي مكة لرسالة الله ، لما أسرع هذا النفر الغريب عن البيئة المكية ، والبعيد عن الجو

القبلي في الجزيرة إلى الإيمان به ، معتقداً أن القرآن : مصدر هداية ورشد ، ثم لما تحمل مسئولية الدعوة إليه في قومه ، والحرص على أن يجنبوهم الشرك ، ويعودوا بهم إلى الوحـــدة في الألوهية والعبادة ، كي ينجوا بأنفسهم في دنياهم وآخرتهم .

أما كون القرآن هداية للحق ، فإن دعوته إلى « التوحيـد » هي دعوة إلى الرشد الإنساني ، والكرامة الإنسانية .. هي دعوة إلى احتفاظ الإنسان بمستواه الانساني ، لا يسقط عن هـذا المستوى إلى مستوى الطبائع الأخرى التي لم يهبها الله نعمة : السمع ، والبصر ، والفؤاد . إذ الدعوة إلى عبادة الله وحده ، من غير أن يشرك به ، تنطوي على طلب الحد من الأنانية ، وعلى عدم المبالغة في الاستمتاع بمتع الحياة المادية والاسراف فيها ، وعلى عدم النفاق ، والانتهازية ، والنفعية الرخيصة .

فالاتجاه بالعبـــادة الى الله وحده معناه : عدم الخضوع للهوى .. عدم الخضوع لاغراء الاتجـــاه المادي . معناه : تمثل القيم العليا في صفات الله ، والتقرب إليه بمحاكاتها في تنمية الذات ، وفي التصرف ، والسلوك الإنساني . فهو العليم ، والحكيم ، والخالق ، والقادر القوي ، والحي .. الخ . وعبادته عن طريق الصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج ، والجهـــاد في سبيل الله ، هي : السعي نحو العلم ، والحكمة ، والإبداع والإتقان في العمل ، والقـدرة البدنية والذهنية ، والحياة ذات الفاعلية في الوجود الانساني ، نحو التماسك ، والأخوة ، والمودة .

إن الدعوة إلى التوحيد وعدم الشرك دعوة إلى الروحيـــة الإنسانية ، وتحذير من طغيان المادية . فالمادية في طغيانها تحول الإنسان من صاحب سمع ، وبصر ، وفؤاد ، إلى أصم ، أعمى ، ثم إلى ضال يجحد بالله وبآياته : « ولقد مكناهم فيما ان مكناكم فيه ، وجعلنا لهم سمعاً ، وأبصاراً ، وأفئدة ، فـما

أغنى عنهم سمعهم ، ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله ، وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون »[1] .

البيّنـــة :

يعبر القرآن الكريم باسم : البينة .. في آياته عن : الحجة ، والدليـل ، والأمارة التي يحملها الرسول –أي رسول– عليه الصلاة والسلام ، إلى الناس، ويضعها موضع الاختبار في الإيمان والكفر بالله .

فهو يقص قصة صالح إلى ثمود، وما يحمله من أمارة الرسالة، ويكون تقبل هذه الأمارة علامة على الإيمان بالله ، بينما رفضها يكون دليلاً على الكفر به ، في قول الله تعالى : « وإلى ثمود أخاهم صالحـــاً ، قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، قد جاءتكم بيّنة من ربكم (أي حملت لكم حجة وأمارة على الرسالة من عند الله) : هذه ناقـة الله لكم آية ، فذروها تأكل في أرض الله ، ولا تمسّوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم »[2] .. فالحجة التي أرسل بهـا صالح إلى ثمود من عند الله ، وتعتبر آية صدقه على الرسالة – وفي الوقت نفسه تعتبر مجالاً لاختبار الإيمان والكفر في قومه – هي : الناقة التي صحبها معه ، وطلب من قومه أن تأخذ قسطهـا في الرعي في المراعي والشرب من الآبار ، أسوة بأنعام الأغنيـــاء وأرباب السطوة في ثمود ، الذين احتجزوا الرعي في الكلأ ، والشرب في الآبار العامة لإبلهم وحدهم ، دون الفقراء والضعفاء . فإن تركوا ناقة صالح تفعل كما تفعل إبلهم كانوا عندئذ مؤمنين برسالة الله ، وهي رسالة : العـــدل والمساواة في الحقوق بين الناس جميعاً : لا فرق بين كبير وصغير ، وبين قوي وضعيف . وإن هم منعوها من قسطهـا في الرعي والشرب كانوا كافرين بالرسالة الإلهيـــة ، وبقوا على عتوهم واستكبارهم في

---

(١) الأحقاف : ٢٦
(٢) الاعراف : ٧٣

الارض ، واستحقوا من أجل ذلك .. عقاب الله . فناقـــة صالح هي بينة وحجة .. وهي دليل الإيمان والكفر .. وبها يعرف المؤمن بالله من الكافر به في ثمود .

.. ويقص أيضاً قصة شعيب إلى أهل مدين على الجانب الشرقي من خليج العقبة ، وما أتى به أمارة الرسالة ودليل الإيمـــان والكفر بالله ، فيقول : « وإلى مدين أخاهم : شعيباً ، قال يا قوم : اعبـــدوا الله ، ما لكم من إله غيره ، قد جاءتكم بيّنة من ربكم (أي حجة ، وأمارة ، وشاهد على الإيمان والكفر) : فأوفوا الكيل والمـــيزان ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ، ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين »[1] .. فبيّنة شعيب وحجته إلى قومه في أهل مدين : كانت طلب الوفـــاء في المعاملات التجارية .. طلب العـــدل وعدم بخس الناس أشياءهم في الكيل والميزان فيما يتقوتون به .. كانت طلب الكف عن العبث والفساد في استغلال المال وانتهاز حاجة المحتاجين من الناس . فإن قبلت هذه الحجة وهذا الدليل على رسالة شعيب من أهل مدين كانوا مؤمنين به وبرسالته . وهذه البينة أو هذه الحجة كانت مجال الاختبار في الايمان والكفر بالله . لأن الاستغلال السيء والضار للمال كان ظاهرة تسود مجتمع مدين ، وهو مجتمع تجاري كان يتعامل بالخصوص في الحبوب المستوردة من مصر . ويختلف بذلك عن مجتمع ثمـــود الذي كان مجتمعاً زراعياً يعيش على تربية الحيوان . والضرر الذي كان شائعاً في مجتمع ثمود هو الضرر الناشيء عن احتكار الزعمـــاء والأقوياء فيه للمراعى العامة والآبار العامة للمياه لما يملكون وحدهم من أنعـــام ، دون بقية الناس . وهم سوادهم وكثرتهم من الفقراء والضعفاء .

.. ويقص كذلك قصة موسى مع فرعون وملائه عنـــدما جاءه ببيّنة من

---

(١) الاعراف : ٨٥

ربه ، ويشير القرآن إليها على سبيل الاجمال في قول الله تعالى : « وقال موسى يا فرعون : إني رسول من رب العـالمين . حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق ، قد جئتكم ببينة من ربكم (أي بحجة ودليل ومختبر على الايمان والكفر بالله) : فأرسل معي بني إسرائيـل »[1] .. وهنا أيضاً تختلف بينة موسى عن بينة صالح في ثمود ، وبينة شعيب في أهل مدين . لأن الظلم الشائع في مجتمع فرعون وكبرائه وأعوانه لم يكن ظلما ناشئاً عن إقطاع في المراعي وآبار المياه ، ولا ناشئاً عن استغلال سيء لرأس المال . بل كان ناشئاً عن استعبـاد وإذلال لقوم هاجروا الى مصر ودخلوا على أهلها ، وشاركوهم في مجال الزراعة والتجارة ، واستقروا معهم عدة قرون على هذا النحو وهم قوم بني إسرائيل ، أي أولاد يعقوب من اليهود ، أي كان قائماً على التفرقة العنصرية . وكانت من أجل ذلك بينة موسى الى فرعون هي : طلب فك الحصار عنهم ، والإذن لهم بمغادرة مصر والعودة الى مكانهم الذي هاجروا منه من قبل .. أي كانت بينته العمل على تحقيق الحرية السياسية ، وإبعادها عن التفرقة العنصرية .

وعن بينة الرسول محمد عليه الصلاة والسلام يقول سبحانه : « وهــذا كتاب – أنزلناه – مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون . أن تقولوا (أيهـا المشركون) : إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا (ويقصد بهما : اليهود والنصارى) وان كنا عن دراستهم لغافلين . أو تقولوا : لو أنا أنزل علينـا الكتاب (أي بدلاً من اليهود والنصارى من قبل) لكنا أهدى منهم ، فقد جاءكم بينة من ربكم (أي حجة وأمارة على الرسالة ، ومجال اختبار للايمان والكفر بالله – ويقصد بها القرآن) وهدى ورحمـة (أي ومع كون القرآن بينة وحجة على الرسالة فهو في الوقت نفسه : كتاب هداية للسلوك المستقيم والعقيدة الصحيحة ، ورحمة في الدنيا والآخرة لمن يؤمن به) »[2] .. وكانت

---

(١) الاعراف : ١٠٥

(٢) الانعام : ١٥٥ – ١٥٧

بينة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وحجته في الرسالة ، ودليله على الايمان والكفر .. تختلف عن بينة الرسل الآخرين قبله . لأن الظاهرة التي كانت تسيطر على مجتمع مكة ومجتمع العرب بصفة عامة كانت ظاهرة الأسلوب والقول في فصاحته وبيانه . ولذا كان أسلوب القرآن هو مجال الاختبار في الإيمان والكفر لدى العرب عند بعثته عليه السلام .

والبينة اذا كانت حجة الرسول – أي رسول – في رسالتة .. فهي المدخل في الوقت نفسه للإيمان بمضمون الرسالة كلها . وبالأخص اذا كانت الرسالة عقيدة ، وشريعة معاً ، كما : في القرآن ، والتوراة قبله : « فقد جاءكم : بينة من ربكم ، وهدى ، ورحمة » .. يعبر القرآن عن رسالته .

المثـــل :

المثل في القرآن : هو وصف في مضمونه ، يقصد به التوضيح : « وله المثل الأعلى في السموات والأرض ، وهو العزيز الحكيم » [1] .. أي لله جل شأنه الوصف الكامل في الوجود كله : في السموات والأرض .

وقد يكون التوضيح عن طريق المثل – كوصف في المعنى – ناشئاً عن « شاهد » مما يجري ويقع في الحياة الإنسانية على هـذه الأرض . نقرأ قول الله تعالى : « مثلهم (أي مثل المنافقين) كمثل الذي استوقد ناراً (أي أوقد وأشعل ناراً) فلما أضاءت ما حوله .. ذهب الله بنورهم ، وتركهم في ظلمات لا يبصرون » [2] .. فإذ يجعل القرآن المنافقين : في ايمانهم أولاً ، ثم في عدولهم عن الايمان بعد ذلك : نظراء من أشعل النار فأضاء ما حوله ، ثم لم يلبث أن أطفأها وعاد بنفسه الى الظلام لا يبصر شيئاً .. انما يصفهم في حقيقة الأمر : بالحيرة بعد الهداية ، وبالضلال بعد الرشد .

---

(١) الروم : ٢٧
(٢) البقرة : ١٧

ونقرأ كذلك قول الله تعالى في وصف من أعرض عن الإيمـــان بعد أن بلغته رسالته ، واتبع ماديات الحياة وحدها : « واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها (أي فلم يتبع هدايتها) فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين. ولو شئنا لرفعناه بها (أي ولو أراد الله هدايته عن طريق آياته – وهي قرآنه – ورفعه بهذه الهداية الى المستوى الخالص في الانسانية .. لوفقه الى اتباعها) ولكنه أخلد الى الأرض (أي ولكن بدلاً من أن يتبع هداية الله في كتابه وآياته .. مال وانجذب الى الارض . والميـــل الى الارض والانجذاب اليها كناية عن الرضاء بماديات الحياة ، وعن الاستغراق فيها وحدها) واتبع هواه (وبميله الى الاستغراق في ماديات الحيـاة وحدها .. اتبع هواه ولم يستطع السيطرة عليه) فمثله كمثل الكلب : إن تحمل عليه (أي تضطهده) يلهث (أي يظهر القلق وعدم الرضاء) أو تتركه (أي بدون اضطهـاد وتتبع) يلهث (أي يظهر القلق وعـــدم الرضاء كذلك) »[1] .. فتنظير من اتبع هواه من الناس وانجذب الى ماديات الحياة وحدها : بالكلب في قلقه وعدم رضـــاه على أية حال .. هو وصف للمتبع هواه في واقـع أمره بالقلق الدائم في حياته : إن في حال حصوله على ماديات الحيـــاة فهو قلق عليها خشية ضياعهـــا ، وإن في حال عدم حصوله عليها فهو قلق بسبب تلهفه ورغبته فيها .

وكذلك اذا وقفنا عند قول القرآن الكريم : « واضرب لهم مثل الحياة الدنيا : كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض (أي فتشابك بسبب الماء .. النبات ، واختلط بعضه ببعض لفرط نموه) فأصبح هشيماً تذروه الرياح (أي ثم بعد نموه وازدهاره وكثافته في اتصال عيدانه بعضها ببعض.. أصبح هشاً بعد أن جفت عيدانه وخف وزنها ، تطير به الرياح من مكانه الى

(١) الاعراف : ٧٢ ، ٧٣

أي مكان آخر) »[1] .. اذا وقفنا عند هذا القول نرى أن هـذا المثل في الآية يصل في وصف الحيـاة الدنيا : بأن ازدهارها هو ازدهار مؤقت ، يعقبه حتماً : فناء لها . . وإلى أن المتعة بها كذلك هي متعة موقوتة وخادعة ، لا تلبث أن تزول كأن لم تغن بالأمس .

وقد يكون الوصف الذي يقصد من المثـل هو لتوضيح ادعاء ، لا يقوم عليه دليل في نفس الأمر . كادعاءات المعارضين لرسالة القرآن من المشركين الماديين . فإذ نقرأ قوله تعـالى في كشف كذب المعارضين من هؤلاء : « وجعلوا له من عباده جزءا (أي نسبوا الى الله فريقـاً مما خلق – وهم الملائكة – على أنها بنات له ، سبحانه) ان الانسان لكفور (أي أن شأن الطبيعة البشرية هو الكفر ، لو تركت من غير إيمان وتوجيه) أم اتخذ ممـا يخلق بنات ، وأصفاكم بالبنين ؟ . وإذا بشّر أحدهم بمـا ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسوداً وهو كظيم (أي أنه سبحانه وتعالى لم يتخـذ بنات مما خلقه ، وخصكم أنتم أيها المشركون الماديون بالذكور من هذا الخلق . وكيف تنسبون الى الله البنات وأنتم اذا أخبر أحدكم بمولود هو أنثى كره الحيـاة ونفر منها الى أن يتخلص نهائياً مما ولد له ؟ انه تناقض : أن ترضوا لله ما لا ترضونه لأنفسكم ، فكيف يكون رباً وخالقاً لكم ، وهو في اعتباركم عندئذ أقل شأناً منكم ؟) »[2] .. إذ نقرأ هذه الآيات الثلاث نرى : أن الوصف عن طريق المثل الذي ورد على لسان المعارضين للقرآن – وهو تنظير الله جل شأنه بالإنسان في نسبة الولد إليه وعلى الخصوص : الأنثى – يستهدف توضيح ادعاء من جانب هؤلاء المعارضين ، لا يثبت صدقـه في واقع الأمر . لأن مقتضى كون الله رباً في نظرهم – إذ أنهم لا ينكرون ربوبيته ، وإنمـا فقط يشركون غيره معه فيهـا – ، أن لا يكون أقل شأناً من أي واحـد

(١) الكهف : ٥٤

(٢) الزخرف : ١٥ ، ١٧

منهم . فإن هم لم يرضوا أن يبشروا بأنثى لهم ، فكيف ينسبون الملائكة له على أنهم بناته ؟

وعلى هذا النحو قوله تعالى في شأن القرآن : « وقال الذين كفروا : لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة (أي هلاّ نزل عليه دفعة واحدة ، ولم ينزل تباعاً ومنجماً) كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا. (أي ولكن هكذا: نزّلناه منجماً وعلى مهل.. لتطمئن به نفسك). ولا يأتونك بمثل (أي لا يأتون بوصف يستهدفون به توضيحاً لادعاء كاذب) إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً (أي إلا أوضحنا كذبه ووضعنا ما ينبغي أن يكون ويتحقق : موضعه) »[1] . ومن أجل استهداف المعارضين للقرآن من: «المثل» توضيح: ادعاء كاذب في حقيقته.. قطع القرآن عليهم السبيل الى ذلك بأن كشف في جملة واحدة .. غايتهم من هذه الأمثال. ولذلك واجههم بالنهي عنها في صورة عامة ، فقال : « فلا تضربوا لله الأمثال ، ان الله يعلم وأنتم لا تعلمون »[2] .. وكأنه قيل لهم : كفوا عن ضربكم الأمثال فقد بان كذبكم وتهافتكم فيها .

الآية — والنسخ :

الآية بمعنى الأمارة والدليل :

تأتي « الآية » في القرآن الكريم بمعنى : الأمارة ، والدليل ، أو البينة ، أو المثل في..صورة المفرد عادة. وهي اما آية نعمة ، أو نقمة. إذ بالنعمة والنقمة معاً يكون اختيار الله سبحانه للانسان في مواجهة رسالة أي رسول يأتي لقومه : « ولقد أرسلنا الى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء (أي أخذناهم بالشدة والفقر) لعلهم يتضرعون (أي لعلهم يستسلمون فيؤمنون) . فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ؟ (أي فهلا خضعوا لله سبحانه وآمنوا به عندما ألمت بهم الفاقة والمذلة) ولكن قست قلوبهم ، وزيّن لهم الشيطان ما كانوا يعملون

(١) الفرقان : ٣٢ ، ٣٣

(٢) النحل : ١٧٤

(فلم يخضعوا ولم يؤمنوا تحت تأثير العادات والتقاليد والعنجهية في الزعامة والاستكبار في الارض) فلما نسوا ما ذكروا به (أي فلما لم يعتبروا بأزمة الفاقة والمذلة لهم وأصبحت غير ذي تأثير عليهم) فتحنا عليهم أبواب كل شيء (أي غيّرنا الوضع الذي كانوا فيه وأتينا لهم بنعم عديدة) حتى إذا فرحوا بما أوتوا (أي حتى إذا انتقلوا بالفعل من وضع البأساء الى وضع الرخاء، والاستمتاع بهذه النعم ، وكانت مصدر فرح ومسرة لهم) أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون (أي فاجأناهم بالعذاب وأصبحوا بذلك في حزن ومذلة) . فقطع دابر القوم الذين ظلموا) وهكذا : انتهى أمرهم بسبب ظلمهم لأنفسهم وغيرهم) والحمد لله رب العالمين (والثناء كل الثناء لرب الخلق أجمعين على أن أزال الفساد ومصدره ، والعبث والمباشرة له ، افساحاً لجيل آخر يؤمن بربه ويعمل من خلال انسانيته فيسعد نفسه بأن يطيع الله جل شأنه فيما يأمر به وفيما ينهى عنه) » .

١ — فجاءت كلمة : الآية — في صورة المفرد — بمعنى الأمارة والدلالة ، في قوله تعالى : « لقد كان لسبأ في مسكنهم آية : جنتان عن يمين وشمال ، كلوا من رزق ربكم ، واشكروا له (أي بالإيمان بوحدته في ألوهيته) بلدة طيبة ، ورب غفور . فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم (فيضاناً من المطر) وبدلناهم بجنتيهم : جنتين ذواتي أكل خمط (أي مر غير شهي) واثل (وهو نوع من الطرفاء) وشيء من سدر قليل (وهو شجر النبق) . ذلك جزيناهم بما كفروا ، وهل نجازي إلا الكفور ؟ »[١] .. وتوضيح قصة سبأ مذكور بكثير من التفصيل في سورة النمل[٢] . وكانت سبأ قبيلة تسكن فيما يعرف الآن بحدود حضرموت ، على بعد خمسين ميلاً من مدينة صنعاء . وكان على رأس هذه القبيلة ملكة تعرف باسم : بلقيس ، فيما قبل الميلاد بقرون عديدة ،

---

(١) سبأ : ١٥ — ١٧
(٢) الآيات : من ٢٣ — ٤٤

وكان للسد المشهور فيها المعروف باسم « سد مأرب » .. أثر في ازدهار شعب سبأ ، وفي حضارته ورفاهيته . ومن هنا كانت الجنات ذات الثمار الحلوة المتنوعة . وكان هذا الشعب يعبد الشمس : « وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ، وزيّن لهم الشيطان أعمالهم (وهو شيطان الترف والقوة ، نتيجة الازدهار المادي) فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون »[١].. وظل هذا الشعب يعبد الشمس بعد أن رفض دعوة سليمان الى الاسلام في رسالته التي قرأتها ملكته على وجهاء القوم فيهم وجاء فيها : « قالت : يا أيها الملأ : إني ألقي الى كتاب كريم . انه من سليمان ، وانه بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلوا عليّ ، وأتوني مسلمين » .. وبعد أن كان جواب هؤلاء الوجهاء متضمناً قولهم : « قالوا : نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد ، والأمر إليكِ فانظري : ماذا تأمرين »[٢] .. فالآية ، أو الأمارة التي اختبر بها الله سبحانه وتعالى هنا : أهل سبأ في ايمانهم .. كانت نعماً مادية تمثلت في تجميع أسباب الحياة الرغدة ، والبأس الشديد . فلما دعوا الى الاسلام على لسان سليمان ورفضوا ، ممتزين بما هم فيه من نعم ومخدوعين بها ، وتصوروا أنها لا تزول عنهم يوماً ما .. جاء عقاب الله لهم بزوالها وتحويل ما هم فيه من ترف ، الى : هم ، ونكد ، وحزن .

٢ — وجاءت كلمة : آية — بمعنى الأمارة والدلالة أيضاً — في قوله تعالى : « يا زكريا : إنا نبشرك بغلام اسمه : يحيى ، لم نجعل له من قبل سمياً . قال : ربّ أنّى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقراً وقد بلغت من الكبر عتياً ؟ . قال : كذلك قال ربك : هو على هين ، وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً . قال : ربّ اجعل لي آية (دليلا وأمارة) ؟ قال : آيتك : أن

---

(١) على لسان الهدهد في سورة النمل ، ٢٤
(٢) النمل : ٣٣

لا تكلم الناس ثلاث ليال سوياً »[1] .. ولا شك أن الآية هنا بمعنى الدلالة والشاهد ، وليست بمعنى الوحدة القرآنية .

٣ – وجاءت – كذلك – كلمة : آية ، بمعنى الدلالة والأمارة في قوله تعالى : « وقوم نوح لما كذّبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية ، واعتدنا للظالمين عذاباً أليماً »[2] .. فإغراق قوم نوح مع ولده في فيضان التقى فيه ماء الأمطار بالماء المتفجر من الأرض ، كان آية نقمة من الله عليهم ، ودليلاً على غضبه ، بعد أن رفضوا الإيمان واستعجلوا العذاب : « قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا (أي من العذاب) إن كنت من الصادقين . قال : إنما يأتيكم به الله إن شاء ، وما أنتم بمعجزين »[3] .

٤ – كما جاءت – بهذا المعنى أيضاً – في قوله جل شأنه : « وإلى ثمود أخاهم صالحاً ، قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، قد جاءتكم بينة من ربكم ، هذه ناقة الله لكم آية ، فذروها تأكل في أرض الله ، ولا تمسوها بسوء ، فيأخذكم عذاب أليم »[4] .. فكانت الناقة في تركها تأكل من كلأ الله وتشرب من مياه الآبار التي هي للجميع . كما تأكل وتشرب أنعام المستكبرين ودوابهم ، دليلاً وآية على الإيمان برسالة صالح من قومه وهي : الإيمان بالله وتحقيق العدل والمساواة بين الناس جميعاً فيما أحله الله لهم ، بحيث تزول آثار الطبقية بين من يعرفون : بالمستكبرين ، والآخرين الذين يلقبون : بالمستضعفين . ولكن الملأ من قوم صالح استكبروا وتمالوا على رسالته ، فعوقبوا من الله بزلزال هدم عليهم بيوتهم وأصبحوا جثثاً هامدة : « قال الملأ الذين استكبروا من قومه (أي من قوم صالح) للذين استضعفوا لمن آمن منهم : أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه ؟ قالوا : إنّا

---

(١) مريم : ٧ – ١٠
(٢) الفرقان : ٣٧
(٣) هود ، ٣٢ – ٣٣
(٤) الاعراف : ٧٣

بما أرسل به مؤمنون . قال الذين استكبرو : إنا بالذي آمنتم به كافرون . فعقروا الناقة (وفي عقرها منتهى العصيان) ، وعتوا عن أمر ربهم ، وقالوا: يا صالح ائتنا بما تعدنا (أي بالعذاب وعقاب الله) إن كنت من المرسلين . فأخذتهم الرجفة (أي الزلزال الشديد) فأصبحوا في دارهم جاثمين » [1] .

٥ – وعلى هذا النحو جاء قول الله تعالى : « وقال موسى : يا فرعون : إني رسول من رب العالمين . حقيق عليّ : أن لا أقول على الله إلا الحق (أي جدير بي أن لا أنقل عن الله إلا نقلا صادقاً لا شبهة فيه) قد جئتكم ببينة (أي بشاهد ودلالة) من ربكم : فأرسل معي بني إسرائيل (أي خلصهم من الأسر عندك ، وأتركهم يعودوا معي الى الأرض المباركة) . قال : إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين . فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين . ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين » [2] .. فآية موسى التي تدل على صحة رسالته ما ناقش به أهل مصر وتفوقه عليهم في أمر هم عرفوا به ، وهو صنعة السحر .

وكذلك : جاءت الآية بمعنى الشاهد والدلالة والبينة في قوله تعالى : « واذكر في الكتاب مريم ، إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً . فاتخذت من دونهم حجاباً ، فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً . قالت : إني أعوذ بالرحمن منك ، إن كنت تقياً ؟ . قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً (أي طاهراً) قالت : أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ، ولم أكُ بغياً ؟ . قال : كذلك ، قال ربك : هو عليّ هين ، ولنجعله آية للناس ، ورحمة منا ، وكان أمراً مقضياً » [3] .. فولادة عيسى عليه السلام من غير أب كان آية وأمارة للناس على أنه هداية لهم : بقدوته الحسنة ، ومثله الأعلى ،

(١) الأعراف ٧٥ ـ ٧٨
(٢) الاعراف ، ١٠٤ ـ ١٠٨
(٣) مريم ، ١٦ ـ ٢١

كما كان رحمة من ربه لهم ، إن هم اتبعوه وآمنوا بما أتى به من : النهي عن المنكرات والجرائم الاجتماعية ، وكذلك عن الغلو في الاتجاه المادي والوقوع تحت طغيان المادية .

وفيما ذكر هنا من كل هذا : كانت « آية » — أي دلالة وأمارة — لسليمان مع سبأ ، ولزكريا ، ولنوح مع قومه ، ولصالح مع ثمود ، ولموسى مع فرعون ، ولعيسى مع بني إسرائيل . وكانت آية كل منهم تختلف عن آية الآخر . وهي جميعها دلائل وشواهد مادية محسوسة . وعندما لم يأت رسول الله ﷺ — عدا القرآن — بآية محسة للماديين والقرشيين ، على نحو ما جاءت به الرسل السابقون .. تشككوا في القرآن وعبّروا عن تشككهم فيما يذكره القرآن عنهم بقوله : « بل قالوا : أضغاث أحلام ، بل افتراه ، بل هو شاعر ، فليأتنا بآية (أي أمارة ودلالة) كما أرسل الأولون »[1] . ولم يفلح معهم : أن القرآن قص عليهم آيات الرسل السابقة . وحتى لو جاء عليه السلام بآية على نحو ما جاءت به الرسل السابقة قبله فانهم لن يصدقوا بما جاء به ، ولن يؤمنوا به : « ولقد ضربنا للناس (أي للقرشيين والمكيين الماديين) في هذا القرآن من كل مثل (أي من كل آية مما جاءت به الرسل) ولئن جئتهم بآية (أي بآية خاصة بك) ليقولن الذين كفروا : إن أنتم إلا مبطلون (أي إلا كاذبون) »[2] .. رغم ما كانوا يطلبون . ولذا أرشد القرآن رسوله الكريم صلوات الله عليه بشأن هذه : « الآية » ان يحيل الأمر بشأنها الى الله جلت قدرته ، عندما يطلبها المعارضون منه ، وأن يكتفي بالقرآن كآية واضحة وضوح الشمس على اصطفائه للرسالة وعلى مضمون رسالته : « وإذا لم تأتهم بآية (أي بأمارة ودلالة محسوسة) قالوا : لولا اجتبيتها (أي هلا اصطفيتها واخترتها) ! قل : إنما أتبع ما يوحى إليّ من ربي ، هذا بصائر من ربكم

---

(١) الانبياء : ٥

(٢) الروم ، ٥٨

(أي هذا القرآن دلائل واضحة من ربكم على رسالتي) وهدى ورحمـة لقوم يؤمنون (أي وفي الوقت ذاته هو : هداية من الله لمن يؤمن به ، ورحمة له، يحول دون سقوطه في الدنيا وعـذابه في الآخرة) »[1] .. والقرآن إذن : آية الرسول محمد عليه السلام ، على رسالته . وهي تختلف عما كان للرسل قبله من آية . وذلك بتميزه بالهداية ، بجانب الامارة والدلالة على الرسالة .

والشأن في « آيـة » الرسالة ، انها تحمل الاقناع في ذاتها ، لمن لا يبيت الكفر بها قبل أن يراها ، ولمن هو غير واقع تحت تأثير زعامـــة أو وضع اجتماعي خاص ، أو تقاليد موروثة معينة . أما من شأنه ذلك فلا يقتنع بها اطلاقاً : « إن الذين حقت عليهم كلمة ربك (أي بالعذاب، وهم الكافرون)، لا يؤمنون. ولو جاءتهم كل آية (أي حتى ولو جاءتهم آية كل رسول وكذلك كل آية في العالم الطبيعي الذي يعيش فيه الانسان) حتى يروا العذاب الأليم (أي وذلك: إلى أن يروا العذاب القاسي عياناً وواقعاً عليهم) »[2]. ولأن عدم الاقتناع بآية الرسالة شأن لمن هو مصرّ على الكفر، كان في طبعه : الانصراف عن آيات الله في كونه ، ومع رسله : سأصرف عن آياتي (أي سأحول عن دلائل وحدة الله دون أولئكم) الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق ، وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها (أي الذين من شأنهم أن لا يصدقوا بكل أمارة ودلالة على صحة رسالة الرسول ، أو على وحدة الله) وإن يروا سبيل الرشد (في كتاب الله وعن طريق وحيه) لا يتخذوه سبيلاً ، وإن يروا سبيل الغي (وهو سبيل الشهوة والهوى ، أو سبيل المادية والأنانية) يتخذوه سبيـــلا ، ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا (أي أن صنيعهم هذا وموقفهم المحدد هنا : يرجع إلى إصرارهم على تكذيب آيات الله التي يأتي بها الوحي لهداية البشر) وكانوا عنها غافلين

---

(١) الاعراف - ٢٠٣

(٢) يونس ، ٩٦ - ٩٧

(وكذلك يعود الى غفلتهم عنها وعن عدم مراجعتها وعدم وعي ما فيها) »[1].

وارسال كل رسول بآية تؤيده لا لتكون دلالة للاقناع بصحة رسالته فحسب لمن يرسل اليهم . وانما لتكون كذلك انذاراً مستمراً لمن يأتي بعدهم ممن يخافون عذاب الآخرة . وهم أولئك الذين آمنوا ، فيثبتون على ايمانهم : « وكذلك : أخذ ربك ، اذا أخذ القرى وهي ظالمة ، ان أخذه أليم شديد. ان في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ، ذلك يوم مجموع له الناس ، وذلك يوم مشهود »[2] .. بهذا يعقب القرآن على ما وقع لفرعون وملائه . ولقوم شعيب .. وقوم لوط .. وثمود .. وعاد .. وقوم نوح .

وآية كل رسول لم يأت بها من عند نفسه . كما لم تكن دائماً متشابهة ، أو مكررة ، فعهود الرسل وأجيالهم كانت مختلفة . وكتبهم في الاجمال والتفصيل كذلك كانت متنوعة ، وان اتفقت جميعها على الدعوة إلى وحدة الألوهية ، وتجنب المادية بما لها من الشرك والوثنية : « ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية (أي ما عدا عيسى) وما كان لرسول أن يأتي بآية (أي بمعجزة ودلالة وأمارة على الرسالة) إلا بإذن الله ، لكل أجل كتاب (أي ولكل عهد من عهود الرسالة كتاب موحى به) . يمحو الله ما يشاء ويثبت (أي يمحو ويلغي من الدلائل والامارات ، ويثبت بإعادتها) وعنده أم الكتاب (أي وعنده الأصل الذي لا يتغير وهو مشيئته وإرادته) »[3] .

واذا كان لكل رسول : « آية » خاصة به فهناك امارة عامة للتصديق بوحدة الله وبرسالته الى خلقه . وهي تلك الآية الطبيعية التي يلمسها الانسان

---

(١) الاعراف : ١٤٦ ، ١٤٧
(٢) هود : ١٠٢ ، ١٠٣
(٣) الرعد ، ٣٨ ، ٣٩

في حياته ومعيشته .. تلك الآية التي وقع بها الاعداد لحياته ، بحيث يستطيع أن ينفذ منها الى الله الخالق وحده ، كما يستطيع أن ينتفع بهـــا في مجال بقائه على هذه الارض : « وآية لهم : الارض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً ، فمنه يأكلون . وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب ، وفجرنا فيها من العيون . ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم ، أفلا يشكرون . سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ، ومن أنفسهم ، ومما لا يعلمون . وآية لهم : الليل ، نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون . والشمس تجري (أي وآية لهم كذلك) لمستقر لها ، ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل ، حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار ، وكل في فلك يسبحون . وآية لهم : أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون . وخلقنا لهم من مثله ما يركبون . وان نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ، ولا هم ينقذون . إلا رحمة منا ومتاعاً إلى حين . وإذا قيل لهم : اتقوا مـــا بين أيديكم (أي مما هو في حاضركم من وثنية) وما خلفكم (أي مما هو في ماضيكم وماضي آبائكم من شرك ومادية) لعلكم ترحمون . وما تأتيهم من آية (أي أمارة ودلالة) من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين »[1] . فهنا يذكر القرآن الكريم أيضاً : آية ، بعـــد آية ، في صيغة المفرد . ولم يأت بالجمع إلا بعد أن عدد ثلاثاً منها : آية الأرض وما يخرج منها ، وآية المجموعة الشمسية وأثر حركتها في ضوء النهار وظلام الليل ، وآية البحار وما تحمل من سفن .. كأنه يحصيها ثانية في اجمال عددها .

وهكذا : اذا خرج أسلوب القرآن عن صيغة المفرد في ذكر : « الآية » بمعنى : الامارة والدلالة ، وهو الاسلوب الشائع والأغلب فيه .. الى صيغة المثنى ، او الجمع : فإنه يستهدف الكثرة في عدد الامارات ، بعد أن تكون

---

(١) يس : ٣٣ ، ٤٦ .

كل واحدة منها كافية ومستقلة في تحقيق الهدف منها ، وهو : الدلالة . ولا يستهدف : الدلالة متوقفة آنئذ على مجموعها ، وكأن مجموعها مركب في دلالته وامارته ، بحيث تكون الواحدة من الآيات فيه بمثابة جزء في الدلالة :

فإذا جاء تعبير القرآن في قوله تعالى : « وجعلنا الليـل والنهار آيتين ، فمحونا آية الليــــل ، وجعلنا آية النهار مبصرة ، لتبتغوا فضلاً من ربكم ، ولتعلموا : عدد السنين والحساب وكل شيء فصلنـــــاه تفصيلا » [1] .. فإذا جاء تعبير القرآن هنا بالمثنى : « وجعلنا الليل والنهار آيتين » .. فلا يقصد: ان دلالة الليل والنهار على وحدانية الله سبحانه متوقفة عليهما معاً كمركب من جزأين . بل ان كلا من الليل آية ، والنهار آية .. كذلك ، تدل بمفردها على الهدف . فإذا ذكرا معاً الآن كانا دليلين مستقلين ، وليسا جزأين في دليــل .

وكذلك في قوله تعالى : «ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك : منهم من قصصنا عليك ، ومنهم من لم نقصص عليك ، وما كان لرسول أن يأتي بآية (أي بأمارة ودلالة) إلا بإذن الله ، فإذا جاء أمر الله قضي بالحق، وخسر هنالك المبطلون . الله الذي جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون . ولكم فيها منافع ، ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون . ويريكم آياته فأي آيات الله تنكرون ؟» [2] .. وكذلك اذا جــــاء التعبير بالجمع هنا في : « الآيات » بمعنى الأمارات والدلائل ، فإن جمعها لا يسلب استقلال كل واحدة منها في الدلالة . وإنمــــا يقصد الى نوعيتها وتعددها في الدلالة .

وعلى هذا النحو قوله تعالى : « إن في السموات والأرض: لآيات للمؤمنين.

---

(١) الاسراء : ١٢ .
(٢) غافر : ٧٨ ، ٨١ .

وفي خلقكم وما يبث من دابة : آيات لقوم يوقنون. واختلاف الليل والنهار، وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها ، وتصريف الرياح : آيات لقوم يعقلون . تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق ، فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون ؟ » [1] .

..وقوله : « إن في خلق السموات والارض ، واختلاف الليل والنهار ، والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها ، وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح ، والسحاب المسخر بين السماء والارض : لآيات لقوم يعقلون » [2] .

..وقوله : « واذ قلتم يا موسى : لن نصبر على طعام واحد ، فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الارض من : بقلها وقثائها ، وفومها ، وعدسها ، وبصلها ، قال : أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير ؟ اهبطوا مصر ، فان لكم ما سألتم ، وضربت عليهم الذلة والمسكنة ، وباءوا بغضب من الله ، ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ، ويقتلون النبيين بغير الحق ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » [3] .. فبنو اسرائيل كفروا : بتخليصهم وتحريرهم من فرعون وملائه ، وكفروا بإنجائهم من الغرق في البحر الأحمر في عودتهم الى ارض الله المباركة ، وكفروا باستخلافهم وتمكينهم من الاقامة في هذه الارض المباركة . وكل نعمة من هذه النعم امارة ودلالة تستوجب الشكر منهم بالايمان بالله وحده والبقاء على هذا الايمان . وفي عددها ما يحملهم أكثر على الايمان والبقاء عليه . ولكن خرجوا عن طاعة الله : « وضربت عليهم الذلة والمسكنة ، وباءوا بغضب من الله ، ذلك بأنهم كانوا يكفرون

---

(١) الجاثية : ٣ ، ٦ .

(٢) البقرة : ١٦٤ .

(٣) البقرة : ٦١

بآيات الله ، ويقتلون النبيين بغير الحق ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » .

* * *

والآية بمعنى الوحدة القرآنية في السورة :

وفي مقابل : « الآية » بمعنى الأمارة والدلالة في القرآن الكريم يعبر عنها عادة بصيغة المفرد ؛ ترد « الآية » بمعنى الوحدة القرآنية في السورة ، في صيغة الجمع عادة ، دون المفرد . نقرأ قول الله تعالى :

١ — « ألم . تلك آيات الكتاب الحكيم . هدى ورحمة للمحسنين . الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ، وهم بالآخرة هم يوقنون » [١] . وقوله :

٢ — « وقرن في بيوتكن ، ولا تبرجن تبرج الجاهليــــة الأولى ، وأقمن الصلاة ، وآتين الزكاة ، وأطعن الله ورسوله ، انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس — اهل البيت — ويطهركم تطهيرا . واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله ، والحكمة ، ان الله كان لطيفاً خبيراً » [٢] .. وقوله :

٣ — « أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذريــــة آدم ، وممن حملنا مع نوح ، ومن ذرية ابراهيم ، واسرائيل (وهو يعقوب) وممن هدينا واجتبينا (اي اصطفينا) اذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا . فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا » [٣] .. وقوله :

٤ — « وكذلك أنزلناه آيات بينات (أي القرآن) وأن الله يهدي من يريد » [٤] .. وقوله :

---

(١) لقمان : ١ ، ٥

(٢) الاحزاب : ٣٣ ، ٣٤

(٣) مريم : ٥٨ ، ٥٩

(٤) الحج : ١٦

٥ — « سورة أنزلناها وفرضناها ، وأنزلنا فيها آيات بينات (أي من احكام ومبادىء) لعلكم تذكرون »[١] .. وقوله :

٦ — « طس . تلك آيات القرآن وكتاب مبين . هدى وبشرى للمؤمنين. الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ، وهم بالآخرة هم يوقنون »[٢] .. وقوله :

٧ — « وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك ، فلا تكونن ظهيرا للكافرين (أي فلا تكونن سنداً للكافرين بعدم الحرص على الايمان) . ولا يصدنك عن آيات الله ، بعد إذ أنزلت إليك ، وادع الى ربك ولا تكونن من المشركين . ولا تدع مع الله إلهاً آخر ، لا إله إلا هو ، كل شيء هالك إلا وجهه ، له الحكم ، وإليه ترجعون »[٣] .. وقوله :

٨ — « وكذلك أنزلنا إليك الكتاب ، فالذين آتيناهم الكتاب (أي من قبل : من اليهود والنصارى) يؤمنون به ، ومن هؤلاء (أي من المكيين القرشيين) من يؤمن به ، وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون . وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ، ولا تخطه بيمينك ، اذا لارتاب المبطلون . بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم (وهم حفظة القرآن الكريم) وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون . وقالوا : لولا أنزل عليه آيات من ربه (أي أمارات ودلائل) قل : إنما الآيات (أي الدلائل والأمارات) عند الله ، وانما أنا نذير مبين . أو لم يكفهم : أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ، ان في ذلك لرحمة ، وذكرى لقوم يؤمنون »[٤] .

فهذه الآيات جميعها ـ وغيرها ـ تعبر بصيغة الجمع عن : « الآية » بمعنى

---

(١) النور : ١

(٢) النمل : ١ ، ٣

(٣) القصص : ٨٦ ، ٨٨

(٤) العنكبوت : ٤٧ ، ٥١

الوحدة القرآنية في السورة . وذلك لأن الاقناع في الايمان مرتبط بمجموعة من آيات القرآن ، دون ارتباطه بآية واحدة منها . وهذا معناه : أن آيـة قرآنية واحدة في السورة لا تقوم وحدها حجة على من يتخلف عن الايمان بالله ، بينما الآية بمعنى الأمارة والدلالة تقوم بمفردها حجة على ذلك . لأنهـا تنطوي على كفاية الدليل والحجة في ذاتها .

والى هنا : كان أسلوب القرآن الكريم في تعبيره عن : « الآية » بمعنى : الأمارة بصيغة المفرد ، وفي تعبيره عن الآية : بمعنى الوحـــدة القرآنية في السورة بصيغة الجمع .. يهدف في التعبيرين الى : الحجة في الاقناع . وعلى هذا الأساس : الآية بمعنى الوحدة القرآنيـة في السورة ، جزء في مركب تتم به الحجية ، بينما الآية بمعنى الأمارة حجة مستقلة . ولذا عندما يجعل الله سبحانه : القرآن ككل .. حجة الرسول وآيته على رسالته ، في قوله : « هـذا (أي القرآن) بصائر من ربكم (أي بينة وآية من ربكم) » .. عندما يجعله كله آية الرسول محمد عليه السلام ، لأن به كاملاً يتم الاقناع وتبلغ الحجة شأنها . ومن ثم من يكفر به – بعد أن يقف عليه تاماً – مسئول عن كفره بـه ، كمسئولية من يرى أمارة الرسول من ربه فيكفر بها .

فإذا خرج تعبير القرآن عن هـذا الأغلب والسائد في أسلوبه فعبر عن : « الآية » بمعنى الوحدة القرآنية في السورة بصيغة المفرد ، كما جاء في قوله : « وإذا بدلنا آية مكان آية (أي في عهود الوحي المختلفة فأنزلنا في القرآن آية تختلف عما أنزلناه في التوراة مثلاً) والله أعلم بما ينزل (أي والله واقف على حقيقته وحكمته . وهذا من شأنه أن يحول دون تغييره ممن سواه كرسول مثلاً) قالوا : انما أنت مفتر (أي واجه المعارضون من أهل الكتاب رسول الله بهذا التغيير واتهموه بالكذب على الله فيه) بل أكثرهم لا يعلمون (ولكن اتهام هؤلاء المعارضين هو اتهام باطل صادر ممن لا يعلمون حقيقة الأمر ، وأن الله وحـــده صاحب الشأن) . قل : نزله روح القدس (وهو جبريل) من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا ، وهدى وبشرى للمسلمين (أي أن هذا التغيير

لم يكن من صنع الرسول محمد عليه الصلاة والسلام ، وإنما هو وحي جاء به إليه رسول الوحي وهو جبريل : معبراً عن الحق، ومستهدفاً به تيسير الحياة على المؤمنين ودفع الحرج عنهم فيها ، مما يجعلهم مطمئنين غير قلقين ، وحاملاً لهم بشرى التوسعة عليهم برفع كثير من القيود التي فرضت على غيرهم من قبل، كتلك التي فرضت على بني إسرائيل في طعامهم ، وفي عملهم) »[1] .. اذا خرج تعبير القرآن عن السائد .. الى نحو ما عبرت عنه هاتان الآيتان في سورة النحل ، فالمقصود الى توضيح : أنه ليس هناك في الوجود — عدا الله جل شأنه — من يستطيع أن يغير فيما يوحى في عهود الوحي كلها ولو بالأقل القليل منه . وهذا الأقل القليل منه هو الآية كوحدة قرآنية في السورة .

ولم يزل يتردد اليوم — وربما غدا ، كما تردد بالأمس على عهد الرسول عليه الصلاة والسلام — اتهام القرآن بالاختلاق . لأن بعضاً مما جاء فيه : يختلف عما لدى أهل الكتاب في كتابهم .

فيرمي بعض المستشرقين المسيحيين: القرآن الكريم. بالتلفيق وبعدم الدقة، لأنه يصر على وحدة الألوهية ، بينما التثليث في الألوهية قاعدة أصيلة لدى بعض المذاهب المسيحية ذات الأغلبية العددية .

ويرمي بعض اليهود : القرآن — كذلك — بالاختلاق، عندما لا يحرم العمل يوم السبت كما يحرمه اليهود أنفسهم ، عندما جاء منع العمل فيه على عهد موسى ، اختباراً لإيمانهم ، على نحو ما يذكر القرآن : « ثم أوحينا اليك : أن اتبع ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين (وملة ابراهيم لم يمنع فيها العمل يوم السبت) . انما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه (وهم بنو إسرائيل) وان ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون »[2] .

---

(١) النحل : ١٠١ ، ١٠٢

(٢) النحل : ١٢٣ ، ١٢٤

ولن يرضى اليهود والنصارى عن القرآن إلا إذا جاء طبقاً لما هم عليه من ملة، ولم يكن مصححاً لما اختلفوا فيه عن رسالة الاسلام منذ ابراهيم: «ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم، قل: ان هدى الله هو الهدى، ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم، ما لك من ولي ولا نصير»[1]. فقد سمى القرآن هنا: ما خرج فيه أهل الكتاب عن رسالة الاسلام .. هوى، في مقابل ما يتصف به وحي الرسالة: من علم. ولذا كان تهديد القرآن هنا لرسول الله ﷺ – ان لم يتبع الوحي الذي جاء اليه، وركن الى هوى أهل الكتاب فيما يشيعونه بينهم كملة ودين –: تهديداً عنيفاً، وهو: أنه ساعتئذ لا يجد من يسانده من صديق، ولا ناصر.. عندما ينال جزاءه.

إن القرآن جاء ليعيد رسالة الاسلام منذ ابراهيم الى وضعها الصحيح، ويزيل ما طرأ عليها مما ليس منها. وهو حكم وفيصل على ما سبقه. والقرآن لذلك بالنسبة الى التوراة – في الوقت الذي هو مصدق لكثير مما جاء فيها – مبين في ذات الوقت لمواطن الاختلاف فيما صنعه فيها بنو إسرائيل عن الرسالة الإلهية: «إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل (أي يهوداً ومسيحيين – فهم جميعاً من بني إسرائيل) أكثر الذي هم فيه يختلفون (أي عن كتاب الله ورسالة الاسلام: منذ ابراهيم .. الى محمد عليهما السلام) وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين»[2].

* * *

.. ونسخ الآية:

والآن: إذا كان الشائع في استعمال القرآن الكريم «الآية» – بصيغة

---

(١) البقرة ١٢٠

(٢) النمل: ٧٦، ٧٧

المفرد – أنه يقصد إلى : الأمارة والدلالة ، التي تدل على صحة رسالة الرسول المرسل ، أو على وحـــدة الله جل شأنه في ألوهيته ، واذا كان الشائع في استعماله « للآيـــة » – بصيغة الجمع – أنه يقصد الى الوحدة القرآنيـــة في السورة .. اذا كان هذا وذاك ، فانه إذ يقول : « ما ننسخ من آيـة (أي ما نلغي آية سبقت فلم نأت بها مرة أخرى) أو ننسها (أي نرجئهـــا الى وقت وعهد آخر) نأت بخير منها (أي في الاقناع والحجة) أو مثلها (في الدلالة والأمارة) ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير (أي أنه يستطيع تغيير الأمارة والدلالة من وقت الى وقت) »[1] .. إذ يقول ذلك يهدف : الى أن أمارات الرسل ودلالتهم على صحـة رسالتهم لا يلزم أن تكون كلها من نوع واحد ، كالنوع المادي الذي كان لموسى ، ثم لعيسى بعده . بل قد تكون من نوع آخر : كالقرآن الذي كان معجزة الرسول محمد عليه الصلاة والسلام ، وأمارة على صحة رسالته . وهو خير في الدلالة والحجيـــة ، لا من حيث موضوعه فحسب ، ولكن كذلك من حيث أسلوبه الذي تحدى به العرب : « وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها ، وتنـذر يوم الجمع لا ريب فيه ، فريق في الجنة ، وفريق في السعير »[2] .

والغاء آية – أي أمارة من أمارات الرسالة – وإتيان آية أخرى مكانها، إنما هو في محيط المشيئة الإلهية ، وعلى مستوى الرسالات جميعها على معنى : ان أمارة سابقة لرسول سابق يمكن أن تغير بأمارة أخرى لرسول بعـده . والنسخ هنا ليس نسخ آية قرآنية في كتاب الله الكريم – الذي هو القرآن – والغاءها ، على أن تحل محلها فيه آية قرآنية أخرى ، تحمل حكماً أو مبدأ ، مثلاً . وانمـــا النسخ في الأمارات والدلالات على رسالة الرسل ، كالتبديل في آيات الأحكام في الرسالة الإلهية على عهود الرسل المتعددين .. انما هـذا

---

(١) البقرة

(٢) الشورى : ٧

وذاك في نطاق الوحي الإلهي ككل ، وليس لرسول بعينه ، ولكن للرسل جميعاً .

والآية في قول الله تعالى : « ما ننسخ من آية أو ننسها.. » .. لو حملت افتراضاً على الآية القرآنية فليس نسخها بأخرى في محيط القرآن نفسه . وإنما في محيط الوحي الإلهي جملة ، حسبما نزل على الرسل جميعاً . وقد جاء فعلاً في القرآن بعض آيات الأحكام مما يخالف ما جاء في التوراة قبله .

على أن الجو القرآني لقوله تعالى : « ما ننسخ من آية أو ننسها » رغم أن التعبير بصيغة المفرد في : « آية » هنا مما يرجح : أن « الآية » هي الأمارة – كما هو الاستعمال الشائع في القرآن – رغم هذا فالتعقيب بقوله : « ألم تعلم: أن الله على كل شيء قدير . ألم تعلم : أن الله له ملك السموات والأرض ، وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير » .. يزيد في قوة .. هذا الترجيح . إذ تأكيد قدرة الله على كل شيء ، وعلى أنه وحده يملك السموات والأرض ، مما يناسب : « الآية » بمعنى الأمارة والمعجزة .

والأمر الذي يناسب : « الآية » بمعنى الوحدة القرآنية في السورة هو وصف الله بالعلم والحكمة ، كما جاء في قوله تعالى : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته ، فينسخ الله ما يلقي الشيطان (أي يبدله . وما يبدله يختص قطعاً بهداية الله ، وليس بالأمارات والمعجزات) ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم »(٢) .. فعقب هنا : بالعلم والحكمة ، بعد قوله : ويحكم آياته ، دون القدرة والاستطاعة . ثم كذلك ما جاء سابقاً على قوله : « ما ننسخ من آية » من قوله تعالى : « ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين : أن ينزل عليكم من خير من ربكم (أي ينزل على رسول الله ﷺ من قرآن كحجة وأمارة على اصطفائه

---

(٢) الحج : ٥٢

للرسالة) والله يختص برحمته من يشاء (أي والله صاحب مشيئة واسعة في اصطفائه للرسالة) والله ذو الفضل العظيم (فيما يكرم به من يختاره للرسالة) » .. فالقضية هنا بين أهل الكتاب والمشركين من جانب ، والرسول عليه السلام من جانب آخر ، هي: قضية الرسالة والاصطفاء لها . ولا بد أن تكون هناك أمارة من الله دالة على هذا الاصطفاء لرسوله ﷺ. فكان القرآن هو خير الأمارات له ، وهو الفضل العظيم من الله على رسوله .

وبهذا لا يدل قوله تعالى : « ما ننسخ من آية أو ننسها ، نأت بخير منها أو مثلها » على وقوع نسخ في القرآن بين آياته القرآنية ، فتنسخ آية منه آية أخرى فيه . كما يتجه الى ذلك بعض المفسرين الذين يقفون بتفسيرهم عند الألفاظ وحدها ، مفككة بعضها عن بعض . ثم يحاولون أن يجعلوا من النسخ مشكلة يتخيلون لها حلولاً ، أو يفتشون عن أمثلة لها، أو يحاولون أن ينقلوها الى قضية « علمية » فيدعون : أن النسخ إما أن يكون نسخاً للحكم والتلاوة معاً ، أو نسخاً للحكم وحده دون التلاوة ، أو نسخاً للتلاوة دون الحكم . ويذكرون على سبيل المثال لما نسخ حكمه ولم تنسخ تلاوته ، قوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا : كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون . أياماً معدودات، فمن كان منكم مريضاً أو على سفر، فعدة من أيام أخر ، وعلى الذين يطيقونه فدية : طعام مسكين ، فمن تطوع خيراً فهو خير له ، وأن تصوموا خير لكم ان كنتم تعلمون . شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس ، وبينات من الهدى والفرقان ، فمن شهد منكم الشهر فليصمه ، ومن كان مريضاً ، أو على سفر فعدة من أيام أخر ، يريد الله بكم اليسر ، ولا يريد بكم العسر ، ولتكملوا العدة ، ولتكبروا الله على ما هداكم ، ولعلكم تشكرون » [1] .. فيذكرون أن الصوم كان في بدء الاسلام .أمراً اختيارياً ، بدليل قوله هنا : « وعلى الذين يطيقونه (أي

(٣) البقرة : ١٨٣ - ١٨٥

يطيقون الصوم ويستطيعونه) فدية : طعام مسكين (أي لهم أن يفطروا ثم يخرجون فدية وعوضاً عن افطارهم : مقدارها إطعام مسكين،أي صاحب حاجة إلى الأكل والشرب ، لمدة يوم عن الشخص المفطر) » . ثم نسخ حكم الاختيار في الصوم بقوله هنا بعد ذلك : « فمن شهد منكم الشهر فليصمه ».. وأصبح الصوم بذلك عبادة واجبة .

هذا ما يقوله أصحاب الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم . وقولهم هذا يرجع -من الأسف- إلى عدم وضوح القرآن في تصورهم،أكثر من رجوعه إلى القرآن في آياته ، الذي وصفه سبحانه بقوله : « ألر . كتاب أحكمت آياته ، ثم فصلت من لدن حكيم خبير »[1] .. فيستحيل أن تكون آياته محكمة ، وأن يكون الذي تولى أمره هو الحكيم والخبير ، ومع ذلك : يكون هناك ناسخ ومنسوخ فيه .. أي هناك ما لا مدلول له من آياته ، مما نسخ حكمها .

ان الذين يقولون بالناسخ والمنسوخ في آيات الصوم هنا على سبيل المثال ، يغفل :

أولاً : قول الله تعالى في بداية هذه الآيات : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام ، كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون «أياماً معدودات»..

إذ هذه الآية تفرض الصوم كعبادة واجبة على الذين آمنوا بالاسلام ، منذ ايمانهم به : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام (أي فرض ووجب عليكم الصوم) . ويتأكد هذا الوجوب عليهم بقوله : « كما كتب على الذين من قبلكم (أي كما فرض من الله في رسالات الرسل السابقين على المؤمنين برسالاتهم) » . ووجوب الصوم لمدة مؤقتة : « أياماً معدودات . ثم جاءت آخر آية في آيات الصوم هنا ، وهي : شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن.. إلى قوله : فمن شهد منكم الشهر فليصمه » .. جاءت هذه الآية الأخيرة

---

(١) هود : ١

لتحدد الأيام المعدودات السابقة : بشهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن ، وقول الله في هذه الآية : فمن شهد منكم الشهر فليصمه .. ينصب وجوب الصوم فيها على الشهر ، وليس على أصل الصوم ، الذي فرغ الآن من فرضه بقوله الأول : « يا أيها الذين امنوا كتب عليكم الصيام » .

ثانياً: يغفل: أن قول الله: « وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين».. مرتبط بالترخيص للمرضى والمسافرين بالافطار في قوله : « فمن كان منكم مريضاً ، أو على سفر فعدة من أيام أخر (أي فيرخص للمريض أو المسافر بالافطار مع إعادة الصوم في وقت آخر يكون فيه أكثر تحملا) ». والمعنى ان المرضى والمسافرين يرخص لهم في أيام الصوم – وهي أيام رمضان هنا – أن يفطروا ، على أن يعيدوا صوم الأيام التي أفطروها . إذ شأن المرض والسفر أن يجعل من فرض الصوم في حالة أي منهما أمراً شاقاً والله يريد اليسر ، ولا يريد بالمؤمنين العسر . ولكن إذا كان المريض في مرضه والمسافر في سفره يستطيع الصوم ومع ذلك يفطر ، فعليه بجانب الاعادة : فدية طعام مسكين : « وعلى الذين يطيقونه (أي على الذين يستطيعون الصوم من المرضى والمسافرين) فدية : طعام مسكين (أي لهم أن يستخدموا ترخيص الافطار لهم فيفطرون . ولكن عليهم عندئذ فدية طعام مسكين ، وذلك بجانب الاعادة) » . وتكون الفدية حينئذ في مقابل الافطار مع القدرة على الصوم ، وتكون الاعادة لافطار الأيام التي أفطر فيها المريض أو المسافر : «فمن تطوع خيراً فهو خير له (أي ومن يزيد من المسافرين أو المرضى القادرين على الصوم ولم يصوموا ، عن فدية طعام مسكين واحد .. فهو خير في ذاته ، ومحسوب عند الله) وأن تصوموا خير لكم ان كنتم تعلمون (أي وأن تصوموا أيها القادرون من المرضى والمسافرين ، دون أن تفطروا فهو خير لكم من : الافطار مع الاعادة ، واخراج الفدية ، بل ومن الزيادة عليها) ». وبهذا لا يكون هنا ناسخ ومنسوخ في الحكم ، دون التلاوة .

ان الذين يجعلون بين آيات القرآن ناسخاً ومنسوخاً : بعضها لبعض ،

يقيس الله جل شأنه على الانسان في مراحل تفكيره . فالانسان في مراحل تفكيره يرى رأياً ، ثم « يبدو » له خلاف ما رأى أولاً ، فيلغي رأيه الأول برأيه الثاني . ولكن الله جلت قدرته ليست لعلمه مراحل ولا لوجوده تطورات ، ولا لكماله درجات ومستويات . أنه الكمال المطلق في كل صفة له ، وفي كل وقت . ولذا كان واحداً لا شريك له : في ألوهيته ، واستحقاقه العبودية دون سواه . »

والناسخ والمنسوخ في دائرة الرسالات الإلهية بعضها مع بعض . والله ينسخ ويلغي في رسالة لرسول له — لحكمة يعلمها — : ما أمر وأوحى به في رسالة سبقت ، سواء ، أكان ما يلغيه أمارة ودلالة خاصة على صحة رسالة رسول معين ، أم أكان حكماً من : حل وحرمة فيما أوحى به إلى رسول آخر من الرسل .

* * *

ان معجزة الرسول محمد ﷺ هي : قرآنه . وهو آيته وحجته على الرسالة . ولذا كان التعبير عنه بآيات الله ، في الاستعمال الشائع فيه ، بصيغة الجمع . وقد نسخ الله بالقرآن ككل : باعتبار كونه معجزة .. آيات الرسل السابقين من الشواهد المادية والأمارات المختلفة .

والحلال والحرام في القرآن يكون رسالة الاسلام التي اختير لها رسوله . وقد نسخ القرآن بما فيه من حلال وحرام ما يخالف حلاله وحرامه مما جاء في التوراة . وكذلك ما جاء في التوراة ينسخ ما يخالفها مما كان في رسالة إبراهيم عليه السلام : « ثم أوحينا إليك : أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً ، وما كان من المشركين . إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه ، وأن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » . فأمر القرآن لرسول الله محمد عليه السلام بالعدول عما جاء في التوراة، لموسى من تحريم العمل في أيام

السبت .. إلى ما كان في رسالة إبراهيم من : حل العمل في السبت : هو نسخ لما في التوراة في هذا الشأن وبديل عنه . وما جـــاء في التوراة من تحريم العمل يوم السبت : هو نسخ لما كان في ملة إبراهيم وبديل عنه .

فليس في القرآن بين آياته : ناسخ ومنسوخ : حكماً دون التلاوة ، ولا تلاوة دون الحكم ، ولا حكماً وتلاوة معاً . وليس في القرآن تبديل آية فيه بآية أخرى فيه ، كذلك .

وليس في التوراة أيضاً : ناسخ ومنسوخ ، ولا تبديل في آياتها : بعضها ببعض .

وكذلك الشأن في رسالة إبراهيم ، أو أي رسول آخر .

إنما الناسخ والمنسوخ ، وكذلك التبديل هو : اما في امارات الرسالات وبيناتها ، أو بين آيات رسالة وأحكامها ، وآيات رسالة أخرى وأحكامها ، كذلك : « ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية ، وما كان لرسول أن يأتي بآيــة إلا باذن الله ، لكل أجل كتاب (أي لكل عهــد من عهـــود الرسالات كتاب ورسالة) يمحوا الله ما يشاء ويثبت (أي ينسخ ويبدل مــا يشاء من الآيات) وعنده أم الكتاب (أي إذ عند أصل الكتاب المرسل وهو مشيئة الله وإرادته) »[1] .. فالتغيير الذي يقع في موضوع الرسالات ، أو في إمارات الرسل بها إنما هو من مصدر واحد : هو مشيئة الله وحده .

ولذا لا يعترض على رسول بهذا التغيير . إذ ليس هو من عنده أولاً ، ثم ليس للمعترضين علم بحكمته : « وإذا بدلنا آية (أي في رسالة لرسول كرسالة الرسول محمد عليه السلام) مكان آية(أي في رسالة رسول سابق كرسالة موسى عليه السلام) والله أعلم بما ينزل ، قالوا (أي قال أهل الكتاب لرسولنـــا

---

(١) الرعد : ٣٨ ، ٣٩ .

ﷺ) : انما أنت مفتر (أي مختلق في هذا التبديل) بل أكثرهم لا يعلمون. قل : نزله روح القدس من ربك بالحق (أي أن هذا التغيير والتبديل جاء به جبريـــل وهو حق وصادق فيه : أنه من لدنا) ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمؤمنين » [1] .

الايمان بالله :

إن قضية الايمـــان بالدين وبالله هي قضية « الجِـدّية » وقضية الصدق في اعلان قبول الدين، وهو الاسلام . والايمان هو المعيار في الدين بين الجاد فيه، وصاحب المنفعة منه .

والجـــاد في الدين – أو المؤمن به – هو الذي يتوقع تحمل تبعات ومسئوليات في:الأموال ، والأرواح في سبيله: إن فيالدفاع عنه وفي وقايته، وإن في الاستمساك به والثبات على مبادئه .

وغير الجاد في الدين أو غير المؤمن به ممن أعلن قبولاً له – هو من يتوقع منافع مادية من قبوله اياه ، بدل أن يبذل من : المال ، والنفس في طريقه .

وعلى هذا الاساس جاء نفي القرآن لايمان الاعراب، بعد أن أعلنوا قبولهم الاسلام كدين ، حينما ادعوا ايمانهم به وجديتهم في قبوله ، فيقول :

« قالت الاعراب آمنا (أي أننا جادون وصادقون في قبولنا للاسلام)،

« قل : لم تؤمنوا ! (أي لم يظهر جدكم وصدقكم في اسلامكم) »

« ولكن قولوا : أسلمنا (أي أننـــا أعلنا اسلامنا فحسب) ولما يدخل الايمان في قلوبكم (أي ولم يترسب بعد الاعتقاد به في نفوسكم) .

---

(١) النحل : ١٠١ ، ١٠٢ .

« وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم (أي لا ينقصكم) من أعمالكم شيئاً ، ان الله غفور رحيم » .

« انما المؤمنون (أي الجادون والصادقون في قبولهم الاسلام كدين) :

« الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا ،

« وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ،

« أولئك هم الصادقون (أي في الايمان به) »[1] .. فنفي القرآن إيمان الأعراب في قبولهم للاسلام كدين ، يعتمد على عدم وجود البوادر التي تدل في ذلك الوقت على عدم جديتهم فيما أعلنوه من اسلام .

وهذه البوادر هي : المشاركة في الجهاد في سبيل الله بالأموال ، والأنفس . إذ قد كان الجهاد في سبيل الله آنئذ ضرورة الوقت اللازمة ، للحفاظ على الاسلام وعلى الجماعة المسلمة ، في مواجهة التحدي السافر من الوثنية المادية المكية .. وفي مواجهة الدسائس التي كان يباشرها بعض الحاقدين من أهل الكتاب في المدينة .

ولذا كان رد القرآن على ادعاء الأعراب ، هو : قوله :

« إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، ثم لم يرتابوا ،

« وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، أولئك هم الصادقون » .. فذكر في صفات المؤمن به والجادّين في قبوله : عدم التردد ، أو عدم الشك في قبوله .. والالتزام بنتائجه .. بالاضافة الى مباشرة التضحية بالفعل : إما بالمال ، أو بالنفس في سبيل وقايته ، وحماية المؤمنين به .

فما وقع من بعض المسلمين في « أحد » مما عرض المسلمين جميعاً للهزيمة في هذه الموقعة ، يميل به القرآن الى كفر هذا البعض وعدم وجود الايمان لديهم ، رغم إعلانهم الاسلام والوعد بالمشاركة في القتال لو دعوا اليه :

---

(١) الحجرات : ١٤ ، ١٥ .

« وما أصابكم يوم التقى الجمعان (جمع المشركين الوثنيين ، وجمع المسلمين في غزوة أحد) فبإذن الله »

« وليعلم المؤمنين . وليعلم الذين نافقوا »

« وقيل لهم : تعالوا ! قاتلوا في سبيل الله ، أو ادفعوا ! »

« قالوا : لو نعلم قتالاً لاتبعناكم »

« هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان »

« يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم ، والله أعلم بما يكتمون »[1] .. فقد أعلن هذا البعض قبول الاسلام ديناً ، ووعد باتباع الامر بالقتال عندما يدعى المسلمون اليه ، ومع ذلك عندما دعوا لم يؤازروا الرسول عليه الصلاة والسلام ولا البقية الاخرى من المؤمنين في هذه الموقعة . ولذا كان إعلانهم الاسلام أشبه بالكفر بـه . إذ العبرة بالجدية في قبول الاسلام والصدق ، وليس باعلانه شعاراً يرفع ليكون من ورائه الاستغلال والاحتراف .

وكما لا يدل إعلان قبول الاسلام على وجود الايمان به في نفس المعلن إياه، كذلك لا يدل الكفر بالاسلام تحت الاكراه ، على عدم وجود الايمان به في قرارة نفس المكره . ومن أكره على الكفر بالاسلام — وقلبه مطمئن للايمان به — لا يجازى علي إعلانه الكفر به . لان للكفر في واقع أمره : أمارة تدل عليه ، وهي : الوقوع تحت تأثير الاتجاه المادي في الحياة واتباع الوثنية المادية . وهي ليست قائمة عند المكره على إعلان الكفر .

يقول الله تعالى :

« من كفر بالله بعد ايمانه به ، إلا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان ، ولكن

---

(١) آل عمران : ١٦٦ ، ١٦٧ .

من شرح بالكفر صدراً ، فعليهم غضب من الله ، ولهم عذاب عظيم . ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة،وأن الله لا يهدي القوم الكافرين»[1] . . فقد استثنت الآية الاولى من هاتين الآيتين : من أكره على الكفر وهـو على الايمان في حقيقـة أمره ، من غضب الله ومن عذابه في الآخرة . وهو جزاء من كفر بالله بعد ايمانه . فاعلانه الكفر عندئذ لا يؤخذ منه مأخذ الجد فيه . وشأنه كمن يسلم ويعلن قبوله للاسلام ديناً ولا يأخذ قبوله إياه مأخذ الجد . ومن هنا : من ينطق بشهادة أن : « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » دون أن يتبع هذه الشهادة بجدية النطق بهـا وإعلانها ، بقبوله للتضحية في سبيل ما أعلنه .. يكون أقرب للكفر منه للايمان: « هم للكفر يومئذ أقرب منهم للايمان ، يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم » .

ان المؤمن لا يصرفه عن ايمانه ما يقع له من أحداث أليمة بسبب ايمانـه ، ولا يرهبه حشد قوة الأعداء ضده :

« يستبشرون بنعمة من الله وفضل ، وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين .

١ – « الذين استجابوا لله والرسول ، من بعد مـا أصابهم القرح ، للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم .

٢ – « الذين قال لهم الناس : ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم ايماناً ، وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل . فانقلبوا بنعمـة من الله وفضل ، لم يمسسهم سوء ، واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم »[2] .

.. فالمؤمن على الحقيقة اذن لا يخشى كثرة العدو ، كما لا يخشى قوته ، ولا يرهب التعذيب والآلام في سبيل ايمانه . وله في ذلـك أجره العظيم عند الله في آخرته ، وله فضل العزة والكرامة الانسانية في دنياه : « فانقلبوا بنعمة

---

(١) النحل : ١٠٦ ، ١٠٧ .
(٢) آل عمران : ١٧١ ، ١٧٤ .

من الله وفضل ، لم يمسسهم سوء ، واتبعوا رضوان الله ، والله ذو فضل عظيم » .

ان المؤمن هو الذي اذا ذكر الله وجل قلبه ، واذا تليت عليه آياته زادته ايماناً ..

وهو المتوكل والمعتمد على الله ،

وهو الذي يقيم الصلاة وينفق من فضل الله عليه : « إنما المؤمنون :

« الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم ،

« واذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً ،

« وعلى ربهم يتوكلون ،

« الذين يقيمون الصلاة ،

« ومما رزقناهم ينفقون .

« أولئك هم المؤمنون حقاً ، لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم »[1] .

وهكذا : الايمان بدين الله هو اتباع مبادئه ، صدقاً وعدلاً ... هو التضحية بالدنيا في سبيل جزاء الآخرة .. والمؤمن هو الذي لا يستحب الحياة الدنيا على الآخرة .

الشرك بالله :

الانسان في مرحلة طفولته ينظر الى مصلحة الذات وحدها . وحب الطفل لوالديه حب مصلحي ، أو حب أناني : ينظر الى الوالدين على

---

(١) الانفال : ٢ ، ٤ .

أنها مصدر الوقاية من الضرر ، أو مصدر النفع له . وبقدر ما يكون من استجابة أيٍّ من الوالدين لرغبات الطفل ، بقدر ما يميل الطفل ويتودد الى الأكثر استجابة من والديه .

والطفل ... الى مرحلة المراهقة لا يقدر والديه ، لأنهما أنجباه ، ولأنهما حدبان على رعايته ، ولأنهما قد يضطران الى ارتكاب المشقة والعنت في حياتهما في سبيله . أي أنه لا يدرك معنى : الأبوة في والده ، ولا معنى : الأمومة في والدته . حتى اذا ما تودد اليهما ، يتودد تقديراً للأبوة في ذاتها ، وتقديراً للأمومة في ذاتها ، وليس لمصلحة ذاتية أنانية .

وهذه المصلحة الذاتية الأنانية قد تصحب الانسان في مراحل تطوره الأخرى – بعد مرحلة الطفولة – الى سن الشيخوخة، أو الى ما قبلها بقليل. وتلازمه في مواقفه ، وتصرفاته ، وليس قبل والديه فحسب ، وانما كذلك في عبادته ، إن عبد واتجه باحترامه الى موجود غير ذاته .

والعبادة من انسان ما ، لموجود ما ، لا تخرج عن توفير : كامل الاحترام لمن يتجه اليه بالعبادة ، ولا عن ابعاد كل نقص أو شك في القيمة العليا لمعبوده ؛ وبالاخص في قدرة المعبود واستطاعته .

فاذا صحبت المصلحة الذاتية والانانية ، الانسان في مراحل تطوره الاخرى ، فانه لا يستقر بتوفير احترامه أو بعبادته ، عند موجود معين . وإنما ينتقل بعبادته : من موجود الى موجود ، حسب ما يرى ويطلب من مصالح ذاتية له . فاذا كان قد اتجه بعبادته الى موجود خاص ، ثم رأى : أن هذا الموجود الخاص المعبود الآن لم يعد يستطيع : انجاز مصالحه الأنانية ، فانه سرعان ما ينتقل بهذه العبادة – وما يتبعها من جو يحيط بها – الى موجود خاص آخر ، يعتقد فيه : تفوقه في الاستطاعة ، وفي الامكانيات على قضاء المصالح الشخصية . وهكذا : عبادة من تسيطر عليه المصلحة الذاتية والانانية ، هي عبادة متنقلة ، ومتعددة . وقد يكون معبوده إنساناً ، وقد

يكون أدنى من الانسان : حيواناً ، أو جماداً ، تصور فيه ، – أو اعتقد– قدرته على انجاز المصالح الشخصية .

ولكنه لا يسمو بعبادته واحترامه الى ما فوق الانسان ، وما دون الانسان . لان ارتباطه القوي بالمصلحة الذاتية والانانية – وهي مصلحة في طبيعتها : تتصل بالبدن وشهواته ، وبالارض وما لها من زينة وما يخرج منها من طيبات ومتع مادية – لا يجعله ينظر الى ما فوق الانسان ، والموجودات الاخرى الارضية ، عند التفتيش عن موجود بينهما يوفر له منتهى الاحترام والعبادة ، في سبيل تحقيق المصلحة الذاتية . كالطفل الذي لا يستطيع أن ينظر في أبيه الى معنى الابوة ، وفي أمه الى معنى الأمومة إن تودد الى أبيها ، بغية قضاء مصلحة أنانية له . فهو لا يستطيع أن ينظر الى ما وراء شخص الاب من : معنى ، أو شخص الام من « معنى ، أيضاً .

والمشرك بالله هو ذلك الانسان الذى لا يستطيع – من وضع تطوره الشخصي – أن يتجه بعبادته الى الله ، الذي هو فوق الموجودات الشخصية ، فلا تدركه الابصار ، وهو يدرك الابصار ، وهو اللطيف الخبير.. لا يستطيع أن يتجه باحترامه الذي يبلغ نهايته ، الى خالق الكون كله ، الذي تمثل صفاته جميع القيم العليا . تلك الصفات التي يجب أن يتقرب منها – عن طريق العبادة – كل من يريد لنفسه السمو في مستوى حياته الانسانية . فصفاته ، جل شأنه ، تمثل : العلم ، والقدرة ، والخلق ، والابداع ، والارادة ، والمشيئة ، والرحمة ، والشدة ، والحياة ، والبقاء ... الى نهاية ما جاءت به آيات القرآن الكريم في وصفه تعالى .

والشرك بالله هو في حقيقة أمره – لذلك – انتقال بالعبادة وتوفير منتهى الاحترام ، من « الله تبارك اسمه ، .. الى ما عداه « من موجودات أخرى – هي مخلوقة له – ترى وتشاهد في حياة الانسان .

وهدف من يشرك بالله : تحقيق المصالح الذاتية الانانية وحدها ومعبوده

ليس واحداً . وإنمـــا هو كثير ، حسب عدد المرات التي ينتقل فيها من واحد ، الى آخر .

والمشرك بالله لا يؤمن اذن بقيم عليا في حياة الانسان . فكفره بالله دليل عدم ايمانه بهذه القيم العليا . ويؤمن فقط بالمصلحة والأنانية ، كما يؤمـــن بطريق النفاق والانتهازيـة . وهو : لا يؤمن جانبـــه . إذ من شيمته : الغدر والخيانة . فهو يسلك مسلك الغدر والخيانة ، ان وجد في أي منهما السبيل الى تحقيق مصلحته الشخصية .

ومن أجل صفات الشرك ، وسلوك المشرك بالله في حياته ، جاء وعد الله له في قوله : « أن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً » . وأمارة المشرك هو ما جاء في قوله تعالى : « واذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ، واذا ذكر الذين من دونه ، اذا هم : يستبشرون » [١] . إنه لا يؤمن بالله ، ولا باليوم الآخر . انه يؤمن فقط بالمحسوس وبالمنفعة الشخصية . وجاء في وصف المشركين وتعلقهم بالمتع الدنيوية وارتباط سعيهم بالحصول عليها قول الله تعالى : « الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ، وويل للكافرين من عذاب شديد . الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ، ويصدون عن سبيل الله ، ويبغونها عوجاً أولئك في ضلال بعيد » [٢] .

ضلال المشركين :

الشرك بالله أن يعبد الانسان موجوداً آخر مع الله . قد يكون صنماً من حجر ، وقد يكون بقعة معينة في مكان ، وقد يكون مادة طبيعية من : رمال ، أو ماء ، أو نار ، وقد يكون حيواناً ، كما قد يكون انساناً .

---

(١) الزمر : ٤٥ .
(٢) ابراهيم : ٢/٣

والمشرك إذ يعبد ويوفر الاحترام لغير الله يترقب منفعة أو دفع مضرة ، يكون قد حصل عليها صدفة بمروره بالحجر ، أو بالبقعة المعينة من المكان ، أو بالموجود الطبيعي من رمال ، أو ماء ، أو نار ، أو يكون الحيوان الخاص أو الانسان المعين قد أوصل إليه – صدفة – منفعة ، أو دفع عنه المضرة في وقت كان هو بحاجة إلى الحصول على المنفعة أو الوقاية من المضرة .

وعبادة المشرك هي عبادة لغاية مادية ، وترتبط من أجل ذلك بالحصول على أمر مادي ، وموقوتة أيضاً بالمنفعة المادية . فإذا لم تقع المنفعة المادية من معبود معين في حياة المشرك ، أو لم يستمر وقوعها منه ، انتقل المشرك بعبادته واحترامه ، إلى كائن آخر يرجى منه النفع أو الوقاية من الضرر ، وهكذا .. ينتقل بعبادته واحترامه من كائن ، إلى آخر ، سعياً وراء المنفعة أو الوقاية من ضرر مادي لأنه أناني ، يعنيه أولاً وأخيراً : تحقيق أهداف الذات المادية .

والأناني في حصوله على منفعته المادية ، أو على وقايته من ضرر مادي ، لا يهتم بمستوى من يظن : أنه يحقق له هدفه في القيمة الذاتية :

أهو أدنى منه ، أم أعلى ؟

أهو له طبيعة الاستطاعة على الفعل أم لا ؟

أهو كائن أصم لا يسمع وأعمى لا يرى ، أم هو صاحب سمع ورؤية ولكنه لا يستمر في سمعه وبصره لتوقيت في وجوده ؟ .

ولا شك أن من يتقلب في عبادته بين موجودات مختلفة في مستوياتها في القيمة يكون ضالاً في اتجاهه ، وحائراً في تقديره . ولذا جاء تنديد الله سبحانه وتعالى بالمشركين إذ يقول :

« ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له .. الى يوم القيامة »

« وهم من دعائهم غافلون »[1] بعد قوله : « قل : أرأيتم ما تدعون من « دون الله ؟ أروني ماذا خلقوا من الأرض ؟ أم لهم شرك في السموات ؟ « ائتوني بكتاب من قبل هذا ؟ أو أثارة من علم ، إن كنتم صادقين ؟ »[2] .. فاذا كان مستوى المعبود لدى المشرك من الجمادات والطبائع التي لا تستجيب اطلاقاً لمن يناديها ويتوسل اليها ، ولا ينتظر – حتى نهاية الحياة الدنيوية – أن تستجيب لمن يدعوها ، فان العابد له يكون أكثر ضلالاً وحيرة ، ويسلك طريقاً هو أشد ظلاماً وحلكة . لأنه من جانب اتجه بعبادته اتجاهاً مادياً منفعياً منفعة مؤقتة ، ومن جانب آخر وقعت عبادته على من لا حياة فيه ، وعلى ما لا أمل ، ولا رجاء فيه .

وفي سبيل الزام القرآن المشركين أصحاب هذا المستوى المنحط في الشرك والعبادة ، بالحجة على تعمقهم في الضلال والحيرة ، طلب الى الرسول عليه الصلاة والسلام أن يتحداهم بوجود أي أثر لفعل أصنامهم في الأرض أو في السماء ، فضلاً عن أن يكون لهم أثر في الهداية من قبل الله لتابعيهم : « قل: أرأيتم ما تدعون من دون الله ؟ » .. أي أن ما تدعون من دون الله لا ترون أثراً لوجودهم ، بغض النظر عن فاعليتهم : « أروني : ماذا خلقوا من الأرض ، أم لهم شرك في السموات ؟ » .. أي وليس هناك أثر لفاعليتهم في الخلق ، إن في الأرض ، أم في السماء : « ائتوني بكتاب من قبل هذا ، أو أثارة من علم ، إن كنتم صادقين ؟ » .. أي وليس هناك كتاب من الله أنزل اليهم قبل هذا القرآن تستطيعون أن تدلوا عليه ، وليس هناك أيضاً أثر من آثار العلم يشهد بصدقكم في صحة ادعائكم بشرك هذه الأصنام واستحقاقها للعبودية . فأنتم تشركون ما لا فاعلية له، وما لم يقم الدليل لغيركم على أهليته في الاحترام والعبادة . وبذا تحتقرون أنفسكم ، قبل أن تتجهوا باحترامكم وعبادتكم الى ما لا يستحق الاحترام والعبادة في ذاته .

---

(١) الاحقاف : ٥ .
(٢) الاحقاف : ٤ .

وسيظل المشرك في تيه الضلال والحيرة ، عندما يشرك مع الله في العبادة والاحترام كائناً حياً ، وليس صنماً : حيواناً ، أو انساناً . لأن مثل هـــذا الكائن الحي المعبود إن أتى بفائدة ما ، أو وقى من ضرر ما ، فإن ذلك محدود بحياته وقدرته . وهما أمران موقوتان . ولذا فحتماً سيتجاوزهما العابد الى غيرهما في مستواهما أو في أدنى منهما . وهكذا : لا يعرف لظلام الشرك نهاية في طريقه . وهنا لا تشرق عليه هداية الله ، ولا يستقر هو في طريق سوي مستقيم .

الكفر بالله :

الكفر بالدين هو انكاره: كلا أو بعضاً ، وانكار قيمه : جميعها أو بعض منها ، ووصف ما ينكر منه بعدم الصلاحية في الحياة . والكافرون بالدين نوعان :

النوع الأول من أصحاب الوثنية المادية ، وممن غلب عليهم الاتجاه المادي في حياته . وهؤلاء ينكرون الدين جملة وتفصيلاً ، وهو دين الله ورسالتـه . وهذا النوع يصفه القرآن الكريم : بالمشركين ، ويصف طريق انكارهم الدين «بالشرك» . والشرك هو أيضاً اعتقاد في غير الله ، وفي غير الرسالة التي نزلت على رسله . وامارة طريقهم واتجاههم – كما جاءت في آيات القرآن – هي :

أ – أنهم يكفرون بوحدة الله ، ويؤمنون بالمعبودات العديدة من أشخاص الانسان ، أو كائنات الوجود ، أو منظمات الحياة الاجتماعية : « ذلكم بأنـه اذا دعي الله وحده كفرتم ، وان يشرك بـــه تؤمنوا ، فالحكم لله العلي الكبير »[1] .

ب – وأنهم يؤثرون الحيـــاة الدنيا وحدها بما فيها من متع مادية ،

---

(١) غافر : ١٢ .

ويسخرون في الوقت نفسه من الذين آمنوا بالله وبالآخرة ونعيمها ، وراء هذه الدنيا : « زين للذين كفروا الحياة الدنيـــا ، ويسخرون من الذين آمنوا ، والذين اتقوا ، فوقهم يوم القيامة ، والله يرزق من يشاء (أي كافراً أو مؤمناً) بغير حساب » [١] .

ج — وأنهم ينفقون أموالهم في الصد عن سبيل الله ، وفي نشر الوثنيـة المادية ، وعبادة الأشخاص أو كائنات الوجود، أو منظمات الحياة الاجتماعية: « إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله ، فسينفقونها ، ثم تكون عليهم حسرة ، ثم يغلبون ، والذين كفروا الى جهنم يحشرون » [٢] .

د — وأنهم ينكرون اليوم الآخر:« وقال الذين كفروا: لا تأتينا الساعة. قل : بلى وربي لتأتينكم ، عالم الغيب ، لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين » [٣] .

هـ — وأنهم يصفون الحق ، وهو دين الله ، بالخرافة مرة ، وبالسحر ، أو الكذب ، والخداع ، مرة أخرى : « واذا تتلى عليهم آياتنـا بينات قالوا : مـا هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم ، وقالوا : ما هذا إلا افك مفترى ، وقال الذين كفروا (وهم هؤلاء) للحق (وهو القرآن) ، لما جاءهم : إن هذا إلا سحر مبين » [٤] .

و — وأنهم يندددون بالقرآن ، ويحرضون على اللغو وقول الزور في شأنه: «وقال الذين كفروا : لا تسمعوا لهذا القرآن ، والغوا فيه لعلكم تغلبون»[٥].

---

(١) البقرة : ٢١٢ .
(٢) الانفال : ٣٦ .
(٣) سبأ : ٣ .
(٤) سبأ : ٤٣ .
(٥) فصلت ، ٢٦ .

وليس القرآن إلا مثلاً لرسالة الله ودينه . فهم كذلك ينكرون كل رسالة إلهية سبقته ، ويكفرون بما جاء فيها .

ودينهم هو مـا يملي عليهم الاستمتاع بالدنيا ومتعها الحسية ، في غير قيود من حـل وحرمة ، وفي غير رعاية لحرمات الآخرين ، وفي بعد مطلق عن المقاييس الخلقية لأي مجتمع انساني .. هم : « الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله » .

والنوع الثاني ممن يكفر بدين الله ، هو : من يكفر ببعض الكتاب ويؤمن بالبعض منه .. يكفر ببعضه تحت تأثير الدنيا ومتعها ، ويؤمن بالبعض الآخر منـه ، مسايرة للعادة ووراثة التقاليد في المجتمع ، أو تجارة كذلك بالبقاء على الايمان بما يؤمن به من قيم .

والقرآن الكريم يعطي مثلاً لهذا النوع : الذين كفروا من بني اسرائيل . فلم يؤمنوا ببعض ما جاء في الدين ولم يطبقوه في حياتهم ، تحت تأثير الدنيـا ومتعها . فقد أخذ الله عليهم – فيما أنزله اليهم من رسالة موسى والنبيين بعده عليهم السلام ، وهو منزل كذلك في قرآنه الكريم – الميثاق :

بأنهم أولاً : لا يعبدون إلا الله وحده ، وبأنهم يسلكون مسلك الحسنى في علاقتهم بأقربائهم وبالضعفاء منهم ، عملاً وقولاً ، وبأنهم من أجل أن يحققوا ذلك يجب عليهم أن يكونوا على صلة بربهم ؛ بأداء الصلاة ، وعلى علاقة وثيقـة بأصحاب الحاجة بينهم بأداء الزكاة . ولكنهم أعرضوا – إلا قليلاً منهم – وتولوا عن ذلك . وهذا ما تذكره الآية .

« وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل »

١ – « لا تعبدون إلا الله »

٢ – « وبالوالدين احساناً ، وذي القربى واليتامى والمساكين »

٣ – « وقولوا : للناس حسناً »

٤ - « وأقيموا الصلاة »

٥ - « وآتوا الزكاة »

« ثم توليتم إلا قليلاً منكم وأنتم معرضون »[1] .

. وبأنهم ثانياً : لا يرتكبون جرائم اجتماعية فيما بينهم فيقتلون بعضهم بعضاً ، أو يخرجون بعضهم بعضاً من ديارهم التي استقروا فيها . فبدلاً من أن يمتنعوا عن اقتراف هذه الجرائم التي من شأنها أن تقوض المجتمع الانساني ، باشروا سفك الدماء بغير حق ، كما باشروا إخراج الضعفاء من ديارهم بالاثم والعدوان . وزادوا على ذلك ، فاعتبروا بعضهم عدواً لبعض ، وطالبوا بالفداء إن وقع ضعفاؤهم في أسر أقويائهم. وهذا ما تصوره الآيتان التاليتان:

« وإذ أخذنا ميثاقكم :

أ - « لا تسفكون دماءكم »

ب - « ولا تخرجون أنفسكم من دياركم (أي لا يخرج بعضكم بعضاً من دياره) .

« ثم أقررتم وأنتم تشهدون »[2] .

« ثم أنتم هؤلاء :

« تقتلون أنفسكم (أي تقتلون بعضكم بعضاً) »

« وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم، تظاهرون عليهم بالاثم والعدوان (أي « تتحكون فيهم آثمين معتدين) ، وإن يأتوكم أسارى تفادوهم (أي تطلبون « الفداء كأنهم أعداء) وهو محرم عليكم إخراجهم »

---

(١) البقرة ، ٨٣ .

(٢) البقرة ، ٨٤ .

« أفتؤمنون ببعض الكتاب ، وتكفرون ببعض ؟ »[1] .

.. ويرد القرآن كفرهم ببعض مبادىء دين الله الى أنهم : رأوا الدنيا على أنها بديل عن الآخرة . ولذلك آثروها واتبعوا متعها فوقعوا في الخزي في حياتهم ، وعذاب الكفر في الآخرة : « فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ، ويوم القيامة يردون الى أشد العذاب ، ومـا الله بغافل عمـا تعملون . أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة ، فلا يخفف عنهم العذاب ، ولا هم ينصرون »[2] .

والوقوع تحت تأثير المادية واتجاهها في الحياة هو الذي يحول بعض المؤمنين بدين الله في أي وقت الى كافرين به ، وهو الأمر الذي يحول أيضاً دون الايمان بالقرآن كآخر رسالة للانسان من قبل الله جل شأنه : « ولما جاءهم (أي جاء بني إسرائيل من الماديين) كتاب من عند الله (وهو القرآن) مصدق لما معهم (وهو التوراة) وكانوا من قبل يستفتحون (أي يستنصرون) على الذين كفروا (أي من المشركين الماديين إذ كانوا يرونهم أعداء الله) ، فلما جاءهم ما عرفوا (وهو القرآن) كفروا به ، فلعنة الله على الكافرين »[3].

ولا تزال المادية باغرائها وفتنتها تلعب دوراً في حياة الانسان في كل جيل من أجياله : الماضية ، والحاضرة ، والمقبلة . ومن أجل ذلك لا يزال الكفر باقياً في عداوته للايمان بالله ، ما بقي الانسان على هذه الأرض : « ولا يزال الذين كفروا في مرية منـه (أي في شك من القرآن ودين الله) حتى تأتيهم الساعة بغتة ، أو يأتيهم عذاب يوم عظيم »[4] .

---

(١) البقرة ، ٨٥ .
(٢) البقرة ، ٨٥ ، ٨٦ .
(٣) البقرة ، ٨٩ .
(٤) الحج ، ٥٥ .

ولا تزال هناك ظلمات الماديه ، ونور الهدايـة الالهية ، طالما تتيح ارادة الله للانسان الحياة في دنياه : « الله ولي الذين آمنوا ، يخرجهم من الظلمـات الى النور ، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت ، يخرجونهم من النـــور الى الظلمات ، أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون »[1] .

الصد عن سبيل الله :

يقول الله تعـــالى : « الذين كفروا ، وصدوا عن سبيل الله ، أضل أعمالهم »[2] .

... لا يكفر بالله ، ولا يصد ويحول دون سبيل الله إلا صاحب الوثنية المادية ، وصاحب الشرك في العبادة مع الله . والشرك بالله هو : أن يرفع المشرك موجودات أخرى من : الطبيعة ، أو الانسان ، أو قيم أخرى في الوجود ، الى مستوى الله في الاجلال ، ثم في الطاعة والخضوع له .

والشرك بالله هو أن يحول المشرك احترامه وعبادته ، واجلاله ، وطاعته الى الموجودات الأخرى ، التي هي عدا الله . وهذا معناه : أن يكفر أولاً بالله ، وينكر وجوده ، وبالتالي : ينكر كل مـــا في دين الله من حقائق غيبية : كاليوم الآخر ، والبعث ، والجزاء . ثم ثانياً يقيم معبوداً آخر ممـــا حوله أو في محيطه المادي ، ويوفر له الاحترام ، وينسب اليه كل ما فعل في الوجود من : الخلق .. الى الإحياء ، والافناء .

فالشرك عملية تعويض واستبدال . يتخلى المشرك فيها عن معبود ليضع بدله معبوداً آخر . وقد يضع غداً معبوداً جديداً ، بدلاً مما وضعه وارتضاه، وعبده اليوم .

---

(١) البقرة ، ٢٥٧ .
(٢) محمد ، ١ .

والمشرك إذ يتخلى عن الله – او يكفر به – يتخلى عن المغيبات كلها ، وينزل بمجال المحسوس والماديات فلا يرضى عن الله ، كما لا يرضى عن الملائكة. ولا يرضى أيضاً عن الجنة ولا عن النار ، فمعبود المشرك موجود محسوس. وجَنّة المشرك هي في دنياه . ويجوز على معبود المشرك : الضعف ، بل الموت . ولذا – أي هذا المعبود – : هو قابل لأن يستبدل به غيره ، أقوى او أنفع منه ، على الأقل : يوم أن يتوجه إليه المشرك بالعبادة والطاعة ، ويترك السابق .

ولأن الشرك كفر بالله ، ثم إقامة بديل عنه في هذا الوجود المادي ، كان من ظواهر المشرك : أن يصد عن سبيل الله بكل ما أوتي من قوة الحجة ان كان له منطق ، او قوة السلطة او التسلط ، ان كانت له غلبة وسيادة مادية . والمشرك في عملية « التحويل » – في العبادة والطاعة او في مجال الألوهية – يرقب المنفعة الشخصية المادية وحدها . ولذا هو : كثير التحول والانتقال من معبود الى آخر ، هو وثني ، ومعدد في ألوهيته وعبادته ، حسبما توجد منفعته ويتحقق هواه .

والمشرك إذ يطرح الايمان بالله .. يطرح القيم العليا والثبات عليها في اتجاهه وسلوكه .. وإذ ينزل بمجال الشرك في الألوهية ينزل الى مجال المنفعة المادية وحدها ، ولو تقرب للحصول عليها بما يعرض حرمات الآخرين معه للانتهاك او الضياع . وهي حرمات : النفس ، والمال ، والعرض .

والمشرك إذن أناني . والأناني هو من يعيش لذاته ، ويدور حولها في الوجود : في تفكيره ، وفي سعيه ، وفي تصرفاته . ولا يستهدف في ذاته إلا هواه وشهوته . وهو يطيع لذلك الهوى والشهوة . وعمله ضال . لأنه لا يلتزم الخط المستقيم . وإنما يسير في خط الهوى والشهوة حيثما تدفع ، او تجذب .

واذا كان الكفر بالله هو الخطوة الاولى للمشرك ، تتلوها خطوة انكار المغيبات جميعها : من البعث .. الى الجزاء في الآخرة ، فإن الامارة الظاهرة

للشرك والواضحة فيه هي : التحدي لدين الله ، او الصد عن سبيل الله . لأن النجاح في التحدي لدين الله ، او في الصد عن سبيل الله ، اخلاء الطريق للهوى والشهوة ، ولتحقيق المنفعة الشخصية .

فالذي يعبد جـــاه الزعامة في الدنيا ، او يعبد السلطة او التسلط على الآخرين ، ويقيم من هذه او تلك معبوداً يوفر له الاجلال – بدلاً من الله – فإن أمانه على بقاء معبوده وبقائه مستمتعاً بعبادته ، مربوط بمحاربة دين الله، وبالسخرية من كتاب الله . فسقوط دين الله في كتـــاب الله سيتيح الفرصة للانطلاق له في الاستمتاع بعبادة الزعامة والانتفاع بهـــا ، او بالسلطة واستغلالها .

ومن هنا كان « الملأ » – وهم النخبة ، او الوجهاء والزعماء – في قوم أي رسول أرســـل من قبل الله ، هم اول المعارضين والصادين عن دين الله ، والمتحدين لكل آية او حجة يأتي بهـــا الرسول ، ضماناً لبقائهم على عبادة الزعامة التي يمارسون خلالها امتيازات المستكبرين على المستضعفين في المجتمع .

وللعداوة المتأصلة بين المشركين الوثنيين الماديين ودين الله ، وعـد الله في كتابه بعدم الغفران لهم ، رغم سعة رحمته ، ان هم ماتوا على الكفر : « ان الذين كفروا ، وصدوا عن سبيل الله ، ثم ماتوا ، وهم كفار ، فلن يغفر الله لهم » [1] . وذلك بالاضافة الى أن مجتمعهم سيسقط حتماً : « وكأي من قرية (أي مجتمع) هي أشـد قوة من قريتك التي أخرجتك (وهو مجتمع المشركين بمكة) : أهلكناهم ، فلا ناصر لهم » [2] . أي كثير من المجتمعات القوية حول الجزيرة العربية كمجتمع ثمود ، او مدين التي كانت أكثر قوة من مجتمع مكة الذي تحداك وتحدى رسالتك باخراجك منـــه ، عندما أوحي

(١) محمد : ٣٤
(٢) محمد : ١٣

إليك بالهجرة الى يثرب .. سقطت وزالت الى غير رجعة ، ولم يكن هناك من يدفع عنها ترديها وسقوطها . وذلك بسبب أنها اتبعت أهواءها،وانصرفت عن دين الله . ولذا ضلت السبيل في حياتها : « أفمن كان على بينة من ربه ، كمن زين له سوء عمله ، واتبعوا أهواءهم ؟ » [1] . وإذا كانت نهاية الشرك – أو نهاية الوثنية المادية – هي تردي المشرك ، وسقوطه في حياته بسبب سوء عمله ، فإن المشرك ذاته أمارة الضلال في الاتجاه . وآيته الواضحة هي التصدي لدين الله .

الغيب :

« الغيب » : يرد في بعض آيات القرآن الكريم مقابلاً للمرئي والحاضر : يقول الله تعالى : « فالصالحـات قانتات (أي فأمارة الزوجات الصالحات أن تكن مطيعات لأزواجهن) حافظات للغيب (كما تكن حافظات لشرفهم، وعرضهم ، وأموالهم وأسرارهم في حال عدم وجودهم حاضرين معهم .. أي في حال سفرهم مثلاً وغيبتهم على العموم) بما حفظ الله (أي على نحو مـــا يوصي الله بحفظه) » [2] .. والغيبة بمعنى الحديث بما يسيء للانسان في عدم وجوده حاضراً.. مأخوذة من الغيب بهذا المعنى : أي غير المرئي والحاضر . وقوله تعالى : « يا أيهـــا الذين آمنوا : ليبلونـكم الله بشيء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم ليعلم الله من يخافه بالغيب » [3] .. ورد الغيب فيه كذلك بمعنى غير المرئي والحاضر . والمقصود من الآية : ان اختبار المؤمنين بالصيد المتمكنين منـــه في الحرم بالأيدي او بالرماح على السواء . هو للوقوف على مدى طاعتهم لأمر الله الذي لا يرونه بأعينهم ، وليس حاضراً معهم حضور

---

(١) محمد : ١٤
(٢) النساء : ٣٤
(٣) المائدة : ٩٤

عيان : « ليعلم الله من يخافه بالغيب (أي في غير وجود مشاهد له بينهم).

ويرد في بعض الآيات الأخرى مقابلاً للأمر المعلوم او الشائع ، على نحو ما جاء في قوله تعالى: «ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك»[1].. إذ الاشارة هنا : ذلك .. هي اشـــارة لقصة مريم : في ولادتها ، واصطفائها ، وطهرها ، ولقصة زكريا : في كفالته لها ، وفي بشارة الله إياه بولده : يحيى ، كنبي مصدق رغم شيخوخة زكريا وكبره في السن . فهذه الأنباء وقد مضت عليها عدة قرون كانت غير معروفة للرسول عليه الصلاة والسلام ، إلا عن طريق الوحي وحده . والغيب إذن الذي جاء في الآية هنا هو مقابل للأمر المعلوم او الشائع . ومثله ما جاء في قوله تعالى : « ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه (أي ليس من المصلحة أن يترك الله المؤمنين على مـــا هم عليه من وضع : يختلط المنافقون بهم فيـــه ، وهم العناصر الخطرة على الايمان وعلى الرسالة ، لما يظهرونه من ايمان ، ويخفونه من كفر بالرسالة وبغض للمؤمنين بها ، وحقد عليهم) حتى يميز الخبيث من الطيب (أي حتى يفصل بين الكافرين المنافقين .. والمؤمنين الصادقين ، ويخلصهم منهم . وذلك عن طريق الاختبار بالمساهمة في قتال الاعداء . إذ القتال في الميدان : هو وحده المحك لبيان ايمان المؤمن ، وكفر المنافق . وقـــد نزلت هذه الآية في شأن غزوة : « أحد » وظهور تلكؤ المنافقين في الذهاب الى القتال ، او في انصرافهم عنه الى جمع الاسلاب والغنائم ممن يفرون او ينهزمون من جنود الاعداء) ومـــا كان الله ليطلعكم على الغيب (أي وليس من المصلحة كذلك : ان يطلعكم الله – أيهـــا المؤمنون – على ما ليس بمعلوم لكم في مستقبلكم . لأن منه ما لو علم مقدماً: يكون مصدراً للبلبلة والتفكك فيما بينكم ، بل يجر الى تخاذلكم) ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء (أي ولكن الطريق الأمثل لاعلامكم بما لم تعلموه

(١) آل عمران : ٤٤

في مستقبلكم هو اختيار الله لرسول من رسله يوحي إليه تباعاً بأسرار المستقبل ويعلمكم بها أولاً بأول) فآمنوا بالله ورسوله (وليس مطلوب منكم الآن سوى التصديق بالله واتباع رسوله . إذ فيه الضمان لتكتلكم ونجاحكم)»[1].

كما يرد مفهوم الغيب بمعنى السر في نفوس الناس وصدورهم : « ألم يعلموا : ان الله يعلم سرهم ونجواهم ، وان الله علام الغيوب »[2] . فالغيوب جمع غيب . والمراد به هنا « سر » الناس في مقابل نجواهم . والغيب على العموم: ضد الشاهد والحاضر : في صدور الناس وفي نفوسهم .. في مستقبل الناس ومصائرهم .. في زوايا التاريخ البشري او في عالم الكائنات غير البشرية .. في عالم آخر غير عالم الدنيا .

وعلم الغيب – بهذا كله – هو الله وحده لا يشاركه فيه كائن من كان : من جن .. وإنس على السواء ، إلا من اختاره الله لرسالة من الناس فإنه يطلعه وحده عن طريق الوحي على غيبه الذي يريد أن يبلغه وينشره بين من يرسل إليهم : « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً (في أي زمن ، ولأي كائن) . إلا من ارتضى من رسول (أي من الملائكة يرسله بالوحي ، أو من البشر لتلقي الوحي وتبليغه للناس فيطلعه على غيبه) فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا (أي ومع كون غيب الله لا يطلع اطلاقاً عليه أحداً إلا الرسول المختار فقط .. فإن الله جل شأنه يقيم رقابة مشددة حول هذا الرسول تمنع تسرب الغيب منه لأحد سواه : « فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا » .. وهذه الحراسة كناية عن الاحتياط القوي لمنع تسرب الغيب) . ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم (أي يبقى هذا الاحتياط القوي مع الرسول لمنع تسرب الغيب منه حتى يبلغ ما أوحى به الى من كلف تبليغه إياهم . وعندئذ فقط يعلم غيب الله بين الناس) وأحاط بما لديهم ، وأحصى

(١) آل عمران : ١٧٩
(٢) التوبة : ٧٨

كل شيء عددا (وكذلك جلت قدرته في احتفاظه وحده بعلم الغيب وفي عدم سماحه للرسل بإفشائه قبل أن يبلغ للناس .. فإنه يحيط بإدراكه وعلمه بما لدى هؤلاء الرسل من غيب ويحصيه جزئية جزئية ، بحيث يعرف مدى تبليغه وصحة ما بلغ به) »[1] .. وهـذا منتهى مـا يكون من الحرص في حفظ الله للغيب الذي يختص به وحده .

ولتأكيد اختصاص الله وحده بعلم الغيب .. طلب من رسوله عليه الصلاة والسلام : أن يعلن في وضوح ، وان يسجل أيضاً ذلك في الكتاب الذي أوحى به : « قل : لا أقول لكم عندي خزائن الله . ولا أعلم الغيب (أي ليس من صلاحيته أن يعلم الغيب ويذيعه ، كما كان يدعي كهان مكة بواسطة قوى خفية يدعي لها أن تسترق السمع) ولا أقول لكم : اني ملك ، إن أتبع إلا ما يوحى إلي »[2] : « عالم الغيب والشهادة، وهو الحكيم الخبير »[3] .

النفاق :

بين فئات الناس - او بين مجموعات المجتمع وفي صفوف الأمـة - فريق من الأفراد ، لا هو الى الايمـان ولا الى الكفر بالمبادىء التي ينتسب إليها المجتمع . ومع ترددهم بين الايمان والكفر فشرهم على من يصادقونهم او على المجتمع .. أقسى بكثير من شر الأعداء الحقيقيين الصرحاء او المكشوفين . رغم أنهم ضعفاء في حقيقة أمرهم، ورغم أنهم جبناء في المواقف العلنية لهم.

هـذا الفريق من الأفراد هو فريق المنافقين .. هو فريق الانتهازيين والمنتفعين : يوجد في السياسة ، ويوجد في العلم ، ويوجد في الدين ، ويوجد في كل مجال توجد فيه قيم عليا ، ويوجد ايمان او كفر بها .

---

(١) الجن : ٢٦ ، ٢٨

(٢) الانعام : ٥٠

(٣) الانعام : ٧٣

والنفاق في الدين إذن هو عدم الجدية في اعلان قبوله . هو اعلان قبول الاسلام كدين،مع عدم الايمان بتبعات هذا الاعلان . هو رفع شعار الاسلام، دون أن يعتقد بمبادئه ، ودون أن يعمل بالتالي على تحقيق هـذه المبادىء في السلوك ، والفعل ، والتفكير .

وقد يبقى نفاق المنافق فترة طويلة غير معروف للآخرين معه في مجـال الحياة او العمل فيها . لأن المنافق عادة : له من المقدرة على إخفاء ما يضمر على خلاف ما يعلن ، ما يتميز بهذة المقدرة على غيره .

والأزمات نفسها هي التي تكشف عن النفاق سواء أكانت أزمة مجتمع يعيش فيه المنافق ، او أزمة صديق كان يعلن المنافق له الولاء والصداقة . وامارة النفاق التي يذكرها القرآن هي :

أولاً : تأكيد المنافق عادة : الولاء بحلف اليمين لمن يحلف له ، مع تبييته البغض والعداء : « إذا جاءك المنافقون قالوا : نشهد : انك لرسول الله ، والله يعلم انك لرسوله ، والله يشهد : ان المنافقين لكاذبون . اتخذوا ايمانهـم جنة (أي ستاراً) فصدوا عن سبيل الله ، انهم ساء ما كانوا يعملون . ذلك بأنهم آمنوا (أي أعلنوا قبولهم للاسلام ديناً وعقيدة) ثم كفروا (أي ثم لم يؤمنوا في حقيقة أمرهم) ، فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون »[١] .

فمع كون المنافقين هنـــا يشهدون الله على اقرارهم برسالة الرسول عليه الصلاة والسلام ، فهم في حقيقة الأمر : يقفون في طريق الدعوة الى الاسلام وقوف الصاد لها والمصمم على منعها وانتشارها . ويتخذون من الاشهاد واليمين ستاراً يعملون من خلفه ضد الدين ، ذلك الدين الذي هم قد أعلنوا قبوله من قبل . وبذلك يكفرون بعد أن أعلنوا اسلامهم

---

(١) المنافقون : ١ ، ٣

والمنافق بتأكيد ولائه بحلف اليمين يسلك مسلك التغرير والخداع لمن يحلف له ويظهر أنه يواليه . ومن شأن المؤمن على الحقيقة أن يرد هذا التغرير بعدم تصديقه لليمين . وفي هذا تقول آية أخرى : « يحلفون لكم لترضوا عنهم ، فان ترضوا عنهم ، فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين » (١) .

فإعلان الله جل شأنه : أنه لا يرضى عن الفاسقين ، وهم الذين يكفرون بسلوكهم — بعد اعلانهم قبول الدين — يشير الى تحذير المؤمنين من الوقوع في خداع المنافقين . عندما يشهدون على أنفسهم بحلف اليمين : أنهم أولياء للمؤمنين ، ولدينهم . ومثل اليمين على الولاء كثرة التردد والمجاملة ، والظهور بالطاعة التي لا يصحبها نقد ما .

وثانياً : تحريض المنافق لعدو من أظهر له الصداقة ، او أشهد على نفسه بالولاء له . لأن هذا المنافق دخل في صداقة من صادقه او في ولاء من والاه : لا عن اعتقاد به ، وإنما لمنفعة خاصة منه ، فهو يستهدف منفعة مادية ، أينما يجدها يقتنصها . فان وجدها عند عدو من صادقه او ولاه ، فلكي يحصل عليها لديه فلا مانع من أن يكشف له : الصديق ويدله على نقاط الضعف — ان وجدت — في جانبه . أي لا مانع لديه من الخيانه . إذ أنه في واقع الأمر لا يفرق بين مسلك خلقي او غير خلقي : في سبيل تحصيل المنفعة الشخصية .

يقول القرآن الكريم ، موجهاً الخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام : « ألم تر الى الذين نافقوا يقولون لاخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب (وهم اخوان لهم في حقيقة الاعتقاد) : لئن أخرجتم (أي أكرهتم على الخروج من دياركم) لنخرجن معكم (أي مؤازرة لكم) ولا نطيع فيكم أحداً أبداً (أي لا ندين بالطاعة لأحد من المسلمين الذين ننتسب نحن إليهم الآن في

---

(١) التوبة : ٩٦

شأن ضدكم) وان قوتلتم (أي وان قاتلكم المؤمنون) لننصرنكم ، والله يشهد : انهم لكاذبون . لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ، ولئن قوتلوا لا ينصرونهم (أي لا يشتركون في القتال معهم لنصرهم) ولئن نصروهم (أي وان اشتركوا في القتال معهم لنصرتهم) ليولن الأدبار (أي ليفرون من الميدان ويعودون من حيث أتوا) ثم لا ينصرون (أي لا يحرزون نصراً ان بقوا في ميدان القتال) »[1] .

ثالثاً : المنافق لا يضحي اطلاقاً بمال او بنفس في سبيل من أعلن له الصداقة ، او في سبيل ما أعلن له الولاء من دين . إذ طالما يستهدف المنفعة الشخصية المادية من صداقة من يصادقه ، او من ولاء من يواليه ، فكيف يعطي من ماله او من نفسه ، فضلاً عن التضحية بهما بسبب الصداقة او الولاء ؟ ؟ .

وهنا : الجهاد في سبيل الله كان ـ ولا يزال ـ هو المجال الفيصل في حقيقة الاعلان بقبول الاسلام ديناً : أهو شعار يرفع للمنفعة ، أم هو تعبير عن « جدية » وعن ايمان ؟ . وفي هذا يقول القرآن الكريم : « فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله ، وكرهوا ان يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، وقالوا : لا تنفروا في الحر (أي لا تخرجوا للقتال في هذا الجو الحار) قل : نار جهنم (أي التي تنتظرهم بسبب تقاعدهم عن القتال) أشد حراً لو كانوا يفقهون . فليضحكوا قليلاً (أي الآن في الدنيا) وليبكوا كثيراً (أي في الآخرة) جزاء بما كانوا يكسبون (أي بسبب اقترافهم جريمة التخلف وعدم المشاركة في القتال) »[2] .

والمنافق بهذه الأمارات الثلاث :

---

(١) الحشر ، ١١ ، ١٢

(٢) التوبة ، ٨١ ، ٨٢

تغرير من والاه وصادقه بتأكيد الولاء له ،
وتحريض عدوه ، ووعده بالمؤازرة ضده ،

وعدم التضحية بمال أو بمشاركة في الدفاع عنه ، عند حلول أزمة او شدة .. هو في مجال الدين فاسق أو كافر بعد اعلانه الاسلام .. وفي مجال الصداقة لا يؤمن جانبه .. وعند الأزمات والشدة لا يعتمد عليه ، « فإن رجعك الله الى طائفة منهم (أي من المنافقين وهذه أمارتهم) فاستأذنوك للخروج فقل : لن تخرجوا معي أبداً ، ولن تقاتلوا معي عدواً ، انكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين . ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ، ولا تقم على قبره ، انهم كفروا بالله ورسوله ، وماتوا وهم فاسقون »[1] .

عباد الرحمن :

يعد الله سبحانه وتعالى عباده الذين ينتسبون إليه بأن يرثوا الأرض ويمكنوا فيها . ووعده بذلك إياهم هو قضاء منه لا يتخلف أبداً : « ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر (أي من بعد القرآن الكريم) : ان الأرض يرثها عبادي الصالحون . إن في ذلك لبلاغاً لقوم عابدين » [2] .. وما كتبه الله جل جلاله في القرآن في هذا الشأن هو ما جاء في قول الله تعالى : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض ، كما استخلف الذين من قبلهم » [3] .

ويؤكد الله ـ كذلك ـ جل شأنه : إن عباده الذين ينتسبون إليه : هم فوق مستوى الاغراء ، مهما كانت درجة هذا الاغراء وأسلوبه . فالقرآن

---

(١) التوبة ، ٨٣
(٢) الانبياء ، ١٠٥ ، ١٠٦
(٣) النور ، ٥٥

يخاطب الشيطان، ويؤكد له: انه ليس له ادنى تأثير على عباد الله ، فيما يقوله له : « ان عبادي ليس لك عليهم سلطان ، وكفى بربك وكيلا » [1] .. مهما باشر من اسلوب الحمل والاكراه على التأثير عليهم ، من : استخدام ألوان الاصوات ونداءات الدعاية ، وانواع القوة المادية ، والمشاركة في الأموال والأولاد ، والوعود الخادعة البراقة ، كما جاء في تحدي الله له بقوله : « واستفزز من استطعت منهم (أي وأقلق من أمكنك اقلاقه من المؤمنين) بصوتك ، واجلب عليهم بخيلك ورجلك ، وشاركهم في الأموال والأولاد ، وعدهم ، وما يعدهم الشيطان إلا غروراً » [2] .

وعباد الله هؤلاء الذين وعدوا بأنهم يرثون الارض ، وهم فوق مستوى الاغراء بمتع الحياة المادية وجاهها ، والبعيدين عن التأثر بأساليب الحمل والاكراه .. هم عباد الرحمن الذين جاء وصفهم في قول الله تعالى :

١ – « وعباد الرحمن : الذين يمشون على الأرض هونا (أي في تواضع) .

٢ – « واذا خاطبهم الجاهلون (وهم أهل الوثنية المادية والشرك بالله)، كما جاء في قوله تعالى : « قل أفغير الله تأمروني أعبد ، أيها الجاهلون .. الى أن يقول : وما قدروا الله حق قدره »[3]) قالوا: سلاماً (أي فيدركون عدم الجدوى من الدخول في حديث مع الجاهلين . ولذا : ان خاطبهم هؤلاء أجابوهم بما ينهي الكلام معهم في سلام، وفي غير استمرار لنزاع او لخصومة) ،

٣ – « والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً (أي يقيمون الصلاة في سكون الليل وهدوئه) ،

٤ – والذين يقولون: ربنا اصرف عنا عذاب جهنم، انعذابها كانغراماً. انها ساءت مستقراً ومقاماً ،

(١ و ٢) الاسراء ، ٦٤

(٣) الزمر : ٦٥ ، ٦٧

٥ — « والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا، ولم يقتروا ، وكان بين ذلك قواما.

٦ — « والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ،

٧ — « ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ،

٨ — « ولا يزنون .. الى ان يقول :

٩ — « والذين لا يشهدون الزور ،

١٠— « وإذا مروا باللغو (وهو الحديث غير الجدي، أو النكت السخيفة ، أو المناظر التي تعرض ولا معنى لها) مروا كراماً (أي محتفظين بجديتهم وكرامتهم) ،

١١ — « والذين اذا ذكـّروا بآيات ربهم ، لم يخرّوا عليها صماً وعمياناً .

١٢ — « والذين يقولون : ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين ، واجعلنا للمتقين إماماً » [١] .

.. ووصف عباد الرحمن — بهذه الصفات كلها في هذه الآيات — يرجع الى انواع ثلاثة :

أولاً : بالنسبة الى الله . ووصفهم في هذا المجال هو : الايمان بالله وحده ، واتباع ما يتلى من كتاب الله في يقظة ، ومباشرة الصلاة أثناء الليل ، والدعاء له : بحسن التوفيق في الزوجات والأولاد في الدنيا ، وتجنب العذاب في الآخرة .

وثانياً : بالنسبة للسلوك : ووصفهم في هذا الشأن هو : الامتناع عن مظاهر الكبرياء ، والاعتدال في الإنفاق على الأسرة والأولاد، وعدم ارتكاب أية جريمة اجتماعية من : قتل وتعذيب لنفس لها حرمتها عند الله ، واعتداء

---

(٣) الفرقان : ٦٣ ، ٧٤

على عرض ، وشهـــادة زور ، والجد في الحياة بالإعراض عن تافـــه الامور وسخافات الطفولة البشرية .

وثالثاً : بالنسبة الى الأعـداء المتعنتين من الوثنيين الماديين . ووصفهم هنا هو عدم التمادي في خصومتهم ، وانهـــاء مخاطبتهم بما يحفظ عليهم السلام . وعباد الرحمن هؤلاء هم في النهـــاية : الذين لا تغريهم فتنة مال أو جاه أو عصبية ، وهم الذين يمكنون وجدهم في الارض في خلافـــة الله ، في استقرار واطمئنان ، وعدم خوف ورهبة من أحد . وهم الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

المستكبرون :

يقول الله تعـالى : « إذ قال ربك للملائكة : إني خالق بشراً من طين . فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين . فسجد الملائكة كلهم اجمعون . إلا إبليس : استكبر ، وكان من الكافرين »[1] .. فوصف إبليس بأنه استكبر ، لأنه لم يطع وأصر علىعدم طاعته في أن يسجد لآدم . وعندما سئل علىإصراره علىعدم الطاعة : « قال : ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك »[2] ..أجاب بقوله: « قال : أنا خير منه ، خلقتني من نار وخلقته من طين »[3] . وبذلك أخذ فيمفهوم الاستكبار : التعالي والغطرسة ، مع الإصرار علىالعصيان.

وعندما وصف الله الملائكة بعدم الاستكبار في قوله : « ولله يسجـــد ما في السموات وما في الارض من دابة ، والملائكة وهم لا يستكبرون »[4] .. اتبع نفي الاستكبار عنهم هنا بقوله في الآية التالية بعدها : « يخافون ربهم من فوقهم (أي يخشون الله وهو في عليـــائه وهم دونه) ويفعلون ما

(١) سورة ص : ٧١ ٧٤
(٢و٣) الأعراف : ١٢
(٤) النحل ، ٤٩

يؤمرون (أي لا يعصون له أمراً ، فضلاً عن ان يتمكن منهم العنـــاد أو يصروا عليه) » [1] .. فأكمل وصفهم بالخشية من الله ، وامتثال أمره دائماً. واكال وصفهم بهذا وبذاك .. هو بمنزلة توضيح لعدم استكبارهم .

والاستكبار إذن ليس هو العصيان وعدم الطاعة فحسب .. وليس هو الكفر وعدم الايمان فقط .. وانما هو ذلك : التعالي والتحدي لما يكفر به المستكبر ويعصى فيه : « ويل لكل أفاك أثيم . يسمع آيات الله تتلى عليه ، ثم يصر مستكبراً كأن لم يسمعها ، فبشّره بعذاب أليم . واذا علم من أياتنا شيئاً اتخذها هزواً ، أولئك لهم عذاب مهين » [2] .

والمستكبرون في أي مجتمع هم من يعرفون « بالنخبـــة » .. هم الزعماء وارباب الثروة ، والجـــاه ، فيه . ويعرفهم القرآن « بالملأ » عندما يذكر : « قال المـــلأ الذين استكبروا من قومه : لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا (أي مجتمعنا) أو لتعودن في ملتنا (أي الا ان عدت ومن آمن معك الى ملتنا وعقيدتنا في الشرك والوثنية – عندئذ لا نتعرض لـكم ، بإخراجكم ونفيكم من بيننا) » [3] . والمعنى : ان النخبة في قوم شعيب تعالت في إصرار عن الايمان بدعوته ، ورفضت في عتو وتحد ان تطيعـه ، وهددته بنفيه ونفي من آمن به الى خارج الديار .

والمصلحة الخاصة للزعمـاء وأرباب الجاه والثروة في استكبارهم وتحديهم لدعوة الايمان الجديدة .. هي في المحافظة على الزعامـة ، والابقاء على الوضع الاجتماعي الذي يتميزون به بين قومهم . وهو وضع يمكنهم من الاستغلال عن طريق النفوذ .

---

(١) النحل ، ٥٠

(٢) الجاثية ، ٨ ، ٩

(٣) الاعراف : ٨٨

ولذا ، يعتبر كخصيصة أساسيـــة في مفهوم المستكبرين : الاصرار على التحدي ولو باختلاق الأكاذيب ، لتشويه الدعوة الجديدة ، التي تحاول نقل المجتمع من وضع احتكار النفوذ والتسلط.. الى وضع آخر ، يسود فيه العدل، كما يسود فيه الاعتبار البشري لكل فرد فيه ، بحيث لا يميز واحد عن آخر بنسب ، او ثروة ، او جاه . وانما يميز فقط : بالعمل من اجل صالح المجتمع كله .. من اجل خيره وحده .

وفي ابراز معنى التحدي القـــائم على اختلاق الأكاذيب يحـكي الله عن المستكبرين المكيين ، وعن تحديهم لرسول الله محمد ﷺ ، فيما يقوله سبحانه: « انهم كانوا اذا قيل لهم : لا إله إلا الله (وهو شعـــار الدعوة الجديدة) يستكبرون (أي يتعالون ويرفعون رؤوسهم تكبراً واستهزاء) ويقولون: أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون ؟ (أي كيف نقبل الدعوة الجديدة وهي دعوة الوحدة في الألوهية ، ونعرض عن وثنيتنا التي تدعونا الى عبادة آلهـة عديدة ؟ إننا إن فعلنا ذلك كنا قد أطعنا إنساناً يعيش في الخيال وفي بعـد عن الواقع.. ليس بصحيح العقل ولا مستقيم التفكير.. انساناً هو مجنون »[1].
فاتهامهم لرسول الله ﷺ في دعوته الى التوحيد بأنه بعيد عن الواقع فيهـا ، ومجنون لا يستقيم منطقه .. هو امارة استعلائهم وتكبرهم .. وامارة المبالغة في تحديهم ومعارضتهم .

ومن هنا كانت مواجهتهم يوم الجزاء بأنهم قوم مجرمون .. مواجهة معبرة عن قيمة موقفهم من الايمان تعبيراً واضحاً ، على نحو ما تنطق به هذه الآية : « وأما الذين كفروا (أي فيقال لهم يوم الجزاء) : أفلم تكن آياتي تتـــلى عليكم ، فاستكبرتم (أي تعاليتم وترفعتم عن الايمان بها في تحد ، واصرار في المعارضة) وكنتم قوماً مجرمين (في تحديكم ،وفي رفضكم لدعوة الايمان.

---

(١) الصافات ، ٣٥ ، ٣٦

لأنكم سلكتم طريق الاعتداء : اما باختلاق الأكاذيب ، واما بالمكايد ، والدسائس ، والمؤامرات) »[1] .

المستضعفون :

إن كل مجتمع – بحكم الميول والطبائع البشرية المختلفة – ينزع الى الانقسام الى مجموعتين في الجملة : مجموعة تمارس الضغط والنفوذ على مجموعة أخرى فيه : تقبل ممارسة الضغط وتنفعل به . والفرق بين مجتمع وآخر هو في مدى سعة الدائرة للمجموعة التي تقبل الضغط من جانب ، وبالتالي في ضيق المجموعة الأخرى التي تمارسه من جانب آخر . فالفروق الفردية : في الاستعدادات البشرية ، وفي الطاقات على تحمل الأعباء والمسئوليات ، وعلى انجاز الغايات والمهام .. هي التي تحول دون أن يكون أفراد المجتمع في أوضاع متساوية : في إحداث الأثر ، أو في تقبله . وشعار المساواة الذي يرفع في المجتمع يعنى به قبل أي شيء : المساواة في الاعتبار البشري والكرامة الانسانية ، بحيث لا يستذل ضعيف لقوي ، ولا يفرق بين فرد وآخر في نوعية الجريمة وفي عقابها ، ولا في النظرة الى عمل الأفراد ، حسب اعتبار آخر وراء الخصائص الانسانية .

وظاهرة النزوع في المجتمع الى أقوياء في طاقاتهم واستعداداتهم .. والى من هم أقل منهم في هذه الطاقات والاستعدادات .. قد تدفع بالأقوياء الى الاستعلاء على من دونهم ، والى ممارسة التأثير عليهم لصالحهم وحدهم . وعندئذ يكون وضع هؤلاء الذين هم أدنى في الطاقات والاستعدادات وضع « المستضعفين » .. أي وضع الذين يقبلون مذلة التأثير من الأقوياء ، في مجالات عديدة من مجالات العمل ، أو الاعتقاد .

---

(١) الجاثية ، ٣١ .

فاذا أتى جيل في المجتمع وورث عن أسلافه ممارسة الاستعلاء ، دون أن تكون لديــه الميزة في الطاقات والاستعدادات البشرية .. فانه عندئذ يبدو الظلم واضحاً في الاعتداء على المستضعفين . إذ قـــد يكون من بين هؤلاء المستضعفين الآن : من هو أحسن استعداداً من أفراد ذلك الجيل الذي يمارس الاستعلاء في غير أهلية .

وترد كلمـة المستضعفين في القرآن الكريم في مقابل المستكبرين ، ويراد بها : ذلك الفريق في المجتمع : الذي يقبل التأثير من غيره ، دون أن تكون لهذا الغير صلاحية طبيعية في ممارسة الاستعلاء والتأثير عليه . وعندئذ يكون قبول التأثير تحت وهم ، أو تصور غير سليم . وفي الحوار الذي تعرضه هذه الآيات الثلاث الآتية يبدو معنى المستضعف : أنه ذلك الذي يقبل التأثير من غيره ، دون أن يكون بـه ضعف حقيقي ، ودون أن تكون الآخر أهلية بشرية في ممارسة التأثير . يقول الله تعالى [1] .

« وقال الذين كفروا (أي جميعاً ما بين مستكبر ومستضعف .. ما بين ممارس للتأثير على غيره ، وقابل للأثر من غيره) : لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديــه (من كتاب آخر : كالتوراة) ولو ترى (والخطاب موجه للرسول محمد عليــه الصلاة والسلام) إذ الظالمون (والظالمون هم الكافرون ، واعتبروا : ظالمين ، لأنهم ظلموا أنفسهم بالكفر) موقوفون عند ربهم (أي في يوم الجزاء) : يرجـــع بعضهم الى بعض .. القول (أي يحاور بعضهم بعضاً) :

يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا (أي يقول الذين قبلوا التأثير من غيرهم وقـد مارسوا الاستعلاء عليهم) : لولا أنتم لكنا مؤمنين (أي أنكم أنتم أيها المستكبرون قد حلتم بتأثيركم علينا بيننا وبين الايمان بالله) .

---

(١) سبأ : ٣١ ، ٣٣ .

وقال الذين استكبروا للذين استضعفوا (أي فكان رد المستكبرين على المستضعفين قولهم) : أنحن صددناكم عن الهدى ، بعد إذ جاءكم ؟ بل كنتم مجرمين (أي نحن لم نمنعكم عن الهداية بعد أن بلغت اليكم ، وكان بامكانكم ، أن تؤمنوا لو أردتم ، ولكن غلبت عليكم عوامل الفساد والاجرام تحت تأثركم بأهوائكم وشهواتكم . وبذلك لم نكن نحن في وضع ذاتي يتيح لنا ممارسة التأثير) .

وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا : بل مكر الليل والنهار ، إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً (أي وعلى حجة المستكبرين أعلن المستضعفون مواجهتهم : أن خداعهم المستمر الذي لم ينقطع ليلاً ونهاراً ذلك الخداع الذي ينطوي على تشويه الايمان بالله وحده ، والدعوة الى الترغيب في الشرك واتخاذ القرناء والأنداد لله – كان مبعث كفرنا واجرامنا – في حق أنفسنا) وأسروا الندامة لما رأوا العذاب (ولكن اعلانهم ذلك في مواجهة المستكبرين لم يعفهم من تحمل آثار مسئوليتهم الشخصية . ولذا أحسوا في قرارة أنفسهم بالندم على كفرهم ، ووقوعهم في شباك الخداع الذي باشره المستكبرون معهم في المجتمع) .

وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا (أي وعندما اتضح الآن أن المستضعفين خدعوا بوضع المستكبرين ، وكان بامكانهم أن لا يطيعوهم في خداعهم لأنهم لم يكونوا على قوة وصلاحية للتأثير بالفعل ، وإنما ورثوا ممارسة الاستعلاء عن أسلافهم ، دون أن تكون لهم طاقات واستعدادات تسمح لهم بالممارسة الواقعية .. عندئذ طوق الكافرون جميعاً : ما بين مستكبرين ومستضعفين ، بأغلال العذاب) .. هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ؟ (وكان جزاؤهم جميعاً طبقاً لأعمالهم واصرارهم على الكفر) .

.. فهذا الحوار الذي رسمته هذه الآيات : يحدد المستضعف بأنه ليس الضعيف بالفعل . وإنما هو الذي يقبل الأثر من غيره ، تحت وهم : أنه أقوى

منه ، وهو ليس بأقوى منه في واقع الأمر . وإلا : فالضعيف بالفعل الذي يكره من غيره على الكفر – وهو في قلبـــه مطمئن للإيمان – لا يجازى بكفره ، وإنما له جزاء إيمانه .

الخاشعون :

الخاشع هو مـن يخضع لغيره ويتضاءل أمامه . وقد يكون الخشوع لله ، وقد يكون أيضاً لما سواه . وقد جاء التعبير بالخاشعين في القرآن الكريم وصفاً لمن خضعوا وتضاءلوا أمـام المولى جل جلاله في قوله سبحانه : « وان من أهل الكتاب (أي من اليهود والنصارى) لمن يؤمن بالله ، وما أنزل اليكم (يقصد القرآن) وما أنزل اليهم (أي من التوراة والانجيل) خاشعين لله (أي خاضعين له متضائلين أمام عظمته ، يكادون لا يشعرون بوجـود خاص لهم) لا يشترون بآيات الله ثمنـاً قليلاً (أي لا يتاجرون بالهداية ولا باعلان الحلال والحرام ويأخذون على ما يقولون أجراً تافهاً » [1] .. وعلى هذا النحو جـاء قوله تعالى : « قـــد أفلح المؤمنون . الذين هم في صلاتهم خاشعون (أي خاضعون ، ولديهم الاحساس بضآلة أنفسهم ووجودهم أمام الله ، أثنـــاء صلاتهم وتوجههم بالدعاء له) » [2] .

وجـاء التعبير بالخاشعين – أيضاً في القرآن الكريم – وصفاً لمن خضعوا لغير الله وتضاءلوا في مواجهة هذا الغير ، كوصفه لفريق الضعفاء في مجتمع المستكبرين بالخضوع لمن يمارسون عليهم الاستعلاء والزعامة . وبسبب ضعفهم في خضوعهم يخشون أن يعلنوا ايمانهم بالله وبالحق ، وبمـــا يجب أن يكون عليه وضع المجتمع من المساواة في الاعتبار البشري بين الأفراد جميعاً . فقد جاء في وصف مجتمع بني اسرائيل على عهد من عهوده قوله تعالى: « أتأمرون

---

(١) آل عمران : ١٩٩ .
(٢) المؤمنون : ٢٢٠ .

الناس بالبر (والخطاب موجه الى أحبارهم وعلمائهم وهم زعماؤهم وكبراؤهم) وتنسون أنفسكم (أي فلا تمارسون أنتم العمل طبقاً لما تنصحون وتوصون به أتباعكم من : الايمان بالله وما أنزل على رسله) وأنتم تتلون الكتاب (تفعلون ذلك: تأمرونهم بالايمان وتغفلون أنفسكم : في حين أنكم تعرفون ما في التوراة والانجيل وتقرأون منهما على من تنصحونهم : ما يبشر برسالة الرسول . وهذا واضح في التناقض) أفلا تعقلون ؟ (أي أليس لكم منطق . وأليست لكم فطنة وحكمة تدركون معها : أنكم تناقضون أنفسكم فيما تقولون وتفعلون؟).
ثم بعد أن أقام الحجة على زعماء بني اسرائيل من علمائهم وأحبارهم في وقوفهم من رسالة الرسول محمـــد عليه الصلاة والسلام ، موقف المتعنت والمتناقض ، حرصاً على ما لهم من زعامة .. طلب الى بني اسرائيل جميعاً ، من مستكبرين ومستضعفين .. من زعمـــاء وتابعين : أن يؤمنوا صدقاً وحقاً ، فقال لهم : واستعينوا بالصبر والصلاة (أي استعينوا على انتقالكم من موقفكم الذي أنتم فيه من معارضة الايمان في أنفسكم برسالة الرسول عليه الصلاة والسلام.. الى الايمان بها .. استعينوا على ذلك : بالصبر ، والصلاة . فبالصبر تجتازون الصعوبات النفسية ، وبالصلاة تتعودون على طاعة الله) وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين (وإن مباشرة الصلاة ستكون شاقة على الزعماء فيكم لأنها امارة التحول من الكفر الى الايمـــان . وتحولهم عن كفرهم من اجل الحرص على زعامتهم ليس بالأمر الهين عليهم. ولكن مباشرة التحول من التابعين للزعماء – وهم الخاضعون والخاشعون لهم – ليس امراً شاقاً على انفسهم . لأن هؤلاء سوف لا يفقدون في سبيل تحولهم الى الايمان ما يحرصون عليه ، كما هو شأن زعمائهم . فموقفهم قريب من الايمان .. قريب من الايمان بالله واليوم الآخر). الذين يظنون : انهم ملاقوا ربهم، وانهم اليه راجعون (أي فهؤلاء الخاشعون – وهم التابعون للزعماء في مجتمعهم – ليسوا متعنتين في كفرهم . بل هم على قرب من الايمـــان . إذ يظنون ان مآلهم سينتهي بهم الى اليوم الآخر

وملاقاة ربهم يوم الجزاء . ومن لا ينكر اليوم الآخر لا ينكر الله والايمان به) [١] .. فالخاشمون هنا هم اتباع الزعماء من العلماء والأحبار في مجتمع بني اسرائيل .. هم الذين يخضعون لهم ولا يشعرون بكيان وجودي خاص لهم امام امرهم ومشورتهم .

وبعض المفسرين يحمل الخاشعين هنا على : المؤمنين بالله ، الخاضعين له والمتضائلين أمام عظمته . ولكن المؤمنين بالله من شأنهم أن يكونوا موقنين بالآخرة ، ولا يظنون أنها آتية فحسب ، على نحو ما في قوله تعالى : «ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين. الذين يؤمنون بالغيب ، ويقيمون الصلاة، ومما رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بما أنزل اليك ، وما أنزل من قبلك ، وبالآخرة هم يوقنون » [٢] فجاء هنا في وصف المؤمنين : أنهم يوقنون في ايمانهم بيوم الجزاء وهو اليوم الآخر : « وبالآخرة هم يوقنون » .

وحمل هذا البعض من المفسرين : « الظن » في قوله تعالى : « الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم » .. على معنى اليقين : وكأن المعنى : الذين يوقنون انهم ملاقوا ربهم .. هو تكلف في تفسير القرآن . لأن القرآن في ألفاظه وتراكيبه يجب أن يحمل عليه غيره ، ولا ينبغي ان يحمل هو على ما يراه الانسان . فضلا عن ان مثل هذا التفسير يؤدي الى فقدان وحدة الهدف التي انطوت عليها الآيات التي جاءت في وصف مجتمع بني اسرائيل .

فالقرآن يريد ان يحمل زعماء بني اسرائيل تبعة مزدوجة في عدم الايمان برسالة الرسول عليه الصلاة والسلام . وهي تبعة كفرهم ، وتبعة التأثير على التابعين لهم . إذ أن هؤلاء التابعين لو أبعدوا عن نفوذ زعمائهم لكانوا اقرب

---

(١) البقرة : ٤٤ ، ٤٦ .
(٢) البقرة : ٢ ، ٤ .

الى الايمـــان منهم الى الكفر ، ولظنوا : أنهم ملاقوا ربهم ، وأنهم اليه راجعون . كما يريد أن يشير الى المجتمع البشري في أي عهـــد : ينقسم الى مجموعــة تباشر التأثير – وهي قلة عادة – ومجموعة أخرى تتقبل الأثر وهي الكبيرة في الغالب ، وهي الكافة والعامة . واتجاه المجتمع – ككل – الى الى الايمان ، أو الى الكفر .. أو الى الهداية ، أو الى الضلال .. يرتبط في الأكثر بموقف القلة المؤثرة ، دون الكثرة التابعة .

ب ـ دائرة الرسالة .. والرسول :

الرسول – الروح – الاسراء – الافك

الرسول

الرسول المبعوث من قبل الله هو فرد من رجال البشر : يأكل ويشرب ، ويتزوج وينسل ، ويحيا ويموت : « وما أرسلنا قبلك الا رجالاً (أي قبل الرسول : محمد عليه الصلاة والسلام) نوحي اليهم ، فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون (أي فاسألوا ايهـا المشركون الماديون من أهل مكة : أهل الذكر والعلم ، من اتباع موسى او اتباع عيسى عليهما الصلاة والسلام ، ان كنتم حقاً لا تعرفون : ان الرسل من الرجال ومن البشر ، وليسوا مـــن الملائكة) . ومـــا جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام (أي وما خلقنا لهم ابداناً تعيش بدون اكل. انما هم يأكلون كما يأكل غيرهم من البشر: سواء) وما كانوا خالدين (أي وكذلك : يعرض لهم الموت ، كما يعرض لغيرهم من بني الانسان) »[1] .. ويقول القرآن الكريم ايضاً : « ولقد ارسلنا رسلا من قبلك ، وجعلنا لهم ازواجاً وذرية »[2] . فليست الرهبنة اذن : اصلا في الرسالة ، ولا الصوم عن الطعام والشراب — أمد الدهر — ان امكن لانسان ما —بسبب في اختيار الرسول، وليس الرسول فوق مستوى ما يعرض للبشر، من : مرض ووفاة ، وتتبع واضطهاد ، وهزيمة ونصر ، وشدة ويسر .

وخاصة الرسول بعد ذلك : أنه مؤيد من قبل الله بأمارة تدل على صدقه

---

(١) الانبياء : ٧ ، ٨ .
(٢) الرعد : ٣٨ .

في رسالته : « وما كان لرسول أن يأتي بآية (أي بأمارة وشاهد يدل على صدقه في رسالته) إلا باذن الله ، لكل أجل كتاب »[1] ..

وأنه يوحى اليه من قبل ربه ، وأن رسالته هي الدعوة الى عبادة الله وحده : « وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي اليه ، أنه لا إله إلا أنا، فاعبدون »[2] .. والدعوة الى عبادة الله وحده في رسالة الرسول هي الأصل الذي تقوم عليه مبادىء الهداية في الاعتقاد ، والتشريع . تلك المبادىء التي قد يكلف بها رسول من الرسل، كما كلف موسى ، ومن بعده محمد عليهما الصلاة والسلام : « كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم : يتلوا عليكم آياتنا ، ويزكيكم ، ويعلمكم الكتاب والحكمة ، ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون »[3] .. فرسالة الرسول ﷺ أضافت الى دعوة التوحيد في الالوهية .. توجيهاً يقوم على تزكية النفوس وتطهيرها بهدايتها : الى السبيل السوي في السلوك ، وفي العلاقات ، وفي الصلة بالله . وذلك كله يتمثل في جملة من المبادىء ، أتى بها الوحي في القرآن الكريم .

والرسول – كذلك – يأتي دائماً بلسان قومه ، حتى يستطيع توضيح دعوته لمن يرسل اليهم أول الأمر : « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم ، فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء (أي ليس جزءاً من رسالة أي رسول أن يحمل غيره على الهداية : ويكره الناس عليها . وإنما رسالته تكمن فقط ، في التوضيح لدعوته . أما هداية من يهتدي ، وكفر من يكفر : فيعود الى مشيئة من يؤمن أو من يكفر أولاً ، ثم الى توفيق الله بعد ذلك لهدايته ، أو عدم توفيقه الى ذلك ثانياً »[4] .. وقصر الرسول على أن

---

(١) الرعد : ٣٨ .
(٢) الانبياء : ٢٥ .
(٣) البقرة : ١٥١ .
(٤) ابراهيم : ٤ .

تكون رسالته بلسان قومه .. لا يعني عدم عموم دعوته للناس جميعاً . لأن عموم الدعوة يرتبط فقط بعموم المبادىء التي جاءت بها رسالته، وليس بلسان الرسول الخاص لأن الدعوة اذا وجدت مؤمنين بها في قوم الرسول كان ايمانهم هو الكفيل -بجانب موضوعية المبادىء في الرسالة- بنشرها وتعميمها .

وصلاحية الرسول وأهليته هي اذن في البيان والتوضيح .. في البشارة والانذار . وليست له سلطة جزاء ، من : ثواب وعقاب . كما أنه ليس له الحق كذلك في الوعد بما ليس من وظيفته ، أو بما لا يملك في يده ، أو في غده : « وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ، فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كذبوا بآياتنا يمسهم العذاب بما كانوا يفسقون . قل : لا أقول لكم عندي خزائن الله ، ولا أعلم الغيب ، ولا أقول لكم : اني ملك ، ان أتبع إلا ما يوحى إلي »[1] .. فأمر الرسول عليه الصلاة والسلام هنا في القرآن: أن يتجنب في دعوته .. الوعود الخادعة، والتي يغري ادعاؤها ، وتشقي خيبة الأمل فيها .

والرسل في رسالاتهم لا بد أن يواجهوا أزمات ، ولا بد أن تشتد بهم الأزمة ويتراخى انفراجها . ولكن في النهاية لا بد أن ينتصروا بإيمانهم وبمثابرتهم وتحملهم في سبيل دعوتهم ، وبتوفيق الله إياهم : « حتى اذا استيأس الرسل ، وظنوا أنهم قد كذبوا .. جاءهم نصرنا فننجي من نشاء ، ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين »[2] .. وفي آية أخرى : « .. ثم صدقناهم الوعد فأنجيناهم ومن نشاء ، وأهلكنا المسرفين (أي الكافرين) »[3].. ومواجهتهم للأزمات : لأن دعوتهم تدفع الى تغيير المجتمع في نظامه وسلوك أفراده . إذ

---

(١) الانعام : ٤٨ ، ٥٠ .

(٢) يوسف : ١١٠ .

(٣) الانبياء ، ٩ .

لا يأتي رسول إلا للتغيير ، بعد أن ينتشر الفساد والظلم والطغيان في قوم في مجتمع خاص بهم .

والرسل فيما بينهم : يفضل بعضهم على بعض : « تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض . منهم من كلم الله ، ورفع بعضهم درجات » [1] .. وهذا التفضيل تبعاً لنطاق الرسالة : في استيعابها للشريعة ، والعقيدة معاً كرسالة القرآن ، والتوراة قبله ، وفي محدوديتها بقصرها : على الدعوة الى وحدة الألوهية والى مكافحة ظاهرة خاصة من ظواهر الظلم والطغيان في مجتمع معين : كمجتمعات عاد ، ونوح ، وثمود ، ومدين .. ومع ذلك فلهم جميعاً تحية الله والمؤمنين به : « سبحان ربك رب العزة عما يصفون . وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين » [2] .

الروح :

يرى بعض المفسرين أن كلمة : «الروح » ترد في بعض آيات القرآن الكريم بمعنى : « النفس » أو القوة الخفية في الانسان ، التي تقابل البدن . ويعطي هذا البعض من المفسرين .. المثل على ذلك : فيما جاء في سورة الإسراء في قول الله تعالى : « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » [3] .

ولكن اذا استعرضنا مفهوم : « الروح » في آيات الذكر الحكيم .. نرى أنه لا يعطي هذا المعنى الذي ذهب اليه بعض المفسرين من أنه : القوة الخفية في الانسان والمدبرة لبدنه . لأنه معنى جاء به الفكر الاغريقي وعرف استعماله بين المسلمين ، بعد القرن الثالث الهجري . وإنما يعطي هذا المفهوم

---

(١) البقرة : ٢٥٣
(٢) الصافات : ١٨١
(٣) الاسراء : ٨٥

– الروح – في الكثير الغالب .. معنى : الوحي .. أو معنى : الملك الخاص الذي أرسل بالوحي ، وهو جبريل :

ففي الآية السابقة : « ويسألونـك عن الروح ... » .. يراد بالروح : الوحي . إذ بقية هذه الآية .. وكذلك ما بعدها من آيات ثلاث .. تفيد : أن الروح هنا هي وحي الله بالقرآن الكريم . نقرأ – لتوضيح ذلك – قوله تعالى : « ... قل : الروح من أمر ربي ، ومـا أوتيتم من العلم إلا قليلا . ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا اليك ، ثم لا تجد لك به علينا وكيلا (أي لا تجد لك من يقوم وكيلا ونائباً عنا في شأن الوحي واستعادته بعد أن نذهب بـه ونمحوه) . إلا رحمة من ربك ، إن فضله (أي بالوحي بالقرآن اليك وتثبيته في نفسك) كان عليـك كبيراً . قل : لئن اجتمعت الانس والجن (أي القوى الظاهرة والمرئية ، والأخرى الخفيـة التي لا تعرف في الوجود) على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً (أي سنداً وساعداً) » [1].. فالتنصيص على أن الروح من أمر الله.. واقتران ذلـك بالحديث عن علم الانسان وأنه قليل بالقياس الى علم الله ، ومصاحبة هذا .. وذاك : لذكر فضل الله بالوحي على رسوله ﷺ ، واعلان تحدي كل القوى في الوجود في أن تأتي بمثل القرآن الموحى به ، مهما تساندت واشتركت متعاونة فيما بين بعضها بعضاً .. هذا كله يرجح في وضوح : أن المعنى بالروح هنا ، هو : الوحي بالقرآن الكريم .

ونظير ذلك قوله تعالى : « ينزل الملائكة بالروح من أمره (أي بالوحي) على من يشاء من عباده: أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا ، فاتقون خلق السموات والأرض بالحق ، تعالى عمـا يشركون » [2] . وقوله : « ذلكم بأنه اذا دُعي الله وحده كفرتم (يخاطب المشركين الماديين في يوم الجزاء) وان يشرك بـه

(١) الاسراء ، ٨٥ ، ٨٨
(٢) النحل ، ٢ ، ٣

تؤمنوا ، فالحكم لله العلي الكبير . هو الذي يريكم آياته ، وينزل لكم من السماء رزقاً ، وما يتذكر إلا من ينيب. رفيع الدرجات، ذو العرش ، يلقي الروح من أمره (أي يلقي الوحي وينزله) على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق » [١] . وقوله : وآتينا عيسى ابن مريم البينات (أي الآيات والأمارات الدالة على رسالته) وأيدناه بروح القدس (أي بالوحي، بالانجيل » [٢] .

وتأتي « الروح » أيضاً بمعنى : الملك . ويقصد به جبريل عليه السلام . على نحو ما ورد في قول الله تعالى : «نزل به الروح الأمين(أي الملك جبريل) على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربي مبين » [٣] . وفي قوله : « يوم يقوم الروح (أي جبريل) والملائكة صفاً ، لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال : صواباً . ذلك اليوم الحق ، فمن شاء اتخذ الى ربه مآباً »[٤] . وفي قوله : « إنا أنزلناه في ليلة القدر (أي أنزلنا القرآن) . وما أدراك ما ليلة القدر ؟ . ليلة القدر خير من ألف شهر . تنزل الملائكة والروح (أي جبريل) فيها بإذن ربهم من كل أمر » [٥] . وفي قوله : فاتخذت (أي مريم) من دونهم حجاباً فأرسلنا اليها روحنا (أي جبريل) فتمثل لها بشراً سوياً . قالت : اني أعوذ بالرحمن منك ، ان كنت تقياً (أي متخفياً) قال : انما أنا رسول ربك ، لأهب لك غلاماً زكياً (يعني به عيسى عليه السلام) » [٦] .

... وهكذا يتردد معنى : « الروح » في آيات القرآن الكريم بين :

---

(١) غافر ، ١٢ ، ١٥
(٢) البقرة ، ٨٧
(٣) الشعراء ، ١٩٢ ، ١٩٥
(٤) النبأ ، ٣٨ ، ٣٩
(٥) القدر ، ١ ، ٤
(٦) مريم ، ١٧ ، ١٩

الوحي بالكتاب ، وملك الوحي ورسوله ، وهو جبريل . إذ الحديث عن الروح بمعنى النفس أو القوة المدبرة للبدن .. لا شأن له بالهداية الإلهية حتى يكون من تعاليم القرآن . وإنما هو من شأن الانسان عندما يفتش في ذاته : ويختلف في تحديد عناصر الذات ، حسب ثقافته ومدى ادراكه .

الاسراء :

« الإسراء » بالرسول محمد عليه الصلاة والسلام ، فيما يذكره قول الله تعالى : « سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام (في مكة) الى المسجد الأقصى (في أرض كنعان أو الشام) الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا ، أنه هو السميع البصير » .. هو نقله الى مكان الأحداث الكبرى في تاريخ الرسالة الإلهية . وهي أحداث الرسل المتتابعة الى بني اسرائيل في ارض الله التي بارك فيها ، وهي أرض كنعان أو الشام . وذلك ليكون عليه الصلاة والسلام على بينة من تحقيق وعد الله في جزائه للمؤمن والكافر بالرسالة التي يوحي بها الله الى رسله .

فقد بدئت سورة الإسراء – أو سورة بني اسرائيل ، كما تسمى أيضاً – بأمر الاسراء . والاسراء على أي نحو هو : الالتقاء مع مشاهد الأحداث الدينية التي تجسم الواقع التاريخي لسير الرسالة الإلهية في هذه الأرض المباركة. وهي أحداث امتدت في الزمن الى عدة مئات من القرون ، وفي مواجهة عدد كثير من الأنبياء والرسل ، وتقلبت بين التتبع والاضطهاد مرة ، والسيادة والسيطرة مرة أخرى : لشعب – هو شعب بني اسرائيل – تقلب بين المادية والروحية ، والكفر والايمان ، والاصرار على الخطيئة واقتراف الجريمة أحياناً عديدة ، والبعد عنها والاستكانة والرجوع الى الله حيناً آخر.

وقيل في شأن الإسراء : أنه وقع قبل الهجرة من مكة الى يثرب بسنة . ويروى عن أنس والحسن : أنه كان قبل بعثة الرسول عليه الصلاة والسلام .

كما قيل : أنه وقع في اليقظة فأسرى ، كما عرج بروحه . ويروى ذلك عن معاوية وعن عائشة . وقيل : انه كان في المنام : رؤيا رآها . ويروى ذلك عن الحسن (١) .

فاذا نقل الرسول عليه الصلاة والسلام - بالروح ، أو في الرؤيا الصادقة - الى مكان الأحداث الدينية التاريخية التي وقعت في بني اسرائيل على أرض كنعان ، وعرض عليه عظماء الرسل في تاريخ الرسالة .. عرض عليه موسى ، وعيسى ، وابراهيم ، وتتابع عليه الوحي في القرآن بأهم الأحداث التي وقعت على هذه الأرض .. فانه عليه الصلاة والسلام لا يعيش هذه الأحداث حية فقط ، وانما مع ذلك تطمئن نفسه اطمئنانا كاملا الى نصر الله اياه في رسالته ضد المعارضين من الماديين . سواء : أكانوا من المعارضين المشركين بمكة وهم أقل شأناً، أم كانوا من اليهود وقد تمرسوا على المعارضة للايمان بالروحية الانسانية التي تدعو اليها رسالة الله ، كما استمرأوا المادية وأشربوا حبها في نفوسهم وفي دمائهم ، وتوارثوها في أجيالهم العديدة . ولذا كان مصيرهم في الحياة مقترناً بالمذلة والهوان.. الى يوم البعث : « فلما عتوا عما نهوا عنه ، قلنا لهم : كونوا قردة خاسئين (أي أذلاء محتقرين) . وإذ تأذن ربك (أي إذ علم ربك ليبعثن عليهم الى يوم القيامة : من يسومهم سوء العذاب ، ان ربك لسريع العقاب ، وأنه لغفور رحيم . وقطعناهم في الأرض أمماً : منهم الصالحون ، ومنهم دون ذلك ، وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون. فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب : يأخذون عرض هذا الأدنى (أي يتمسكون بالماديات الدنيوية) ويقولون سيغفر لنا (أي ومع ذلك يدعون أن الله سيغفر لهم إتباعهم واستغراقهم في ماديات الحياة) وان يأتهم عرض مثله يأخذوه (أي ولا يتورعون عن الانغماس مرات أخرى في ماديات

---

(١) هذه أقوال وردت في تفسير الكشاف حـ ٢ ص ٤٤٢ - المطبعة الشرقية ، الطبعة الاولى القاهرة .

الحياة) وان يأتهم عرض مثله يأخـــذوه (أي ولا يتورعون عن الانغماس مرات أخرى في ماديات الحياة ان واتتهم . فاتجاههم في الحياة اتجاه مادي ، مهما ادعوا : أنهم ذاكرون الله وراجعون اليه في فترة ما . ولذلك فعقاب الله لهم بالمذلة والهوان مستمر ، طالما لم يعودوا الى الروحية الانسانية) : عسى ربكم أن يرحمكم ، وان عدتم عدنا ، وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً »)[1] .

ويروى في اسراء الله لرسوله محمد عليه الصلاة والسلام الى أرض كنعان ، عنه ﷺ ، عن أبي هريرة قوله : « لقد رأيتني في الحجر (في حجر اسماعيل بالكعبة) وقريش تسألني عن مسراي فسألتني عن أشياء لم أثبتها فكربت كربة ما كربت مثلها قط ، فرفعـــه الله إلي أنظر اليه (أي فرفع بيت المقدس أمام نظري) ما يسألوني عن شيء إلا أنبأتهم به . وقد رأيتني في جماعـــة من الأنبياء :

فإذا موسى قائم يصلي ، فإذا رجل ضرب (أي نحيف) جعــد (أي شعره مجعد) كأنه من رجال « شنوءة .

وإذا عيسى ابن مريم عليه السلام قائم يصلي ، أقرب الناس اليه شبهـاً : عروة بن مسعود الثقفي .

وإذا إبراهيم عليه السلام قائم يصلي ، أشبه الناس به صاحبكم (يعني نفسه عليه السلام) .. فحانت الصلاة فأممتهم . فلما فرغت من الصلاة قال قائل : يا محمد ! : هذا مالك ، صاحب النار ، فسلم عليه : فالتفت اليه فبـــدأني بالسلام »[2] .. وهذا المشهد للرسل الثلاثة العظام ، مع إمامة الرسول محمد عليه الصلاة والسلام لهم في الصلاة : ينوه بمكانته أولاً بين الرسل جميعاً ، كما

---

(١) الاعراف ، ١٦٦ — ١٦٩

(٢) في رواية مسلم في كتاب الايمان — التاج ج ٣ . ص ٢٧٥ — ٢٧٦

يبرز . ثانياً : أن رسالة القرآن باكتمال دين الله بها.. تنتهي بها أدوار الرسالة الإلهية الى البشرية .

فاذا نزل الوحي في القرآن – بعد اسراء الرسول عليه الصلاة والسلام بالروح ، أو في الرؤيا الى أرض كنعان – بأحداث رسالة موسى والأنبياء والرسل بعده الى بني إسرائيل ، وبالأخص رسالة عيسى اليهم ، كما تقصه سورة الاسراء هنا .. فإن ما نزل الآن يكون له من قوة الأثر في النفوس للمشاهد المرئية على هذه الأرض ، التي تعكس بدورها حياة اليهود المتقلبة ، وما جزاهم الله به من حسنات، وما أوقعه بهم من عقوبات، انتهت بتشريدهم في الأرض واذلالهم على يد أقوياء يسومونهم سوء العذاب الى يوم القيامة .

وتجسيد تاريخ الارض المباركة حينئذ كفيل بإيقاظ البشرية والسادرين في طغيان المادية ، وبإعادة المجتمع الانساني الى صراط الله ، وهو الصراط المستقيم .. صراط الهداية البشرية ، ان شخصته الابصار في موضوعية وفي غير تحزب :

فقد ذكر الوحي في القرآن : كتاب الهداية البشرية لبني إسرائيل ، وهو كتاب موسى ، أو التوراة ، أو صحف موسى . وركز فيه على أنه لا ينبغي لهم اطلاقاً أن يكون لهم سند في الحياة سوى الله جل جلاله . فليس مما في هذه الحياة من أموال ومتع مادية ، ولا ما فيها من أولاد ، ولا ما لها من مظاهر الجاه والقوة .. يصح أن يتخذ وكيلا ونائباً عن الله ، بحيث ينصرف إيمانهم الى ما سواه ، ويقصر اعتمادهم على غيره ، مما في هذه الحياة الدنيا : « وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني إسرائيل : ألا تتخذوا من دوني وكيلا »[1] .. ولكنهم ترددوا بين الايمان والكفر ، وبين الانصراف عن الله سبحانه ، والرجوع اليه . وقد سجل تاريخهم مع الرسالة الإلهية حقبتين

---

(١) الاسراء : ٢

رئيسيتين تمثلان العصيان والانصراف عن الايمان بالله ، تحت التأثر بالمادية واتجاهها في الحياة ، حتى لم ينالوا فيها من الرسالة فحسب ، وانما نالوا أيضاً من الرسل الذين كرروا الدعوة فيهم اليها : « وقضينا الى بني إسرائيل في الكتاب (أي أوحينا الى بني إسرائيل في التوراة) لتفسدن في الارض مرتين ، ولتعلن علواً كبيراً (أي وليشتد طغيانكم بما يكون لديكم آنئذ من قوة مادية وعددية) » [1] .

الحقبة الأولى : هي تلك الحقبة التي أنذرهم فيها : النبي زكريا.. بعقاب الله على فسادهم وعبثهم ، وبعدهم عن الايمان بالروحية الانسانية التي يحمل عليها الايمان بالله . ولم يأبهوا لإنذاره ، واستمروا في غيهم وضلالهم وتحديهم ، وقتلوا نبيهم هذا . فسلط الله عليهم البابليين على عهد بختنصر سنة ٥٨٦ قبل الميلاد ، ودخلوا عليهم بلادهم وبيوتهم ، واقتحموا معبدهم الذي بناه سليمان وهو بيت المقدس ، وأتم بناءه سنة ١٠٠٤ ق.م. وساقوا رجالهم ونساءهم في الأسر . وأصبحوا بهذا الغزو مغلوبين على أمرهم ، أذلاء في أسرهم وبعدهم عن ديارهم : « فاذا جاء وعد أولاهما (أي حل وعد المرة الاولى في عقابهم من قبل الله) بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد (وهم البابليون قادمون من العراق وقد كانوا أصحاب بطش فيقوتهم المادية فسلطهم الله عليهم) فجاسوا خلال الديار (أي دخلوا الديار واقتحموها كما اقتحموا معبد سليمان وهدموه) وكان وعداً مفعولاً (أي وبذلك تحقق وعد الله لبني إسرائيل بعقابهم على كفرهم وماديتهم) » [2] .

وبعد هذا الأسر والاذلال ، عقوبة لهم من الله ، أعطاهم فرصة ثانية ومكنهم منالعودة من الأسر عند البابليين .. الى أوطانهم في كنعان سنة ٥٢٠ قبل الميلاد . أي بعد أكثر منستينعاماً على الأسر والبعد عن الديار . ويذكر

---

(١) الاسراء : ٤
(٢) الاسراء ٥

القرآن الكريم قصة هذا التمكن من استرداد سيادة أنفسهم في سورة البقرة ، فيما تذكره هذه الآيات : « ألم تر الى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم (هو صمويل) : ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله قال : هل عسيتم ان كتب عليكم القتال : أن لا تقاتلوا ؟ قالوا : وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا ؟ فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهم والله عليم بالظالمين .. الى أن يقول : فلما فصل طالوت بالجنود (أي خرج بهم متجهاً نحو بابل ، وطالوت هو الملك الذي عينه صمويل) قال : ان الله مبتليكم بنهر ، فمن شرب منه فليس مني (أي ليس من جنودي ومن رفاقي في القتال) ومن لم يطعمه فإنه مني ، إلا من اغترف غرفة بيده ، فشربوا منه إلا قليلاً منهم ، فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا : لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده (لأنهم رأوا أعداءهم كثيرين بعددهم ، وأقوياء بعدتهم تحت إمرة جالوت) قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله : كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين . ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا : ربنا افرغ علينا صبراً ، وثبت أقدامنا ، وانصرنا على القوم الكافرين . فهزموهم بإذن الله وقتل داود (وقد ظهر بشجاعته بين جنود طالوت) جالوت ، وآتاه الله (أي آتى داود): الملك ، والحكمة ، وعلمه مما يشاء ، ولولا دفع الله الناس : بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، ولكن الله ذو فضل على العالمين » [1] .

وتجمل آية الاسراء : « ثم رددنا لكم الكرة عليهم ، وأمددناكم بأموال ، وبنين ، وجعلناكم أكثر نفيراً (أي عدداً) [2] .. أمر استرداد بني إسرائيل هذه السيادة لأنفسهم ، وتحررهم من البابليين ، وعودتهم الى القوة المادية من أموال ، وبنين ، من جديد ، بعد الاذلال في الأسر والبعد عن الديار والأبناء .

---

(١) البقرة : ٢٤٦ — ٢٥١

(٢) الاسراء : ٦

فابتدأوا الحياة وأعادوا بناء المعبد ، ونفذوا عدة اصلاحات ، وبنوا اليهودية من جديد . وذلك على أمل : أن يرجعوا الى الله ويلتزموا بالسلوك الانساني السوي . وعندئذ يحسنون فقط الى أنفسهم وحـدهم : « إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم ، وإن أسأتم فلها » .

والحقبة الثانية : وهي حقبة الخطيئة الأخرى .. خطيئـة رفض رسالة عيسى والقصد الى قتله . فجازاهم الله على هذه الخطيئة باحتلال الرومان تحت زعامة تيتوس Titus ابن الامبراطور فيبسيان Vepasian سنة ٧٠ بعد الميلاد ، لديارهم . فحطم مصادر ثروتهم وقوتهـم التي حصلوها بعد عودتهم من أسر البابليين ، ودخل معبد سليان وهدمه هدماً كاملاً ، بعد أن أعيد بناؤه مرة قبل ذلك في عهد هيرود سنة ١٧ ق.م. من خلفـاء الاسكندر : « فإذا جاء وعد الآخرة (أي فإذا حل موعد العقوبة الثانيـة) ليسؤوا وجوهكم (أي سلطنا عليكم أعـداءكم ليشوهوا وجوهكم . ويقصد بتشويه الوجوه هنا : تحطيم كل مصادر القوة) وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة (أي وليدخلوا المعبد الذي أقيم المسجـد الأقصى على طرف منه بعد فتح عمر بن الخطاب لأرض كنعان المباركة) وليتبروا ما علوا تتبيراً (أي وليزيلوا كل ما ارتفع من أبنية ازالة كاملة) » [١] .. وبتحطيم مصادر الثروة ، وبهدم المعبد هدماً كاملاً ، تلاشى ما كان يملكه بنو إسرائيل في أرض كنعان من قوى ماديـة ومعنوية ، وأصبحوا شتيتاً كأقليـة بين الشعوب الاخرى . ولكن ما زال هناك أمل لهم في رحمة الله ، ان هم اتبعوا رسالة محمد عليه الصلاة والسلام : « عسى ربكم أن يرحمكم (أي لعل الله يهديكم الصراط السوي عن طريق إيمانكم بالقرآن وبذلك يرحمكم الله) وإن عدتم عدنـا (أي وان عدتم الى الخطيئة فكفرتم برسالة محمد بن عبدالله عليه الصلاة والسلام ، كما كفرتم برسالة زكريا ، وبرسالة عيسى من قبـل .. عدنا الى عقوبتكم وتسليط أعدائكم

---

(١) الاسراء : ٤

عليكم) » [1] .. فرسالة القرآن هي رسالة الهــداية للطريق الأقوم ، في الوقت الذي يبشر فيه المؤمنين به والذين يعملون الصالحات : بالأجر الكبير في الآخرة ، بينما ينذر الذين يكفرون به وبالآخرة وهم الماديون : بالعـذاب الأليم : « إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات : ان لهم أجراً كبيراً . وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة : أعتدنا لهم عذاباً أليماً » [2] .

* * *

إن الاسراء هو سبيل آخر من سبل الدعوة الى القرآن الكريم .. وسبيل آخر كذلك الى اطمئنان الرسول عليه الصلاة والسلام وتحمله في شأن دعوته الى الحق .. وسبيل آخر أيضاً الى التنويه بأمره – عليه السلام – فيمستوى النبوة والرسالة وفي تاريخ الدعوة الى دين الله .

وان العبرة التي تستخلص من الوقائع والأحداث التاريخيـة التي تمت على أرض كنعان التي بارك الله فيها في بنى إسرائيل .. هي عبرة حية ، وتعطي المبدأ الصادق الذي لا يتخلف وهو : أن الايمان بالله وحده ، وهو وحده : مصدر النجاة ، ومصدر النصر والغلبة في هذه الحياة: « قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله : كم من فئــة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين » .

والمسلمون – على عهد عمر رضي الله عنـه – عندما دفعوا قوى الرومان الطاغية من أرض كنعان المباركة الى خارجهــا : لم يدفعوها إلا بإيمانهم بالله وحده ، فإذا أراد المسلمون اليوم استعادتها من أصحاب المادية اليهود .. فلا

---

(١) الاسراء : ٨

(٢) الاسراء : ٩ ، ١٠

يستعيدونها: لا لأنهم من أبناء هذه الأرض المباركة يوماً ما، ولا لأنهم أصحاب عتاد ثقيل أو خفيف في القتال، ولا لأنهم دربوا على حرب العصابات، ولا لأنهم ماركسيون أو علمانيون، ولكن فقط: لأنهم مؤمنون بالله.

والايمان بالله ليس سحراً. ولكنه: إخلاص في سبيل المثل العليا، وانكار للذات، وصبر وتحمل، وتضحية بكل متعة في الحياة — حتى بالحياة نفسها.

ليس من مصلحتنا اليوم في الصراع مع اسرائيل: أن نعدد لها التهمة تلو التهمة، ونظل محجبين عن عوامل الضعف فينا. يجب أن نكشف عن عيوبنا أولاً، لنبعدها عن أنفسنا في هذا الصراع.. يجب أن نستوثق بأننا مع الله، قبل أن نستوثق من مناصرة هذه الكتلة المادية أو تلك الكتلة الأخرى المادية أيضاً لحقنا بالقوة المادية أو المعنوية.. يجب أن نسلك طريق الايمان بالله ونتصرف فيه على ما ينبغي أن نفعله، وما ينبغي أن لا نفعله، قبل أن نعلن التبعية لهذا الفريق أو ذاك وهم جميعاً من أعداء الله.

ان الصهيونية شر وبلاء وقد ساعدها الشيطان الأحمر والأبيض على السواء. فهل ناشدنا نحن عون الله وتأييده؟

الافـــك:

يقول الله تعالى: « ان الذين جاءوا بالافك (أي اتهام عائشة رضي الله عنها في عرضها) عصبة منكم (أي مجموعة منكم) لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم، لكل امرىء (أي ممن شارك فيه) ما اكتسب من الإثم، والذي تولى كبره منهم (أي الذي باشر النصيب الاوفر في اختلاقه وترويجه) له عذاب عظيم. لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً، وقالوا: هذا افك مبين. لولا جاءوا عليه بأربعة شهـــداء، فاذا لم يأتوا بالشهداء فاولئك عند الله هم الكاذبون. ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة، لمسكم فيما أفضتم فيه: عـــذاب عظيم. إذ تلقونه بألسنتكم،

وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم ، وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم . ولولا إذ سمعتموه قلتم : ما يكون لنا أن نتكلم بهـــذا – سبحانك – هذا بهتان عظيم » [1] .. هذه الآيات تعرض لحادث الافك في حق السيدة عائشة رضي الله عنها وقد وقع في السنة الخامسة بعد الهجرة ، اثر العودة من غزوة بني المصطلق . فعندما تقرر الأمر بالرحيل للمسلمين لم تكن السيدة عائشة في هودجها ، لأنها ذهبت لتبحث عن عقد لها كانت نزعتـــه . ولم يلاحظ عند الرحيل : انها لم تكن بالهودج إذ كان مغلقاً ، حتى وصلت القافلة الى الموقف التالي بالطريق . وفي الاثناء وجدت عائشة أن القافلة رحلت فجلست لتستريح ، على أمل : أن يعود أحد ليأخذها عندما تلاحظ غيبتها . حتى جاء الليـــل ونامت . وفي غداة اليوم التالي وجدها أحد المهاجرين – ويقال : انه صفوان ابن المعطل – وهو على جمله . فنزل وأركبها وسار على قدميه يقود الجمل .

هذا الحادث أعطى فرصة للأعداء من المنافقين للتقول في شأنها بغير حق . ويقال انه كان على رأس المتقولين « عبدالله بن أبي . إذ عندما مر صفوان عليه بهودج عائشة وهو في جماعة من قومه قال : من هذه ؟ فقـــالوا : عائشة . فقال : والله ما نجت منه ، ولا نجا منها (وهذا كناية عن اتصال بعضهما ببعض) ، وقال : امرأة بينكم باتت مع رجل حتى أصبحت ، ثم جاء يقودها .

وفي عرض آيات القرآن لهذا الحادث قيمته : بأنه ليس شراً بالنسبة لمن أسيء اليهم . ومن أسيء على وجه الخصوص : هو الرسول عليـــه الصلاة والسلام ، وأبو بكر ، وعائشة وصفوان . بل رأت الآيات القرآنيـــة فيه خيراً : « لا تحسبوه شراً لكم ، بل هو خير لكم » .. لأنه اتضح أولاً : أنه افتراء مبالغ فيه ، كما كشف عن أعداء مستترين تحت عنوان الايمان ، يضمرون عداءهم : للدعوة ولصاحبها عليه الصلاة والسلام .

---

(٢) النور : ١١ – ١٦

وفي سبيل كشف الافتراء ، والعداوة المقنعة بالأيمان .. أوحى الله بقوله: « لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً ، وقالوا : هذا افك مبين . لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء ، فإذا لم يأتوا بالشهداء ، فأولئك عند الله هم الكاذبون » .. والمعنى : ألم يكن الأولى بكم – أيها المؤمنون – أن تكون لديكم في أنفسكم صورة خيرة عن علاقات بعضكم ببعض تدفع من أول الأمر : هذا الكذب ، وتعلنون على رؤوس الاشهاد : أنه افتراء واضح ؟ وألم يكن لديكم علم بأن مثل هذا الأمر – وهو القذف والإتهام في العرض – لا يثبت إلا بأربعة شهداء ؟ فاذا لم يكن هناك شهداء فهو كذب في ذاته ، وناقلوه كذلك من الكاذبين ؟

ثم وجه القرآن الى مروجي هذا الافك : أنهم ارتكبوا في ذلك ثلاث جرائم عندما يقول : « إذ تلقونه بألسنتكم ، وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم ، وتحسبونه هيناً ، وهو عند الله عظيم » ..

الأولى : أنهم ينطقون بما لا يعلمون حقيقته ،

والثانية : أنهم يرددونه ، وينقله بعضهم عن بعض ، وبذلك يشيعونه بين الناس ،

والثالثة : أنهم يظنون : أن هذا الاتهام أمر هين . ولكن في واقع أمره هو عظيم عند الله . وكان الأجدر بهم عندما سمعوه أن يقولوا : لا ينبغي لنا أن نتكلم بهذا .. انه بهتان عظيم .

فمفهوم الافك إذن : أنه ليس كذباً في مستوى عادي . انه اتهام مختلق ، واضح في اختلاقه .. إنه بهتان لا يشعر به الانسان حتى يفاجأ به . وعلى هذا النحو ما جاء على ألسنة المشركين المكيين الماديين في اتهام القرآن بالافك: في قول الله تعالى : « وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا : ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم . وقالوا : ما هذا الا افك مفترى ،

وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم : ان هـــذا إلا سحر مبين »[1] .. وفي قوله : « الذي له ملك السموات والأرض ، ولم يتخـــذ ولداً ، ولم يكن له شريك في الملك ، وخلق كل شيء فقدره تقديراً . واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئـاً وهم يخلقون ، ولا يملكون لأنفسهم ضراً ، ولا نفعـــاً ، ولا يملكون موتاً ، ولا حياة ، ولا نشوراً . وقال الذين كفروا : ان هـذا إلا افك افتراه، وأعانه عليـه قوم آخرون ، فقد جاءوا ظلماً وزوراً »[2] .. وهكذا ان كانت المبالغة أو التطرف في الكذب عنصراً في مفهوم الافك .. فالعنصر الآخر هو : وضوح كذبه وعدم وجود أساس له .

(١) سبأ : ٤٣
(٢) الفرقان : ٢ – ٤

جـ ـ في دائرة المخلوقات

الجن – والملك – والشيطان – والانسان

الجن ـ والملك ـ والشيطان ـ والانسان

في القرآن الكريم :

الجن من مخلوقات الله ، مقابل الانس الذي هو من مخلوقاته كذلك . فاذا كان الانس معهوداً ومرئياً مشاهداً . فالجن غير معهود للبشر ، وغير مرئي ومشاهد لهم . والانس ان كانت طبيعته من طين ، فالجن طبيعته من نار : « خلق الأنسان من صلصال كالفخار (أي من طين يابس) . وخلق الجان من مارج من نار (أي من نار صافية لا دخان لها) »[1] . « ولقد خلقنا الانسان من صلصال من حمأ مسنون (أي من طين يابس أسود متغير) . والجان خلقناه من قبل من نار السموم (أي النار التي لا دخان لها) »[2] .

وكل من الجن والانس خلق لعبادة الله وطاعته : « وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون . ما أريد منهم من رزق ، وما أريد أن يطعمون »[3] . والمراد بعبادة الله : طاعته ، والخضوع له ، وعدم عصيان أمر له .

والجن اذا كان هو غير المعهود من المخلوقات للبشر ، وغير المرئي والمحس لهم ، فيطلق أيضاً على : الملائكة ، ويطلق على إبليس الذي هو أيضاً واحد من الملائكة ، كما يطلق على الشياطين الذين هم جنود إبليس ، ويطلق كذلك على كل غير المعهود والغرباء من البشر :

---

(١) الرحمن : ١٤ ، ١٥

(٢) الحجر : ٢٦ ، ٢٧

(٣) الذاريات : ٥٧ ، ٥٨

١ – يطلق على الملائكة على نحو ما يقول الله تعـالى : « وإذ قال ربك للملائكة : إني خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون . فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين . فسجد الملائكة كلهم أجمعون . إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين. قال يا إبليس ما لك أن لا تكون مع الساجدين؟. قال: لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون » [١] .. فهذا الاستثناء يدل على : أن إبليس من الملائكة . ولكنه خرج عن طاعـــة الله بعدم سجوده لآدم الذي هو أب البشر هنا في هذه الآيات . كما جاء في سورة الأعراف في قوله : « ولقد خلقناكم ، ثم صورناكم ، ثم قلنا للملائكة : اسجدوا لآدم فسجدوا ، إلا إبليس لم يكن من الساجدين . قال : ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك ؟ قال : أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين » [٢] .

وجاء قوله تعالى في الحديث عن الملائكة : وجعلوا (وجعل المشركون المكيون) بينه (أي بين الله) وبين الجنة نسباً (والجنة هنا هم الملائكة بدليل قوله قبـــل هذه الآية : فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون ؟ . أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون ؟ . الا أنهم من افكهم ليقولون . ولد الله وأنهم لكاذبون) ولقـــد علمت الجنة (أي الملائكة) إنهم لمحضرون (أي واردون جهنم. والمقصود بهم هم هؤلاء المشركون الذين تقولوا على الله سبحانه بأن الملائكة أولاده وأنه بين الله وبينهم من أجل ذلك نسب ومصاهرة) »[٣].

وشأن ابليس مع الملائكة ، كشأن الكافر مـــع المؤمنين بالله في دائرة البشر. فالكافر برفضه الايمان بالله لا يخرج عن كونه واحداً من الناس والبشر ولكنه من عصاتهم فحسب . وكذلك ابليس بعصيانه الله في عـدم السجود لآدم لم يخرج عن كونه واحداً من أفراد الملائكة عداه الذين بقوا في طاعة

---

(١) الحجر : ٢٦ ، ٢٧
(٢) الاعراف : ١١ ، ١٢
(٣) الصافات ، ١٥٨

الله ولكنه عاص آثم . ثم قــد جاء في آية من آيات القرآن اطلاق الجن على ابليس ، في قول الله تعالى : « وإذ قلنا للملائكة : اسجدوا لآدم فسجدوا إلا ابليس كان من الجن ففسق عن أمر ربــه (أي فخرج بعصيانه عن طاعة ربه) أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني ، وهو لكم عدو ؟ بئس للظالمين بدلاً » [1] .. قد جاء اطلاق القرآن على ابليس هنا بأنه من الجن وقد عرف من قبل – عن طريق الاستثناء – بأنه أحد الملائكة .. فالملائكة إذن يطلق عليهم الجن . ولكنهم من الجن الخيرين الذين أطاعوا الله ، بينما ابليس أصبح مصدر الشر في حياة الانسان .

وهنا إذا قالت هذه الآية : « الا ابليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه » .. لا تستهدف أنـه بفسقه وعصيانه وخروجه عن أمر الله أصبحت ذاته الآن ليست من ذوات الجن، وأنها تحولت بذلك من طبيعة الجن النارية الى طبيعة أخرى ، وهي طبيعة الطين والتراب التي للانسان . إذ ليس هناك في عالم الصراع بين الخير والشر إلا طبيعتان : خلق الله إحداهما من صلصال كالفخار وهي طبيعة الإنس ، وخلق ثانيتهما من مــارج من نار وهي طبيعة الجن . وإذا تحولت طبيعة إبليس بعصيانه ربه من نار الى طين ، أصبحت هـــذه الطبيعة مشاهدة ومرئية ، وأصبحت معهودة للناس كما هي معهودة ذواتهم لبعضهم بعضاً . ولكن الآية تقصـــد فحسب : أنّ ابليس اصبح بالعصيان : مصدر شر ، ولم يبق على الطبيعة الخيرة التي هي الملائكة .

والملائكة الآن من الطبائع النيرة او النارية ، وأنها في طاعـــة الله ، وانها يطلق عليها اسم الجن .. أي من مخلوقات الله غير المعهودة وغير المرئية والمشاهدة ، وما جاء في سورة : سبأ من قول الله تعالى : « وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها : إنا بما ارسلتم به كافرون . وقالوا : نحن

---

(١) الكهف ، ٥٠ .

أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين .. إلى أن يقول سبحانه : ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة : أهؤلاء اياكم كانوا يعبدون . قالوا سبحانك ! أنت ولينا من دونهم ، بل كانوا يعبدون الجن ، أكثرهم بهم مؤمنون »[١] .. لا يجعل: الجن قسماً مقابلاً للملائكة ولا من طبيعة مستقلة غير طبيعتهم . وانما قصد بالجن هنا : الأشرار من القوى الخفية غير المعهودة من الشياطين وهم جنود إبليس . والمقابلة هنا ليست مقابلة طبائع . بل هي مقابلة عمل : عمل يتسم بالخير وهو عمل الملائكة . وعمل آخر يتسم بالشر وهو عمل شياطين الجن . والملائكة ينفون عنهم صلتهم بالكافرين المترفين وبانحرافاتهم مرتين: مرة بتأكيد أن اتجاههم لطاعة الله . وأخرى بتحديد مصدر الشر الذي تسلط على هؤلاء المترفين ، وهو شياطين الجن .

٢ – والجن يطلق أيضاً : على إبليس ، وعلى جنوده من شياطين الجن . وإبليس نفسه شيطان . كما يقول الله تعالى : « فأزلهما الشيطان عنها (أي حمل آدم وحواء على الزلل والسقوط) فأخرجهما مما كانا فيه (أي وبذلك سبب لهما خروجهما من الجنة الى الأرض) »[٢] .. كما تقول آية أخرى : « يا بني آدم : لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة »[٣] .. فهذه الآية الثانية تنصح أولاد آدم – وهم الناس جميعاً – بعدم الوقوع تحت غواية الشيطان الذي هو إبليس . وتعلل ذلك بأن إبليس هو الذي أغوى آدم وحواء، وحملهما بغوايته على الاقتراب من الشجرة التي منعا من الله من الاقتراب منها . فابليس أو الشيطان من الجن .

وجنود إبليس : شياطين . وهم من الجن اذا لم يحسوا ويشاهدوا كأهواء

---

(١) سبأ : ٣٤ – ٤١
(٢) البقرة : ٣٦
(٣) الأعراف : ٢٧

الانسان وشهواته ، أو إذا لم يعرفوا بأشخاصهم على التحديــد وإن عرفوا بآثارهم في الشر والمكايد ، كالمترفين والمستكبرين في المجتمع البشري . وقــد يكونون من الأنس اذا عرفوا بأشخاصهم على أنهم مصدر شر . وآية القرآن الكريم فيما تقوله: « فكبكبوا فيها هم والغاوون (أي طرح أصحاب الوثنية المادية والضالون عن هدايـــة الله في نار جهنم) . وجنود إبليس أجمعون (وهم الشياطين كلهـم من : أنس ، وجن » [1] .. تجمع بين نوعى الشيطان من جن ، وأنس معـــاً في دخولهم جهنم ، كعقاب على غوايتهم واضلالهم للانسان .

٣ – وقد يطلق الجن على فريـق خير من الناس ، غريب وغير معهود . ولأنه غريب وغير معهود كان بمثابـة غير المحسوس وغير المرئي . يقول الله تعالى : « وإذ صرفنا اليـــك نفراً من الجن يستمعون القرآن ، فلما حضروه قالوا : أنصتوا ، فلما قُضِيَ ولوا الى قومهم منذرين . قالوا : يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى ، مصدقاً لما بين يديه ، يهدي الى الحق والى طريق مستقيم . يا قومنا: أجيبوا داعي الله ، وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم، ويجركم من عذاب أليم . ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجـــز في الأرض ، وليس له من دونه أولياء ، أولئك في ضلال مبين » [2] .. فهذا النفر مـن الجن الذي أنصت للقرآن الكريم بمكة يقـال : أنه قدم اليها من « يثرب » قبل الهجرة بسنتين. وبعد ايمانه أخذ على عاتقه الدعوة الى دين الله بين قومه، بعد أن عاد من الحج الى يثرب ثانيـة . ويقال : انه هو نفسه الفريق الذي ذكر فيسورة الجن ، في قوله تعالى : « قل : أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا : إنا سمعنا قرآناً عجباً ، يهدي الى الرشد فآمنا به ، ولن نشرك

---

(١) الشعراء : ٩٥ .
(٢) الأحقاف : ٢٩ ، ٣٢

بربنا أحداً » [1].. وأطلق على هذا النفر اسم: الجن ، لأنه كان غير معروف بين المكيين وكان غريباً عن مجلس الرسول عليه الصلاة والسلام وهو بمكة . ومن هذا النفر – يقال أنه – تكونت نواة « الأنصار » بالمدينة . والرسول عليه الصلاة والسلام عندما هاجر الى يثرب بعد ذلك بسنتين لم يهاجر اذن اليها في فراغ ، وإنما هاجر الى أحباء آمنوا به من قبل وبرسالته ، وبشروا بها ودعوا اليها جادين قبل أن يهاجر هو وصحبه .

وإذا لم يرد باسم : الجن ، هنـا .. هذا الفريق الخير الغريب غير المعهود من أهل يثرب ، فانه يقال : كيف : يكون إيمانهم بالقرآن ؟ وكيف تكون معرفتهم بالتوراة قبله ؟ : « إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى ، مصدقـاً لما بين يديه : يهدي الى الحق ، والى صراط مستقيم » . انهم عرفوا ما لموسى من جوار اليهود بالمدينة : من أهـــل خيبر ، أو من بني النضير . وأنهم لو كانوا ملائكة من القوى الناريـــة أو النورية ، كيف يأخذون على عاتقهم التبشر بالاسلام بين قومهم ؟ . إن الملائكة قد اختبروا فعلاً – قبل أن يختبر آدم وحواء – ، في طاعتهم لله : اختبروا عندما أمرهم الله بعد خلق آدم.. بالسجود له ، فسجدوا إلا واحداً منهم ، هو ابليس . وآنئذ عرف المطيع والمؤمن ، والفاسق والعاصي منهـــم ، فكانوا جميعاً مطيعين ، عدا ابليس فعصى وغوى .

على أن رسالة الله بالاسلام جاءت لهداية آدم وذريته وحدهم على الأرض ، بعد أن أخفق آدم في تجربة استقلاله بالعقل الذي ميزه الله به في تصويره.. على الملائكة ، عندما امتحنه الله بعدم الاقتراب من الشجرة المعينة في الجنة ، تلك الشجرة التي حرمها عليـــه وعلى زوجه : حواء : كما ذكر في قوله : « ويا آدم : اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ، ولا تقربـا

---

(١) الجن ، ١ ، ٢

هذه الشجرة فتكونا من الظالمين . فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما وُوري عنهما من سوآتهما (أي ليبدي لهما نقائصهما) وقال : ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين ، أو تكونا من الخالدين . وقاسمهما : اني لكما لمن الناصحين . فدلاهما بغرور ، فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة (أي ظهر لهما نقصهما وهو عدم استقلالهما في الهداية بالعقل البشري الذي ميزا به ، وحاولا أن يسترا خجلهما من هذا الخطأ الذي ارتكباه عند مواجهة الله لهما) وناداهما ربهما: ألم أنهكما عن تلكما الشجرة ، وأقل لكما : ان الشيطان لكما عدو مبين ؟. قالا : ربنا ظلمنا أنفسنا ، وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين . قال : اهبطوا : بعضكم لبعض عدو ، ولكم في الأرض مستقر ومتاع الى حين (أي أنتما ومن جاء من ذريتكما ، والشيطان وجنوده : بعضكم لبعض عدو على الأرض مدة استقراركم عليها ، وتمتعكم بخيراتها الى حين . وهو حين فناء هذه الأرض ، وحين بعثكم منها الى يوم الجزاء) . قال : فيها تحيون ، وفيها تموتون ومنها تخرجون »[1] .. فهذه الآيات تذكر : أن خروج آدم وحواء من جنة الله الى الأرض عداها ، كان بسبب عصيانهما ما نهاهما الله عنه ، وتحت تأثير غواية الشيطان . والعقل الذي ميزا به من قبل الله ، وهو ما يدل عليه التعبير : بالتصوير – بعد الخلق – في قوله تعالى : « ولقد خلقناكم ، ثم صورناكم »[2] وهو ما بسببه أيضاً طلب الله من الملائكة أن تسجد لآدم : « ثم قلنا للملائكة : اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين »[3] .. هذا العقل الإنساني لم يستطع وحده أن يحول دون غواية الشيطان وتأثير هذه الغواية على آدم وحواء في دفعهما الى الاقتراب من

---

(١) الأعراف : ١٩ ، ٢٥

(٢) الاعراف : ١١

(٣) تكملة الآية السابقة

الشجرة. ولذا — بعد هذه التجربة — كان الانسان في حاجة الى هداية إلهية بجانب العقل فيه .. أي بجانب الادراك الذي منفذه : السمع ، والبصر ، كما في قوله تعالى: « هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً. إنا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج (أي من نطفة مختلطة من الذكورة والأنوثة . وهذه هي المادة في تكوينه) نبتليه ، فجعلناه سميعاً بصيراً (أي ولكن لأن الهدف من خلق الانسان هو ابتلاؤه واختباره ، زود بالسمع وبالبصر : منفذي الادراك والعقل) . إنا هديناه السبيل : إما شاكراً ، وإما كفوراً (أي ولكونه لم يستطع أن يستقل في الهداية بإدراكه وعقله — كما كان في تجربة آدم وحواء في الجنة — كانت هداية الله في رسالة رسله للانسان على الأرض في صراعه مع الشيطان وغوايته . والانسان بعد هذه الرسالة التي تبلغ إليه : إما أن يشكر الله على نعمته عليه فيؤمن به ، او يجحد هذه النعمة فيكفر به) [1] .

ولتأكيد اخفاق آدم في تجربة استقلاله بالعقل في الهداية ، وتأكيد حاجته الماسة الى هداية الرسالة الإلهية له مدة إقامته على الأرض .. الى يوم البعث والجزاء في صراعه مع الشيطان وهو ابليس وغوايته .. كان أول نداء من الله جل شأنه الى البشر اتجه الى أن يلفت فيه نظر الناس : الى غواية الشيطان في حياتهم الأرضية : « يا بني آدم : لا يفتننكم الشيطان ، كما أخرج أبويكم من الجنة ، ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما (أي يكشف ما بهما من عيب ونقص ، وهو عيب عدم استقلال العقل بالهداية في التوجيه) انه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم (إذ هو قوة خفية) ، إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون » [2] . وفي الآية السابقة على هذه الآية يذكر القرآن

---

(١) الانسان ، ١ ، ٣

(٢) الاعراف : ٢٧

الكريم : منة الله على الانسان في تزويده بالعقل، إذ تقول هذه الآية السابقة : « يا بني آدم قد أنزلنا عليكم : لباساً يواري سوآتكم ، وريشاً، ولباس التقوى ذلك خير ، ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون » [١] .. فقد عبرت هذه الآية عن العقل باللباس الذي يستر عيب الانسان . لأن العقل من شأنه أن يوجه الانسان الى ما يميز سلوكه عن غيره ويهديه سبل السلام ، وبذلك لا يظهر له خطأ ، او يقل خطأه .

ثم كان النداء القرآني الآخر بعد ذلك في اعلام الناس برسالة الرسل من قبل الله ، ومـا يجب عليهم من موقف يقفونه نحوها ، من : الأخذ بهداية الرسالة : « يا بني آدم : اما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي ، فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون. والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها ، أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » [٢] .. وفي تعبير الآية الأولى من هاتين الآيتين بأن رسل الله هي من البشر ، وانها مرسلة الى البشر : تقص هداية الله : « اما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي » .. وفي التعبير بهذا ما يجعل الملائكة او القوى النارية على العموم كالجن ، في بعد عن محيط الرسالة ، وعن التكليف بالهداية الإلهية .

فإرسال الرسل من البشر ، والى البشر وحدهم ، يفيد : ان الايمان بهداية الله والكفر بها : من خواص البشر وحدهم .. أي من خواص تلك الطبيعة المركبة من المـادة والروح ، او المركبة من الطين والاعداد بالسمع والبصر — منفذي الادراك والعقل — وليس من شأن تلك الطبيعة الاخرى معها في الوجود . وهي تلك الطبيعة المفردة التي خلقت من نار، وهي طبيعة الملائكة، والجن على السواء .

---

(١) الاعراف : ٢٦

(٢) الاعراف : ٣٥ ، ٣٦

وتركيب الطبيعة البشرية يدل عليه في وضوح مثل قوله تعالى : « الذي (أي الله الذي) أحسن كل شيء خلقه ، وبدأ خلق الانسان من طين ، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين . ثم سواه ونفخ فيه من روحه ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ، قليلا ما تشكرون (أي بالهداية والايمان) »[1] . فالجزء المادي في الانسان كان الطين أولاً ، ثم الماء المهين بعد ذلك . والجزء الروحي هو ما عبر عنه : بالتسوية والنفخ فيه من روح الله ، وتزويده بالسمع والبصر والفؤاد : « ثم سواه ونفخ فيه من روحه ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة » .

وإذن : النفر من الجن الذي استمع الى القرآن في مجلس الرسول عليه الصلاة والسلام وهو بمكة قبل الهجرة وآمن به ، ثم أخذ على عاتقه مسئولية الدعوة اليه .. هذا النفر ليس من القوى الفردية غير المركبة .. أي ليس من القوى النارية التي هي الملائكة او الجن على السواء . وقريب أن يكون من البشر . ولكن لأنهم غير معهودين وغرباء كانوا بمثابة الجن في التستر وعدم الإفصاح عن هويتهم . وهذا النفر من الجن هو الذي أشار اليه القرآن في الأحقاف ، وكذلك في سورة الجن .

والقرآن باشارته الى هذا النفر الغريب عن أهل مكة يريد أن يذكر : ان معارضة المكيين لدعوة الرسول عليه الصلاة والسلام لم تكن معارضة موضوعية .. أي لم تكن من أجل ما تضمنته الدعوة من مبادىء وتوجيه . بدليل : ان هذا النفر الغريب عن مكة — لأنه لم يكن مبيتاً في نفسه الرفض والكفر ، كما كان هو صنيع المكيين — آمن بالقرآن تواً بعد أن أنصت اليه ، كما أعجب به ، وجاء على لسانه : « فقالوا : انا سمعنا قرآناً عجبا ،

---

(١) السجدة : ٧ ، ٩

يهدي الى الرشد فآمنا به ، ولن نشرك بربنا أحداً »[1] . وبهذا تقوم الحجة على الماديين المؤمنين في مكة ، عند رفضهم الاسلام وكفرهم بـــه ، وكذلك تقوم على كل مادي في أي عصر يكفر بالله وبهدايته لوقوعه تحت تأثير الاتجاه المــادي .

ومثـــل هذا الفريق الخير من الناس الذي أطلق عليه : اسم : الجن ، لعدم العهد به .. ما جاء في قوله تعالى : « ولسليمان الريح : غدوهــا شهر ، ورواحها شهر ، وأسلنا له عين القطر ، ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ، ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه عذاب السعير . يعملون له ما يشاء من محاريب ، وتماثيل ، وجفان كالجواب ، وقدور راسيات ، اعملوا آل داود شكرا ، وقليل من عبادي الشكور . فلما قضينا عليه الموت مــــا دلهم على موته إلا دابة الارض تأكل منسأته فلما خر تبينت الجن : ان لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين »[2] .. فمن يعمل من الجن بين يدي سليمان عليه السلام بإذن ربه كان فريقاً من العمال غير المهرة . وبذلك كانوا مغمورين غير معروفين . ولذا كان هذا الفريق في حاجـــة الى أن يكون عملهم تحت اشراف سليمان نفسه : « من يعمل بين يديه » . أي أنهم لعدم مهارتهم كانوا لا يستقلون بالعمل . والمغمور من الناس مختفى كأنه لا يرى ولا يشاهد . وما جاء بعد ذلك هنا في قوله : « اعملوا آل داود شكرا » .. يشير الى الفريق الآخر من العمال المهرة . وهكذا : كان في خدمة سليمان النبي والملك : نوعان من العمال ، مما يدل على أن ملكه في ذلك الوقت لم يكن لأحد قبله في السعة والعظمة .

ثم مـــا ذكر في سورة : ص . من قول الله تعالى : « فسخرنا له الريح

---

(١) الجن : ١

(٢) سبأ : ١٢ ، ١٤

تجري بأمره رخاء حيث أصاب . والشياطين : كل بناء وغواص . وآخرين مقرنين في الأصفاد » [1] . من التعبير بالشياطين : لا يتعين أن يكون هؤلاء الشياطين من القوى النارية ، وبذلك يتعارض مع حمل : « الجن » في سورة سبأ – في قصة سليمان – على فريق من البشر غير معهود . إذ : الشياطين ، كما تكون من القوى النارية تكون كذلك من الطبائع البشرية : « وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا : شياطين الانس والجن » [2] . على أن الشياطين هنا في سورة: ص . إذا كانت لفريق من البشر فلا يتحتم أيضاً أن يكون هو فريق : الجن ، السابق في سورة : سبأ والذي هو فريق خير . فقد كان العمل في ملك سليمان متعدد الجوانب : فريق الجن السابق كان يعمل في الصناعة غير الدقيقة ، وهي صناعة الحصون والتماثيل وأدوات الأكل . وفريق الشياطين هنا كان يعمل في البحار . وغيرهم كان يعمل في الصناعة الدقيقة مما كان يزين به الهيكل .. وهكذا . وما ذكر إذن في السورتين : سبأ ، وص .. هو في جملته تفصيل لقصة سليمان ، يضاف بعضه الى بعض فتكمل القصة .

٤ – وقد يطلق : الجن على فريق شرير من القوى الخفية . ويكون هذا الفريق عندئذ من الشياطين . على نحو ما جاء في قول الله تعالى : « .. وانه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا (أي جهلا وحماقة) » [3] .. فقد كان مما أوحى به الله الى رسوله : محمد بن عبد الله ، عليه الصلاة والسلام، بعض ما كان عليه كهان العرب قبل الاسلام من ادعائهم الاتصال بالجن ، أي بتلك القوى الخفية ، كي يقفوا منها على : « الغيب » وأوضاعه . وفي الآية التي تلي هذه الآية وهي قول الله تعالى : « وأنهم ظنوا

---

(١) ص : ٣٧ ، ٣٩

(٢) الانعام : ١١٢

(٣) الجن : ٦

كا ظننتم : ان لن يبعث الله أحداً »[١] .. مما يشير الى نوعية : الجن، وان نوعه من النوع الشرير ، لأنه ينكر البعث ، كا كان ينكره الماديون جميعاً في شبه الجزيرة العربية ، وفي مقدمتهم : الكهان : « .. وانهم ظنوا (أي رجال الجن) — كا ظننتم — (أي أنتم أيها الرجال من الانس) — ان لن يبعث الله أحداً .

على أن تعبير الآية هنا : « برجال من الجن » وبأنهم : كانوا ينكرون البعث .. كلاهما يجعل احتمال حمل : الجن على فريق آخر من الناس غير ظاهر للعيان ، أقرب . فقد كان معروفاً لدى الماديين الوثنيين من العرب الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر : انهم يتصورون : الملائكة ، وهي من القوى الخفية — التي تأخذ اسم الجن أيضاً — على أنهم من الأناث فقط : «ان الذين لا يومنؤن بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى . وما لهم به من علم، ان يتبعون إلا الظن ، وان الظن لا يغني من الحق شيئاً . فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا . ذلك مبلغهم من العلم ، ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله ، وهو أعلم بمن اهتدى »[٢] . وهذا التصور لديهم لا يتفق مع ما كانوا يدعونه : من أن كهانهم كانوا يلتقون برجال من الجن لاستطلاع الغيب . إذ الطبيعة التي عرفت بالتنوع بين الذكورة والأنوثة هي طبيعة البشر وحدها ، وليست طبيعة من عداهم مما يقابلهم من الملائكة او الجن : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم »[٣] .. « إنا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج ». « وخلقناكم أزواجاً »[٤] .

---

(١) الجن : ٧

(٢) النجم : ٢٧ ، ٣٠

(٣) الحجرات : ١٣

(٤) النبأ : ١٨

ثم ان الملائكة جميعاً – ويطلق عليها أيضاً جن – ما بين مطيع وهم ما عدا ابليس ، وعاص وهو ابليس ، لا ينكرون البعث . فابليس بعد أن عصى ربه طلب من الله سبحانه أن يمهله الى يوم البعث ، كما يذكر القرآن الكريم على لسانه : « قـــال (أي ابليس) : أنظرني (أمهلني) الى يوم يبعثون ! . قال (أي الله جـــل شأنه) : انك من المنظرين (أي من الممهلين) » [1] . وابليس رجا ربه في ذلك ، بعد أن طرده الله سبحانه من الجنة عقاباً على استكباره وعدم سجوده لآدم ، كما تقص الآية السابقة على رجائه هنا : « قال (أي الله جل شأنه) : فاهبط منها ، فما يكون لك أن تتكبر فيها ، فاخرج انك من الصاغرين (أي أقل شأنا من الانسان) » .

وبعد ذلك : فالانسان هو الطبيعة المركبة من مادة الطين أول الأمر، ثم من ماء مهين ، وهو ماء الذكورة والأنوثة بعد ذلك . يضاف الى مادته في تركيب طبيعته : أنه أعد بالادراك والعقل بجانب المادة فيه . وهذا الاعداد هو ما عبر عنه في سورة الاعراف بقوله : صورناكم في قول الله تعالى : «ولقد خلقناكم ، ثم صورناكم » .. بعد أن ذكر الخلق . والخلق للانسان هو على نمط الخلق للجن ، على نحو مـــا جاء في قول القرآن الكريم : « ولقد خلقنا الانسان من صلصال من حمأ مسنون . والجان خلقناه من قبـــل من نار السموم » [2] .. على معنى : ان الخلق في كل منهما هو الانشاء من المادة فقط، ولا يتجاوزها الى : « الاعداد » . والاعداد هذا : تعبر عنه عبارات عديدة. منها : التصوير ، كما رأينا . ومنها : جعـــل السمع ، والبصر : « إنا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج ، نبتليه ، فجعلناه سميعاً بصيراً » [3] . ومنها :

---

(١) الأعراف : ١٤ ، ١٥
(٢) الحجر : ٢٦ ، ٢٧
(٣) الانسان : ٢

التسويه : « يا أيها الانسان : ما غرك بربك الكريم . الذي خلقك ، فسواك فعدلك »[1] . ومنها : البيان : « خلق الانسان . علمه البيان»[2] .. وغير ذلك مما يدل على زيادة عن : « الخلق » في تكوينه . الأمر الذي يشير الى تميز الانسان ، عن الملك او عن ما يسمى بالجن ، من القوى النارية . ولأن طبيعة الانسان كانت مركبة ، وكانت المادة في تركيبها هي الطين .. كانت من الطبائع الظاهرة المحسوسة . على عكس طبيعة الملك او الجن النارية ، فإنها خفية غير مرئية .

* * *

والملائكة : اسم للطبائع النارية ، او النورية . وهي طبائع خيرية بقيت على طاعة ربها . وهي طبائع مفردة لا تركيب فيها . ولذا لا تحس ولا ترى ، أي لا تشاهد .

وابليس ، او الشيطان : كان ملكاً ، ولكنه فسق وخرج بعصيانه وفسقه فقط عن طاعة ربه ، ولم يخرج بذلك عن طبيعة الملك النارية ، كما لم يخرج الكافر بكفره عن طبيعة الانسان .

والشياطين هم جنود ابليس . وهم من القوى الخفية التي لا ترى في ذاتها: كالهوى والشهوة في نفس الانسان : « ولقد خلقنا الانسان ، ونعلم ما توسوس به نفسه ، ونحن أقرب اليه من حبل الوريد»[3] . ومعروف : ان الوسوسة خصيصة الشيطان .

وشيطان الإنس : هو من يعرف للناس بشريته وإغرائه وفتنته . وشيطان الجن هو من بقي مجهولاً لدى الناس بشخصه ، دون أثره في الشر في الصد عن سبيل الله : « قل : أعوذ برب الناس . ملك الناس . إله الناس . من شر

---

(١) الانفطار ، ٥ ٧
(٢) الرحمن ، ٣
(٣) ق : ١٦

الوسواس الخناس . الذي يوسوس في صدور الناس . من الجنة والناس » .

وعلى هذا التنويع جاء قول الله تعالى : « وقال الذين كفروا : ربنا أرنا الذين أضلانا من : الجن والانس،نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين»[1]. وجاء قوله : « وقيضنا لهم قرناء (أي شياطين) فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم ، وحق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم ، من : الجن والانس ، انهم كانوا خاسرين »[2] . وكذلك قوله : « وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الانس والجن ، يوحي بعضهم الى بعض : زخرف القول غروراً . ولو شاء ربك ما فعلوا ، فذرهم وما يفترون . ولتصغى إليه (أي الى القول المتبادل بين شياطين الانس وشياطين الجن) أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة ؛ وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون »[3] .. فشياطين الانس هم الفريق الشرير من الناس ، المعروف بشريته للناس في غير خفاء بل ربما في عنجهية وطغيان : كالمستكبرين ، والمترفين ، وأصحاب الزعامات والجاه في المجتمعات البشرية . وشياطين الجن هم أصحاب النفوس الخبيثة الأمارة بالسوء الذين لا يعرفون بأشخاصهم بين الناس بالشر والصد عن سبيل الله . وهؤلاء أولـئكم هم من المجرمين : «وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين،وكفى بربك هادياً ، ونصيراً »[4] . وجاء على هذا التنويع أيضاً قول الله تعالى : « ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس (أي من الشياطين) لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون »[5] .. فوصف القرآن هنا : بأن للجن والانس معاً قلوبا،وأعينا ، وآذانا وان كانوا لا يستخدمونها

---

(١) فصلت : ٢٩
(٢) فصلت : ٢٥
(٣) الانعام : ١١٢ ، ١١٣
(٤) الفرقان : ٣١
(٥) الأعراف ١٧٩

فيما أعدت له .. هذا الوصف القرآني يجعل من العسير تصور : الجن في هذا الوضع من القوى النارية المقابلة تماماً لطبيعة الانسان . إذ الوصف بهـــذه الخصائص هو ميزة الانسان على التحقيق دون سواه .

والجن . اسم يطلق دائماً على القوى الخفية او غير المعهودة، وغير المحدودة بوجه عام . ويطلق على الخيّر والشرير ، سواء . وإذا كان هناك تقابل تام :
بين : الانسان ، والملك في طبيعتيهما .

وبين : الملك، وإبليس أو الشيطان، في الاتجــــاه والعمل، أحدهما خيّر والآخر شرير .

وبين المؤمن والكافر في الانسان ، في الطاعة وعدم الطاعة .. فان اسم الجن يتقابل مع الانسان : من حيث الخفية وعـــدم العهد في جانب الجن ، والظهور . والتشخيص في جانب الانسان . كما جاء في قول الله تعالى : « قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، لا يأتون بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » [1] .. فإن المقام هنا هو مقام التحدي في إعجاز القرآن وأنه من الله وحده . والمعنى إذن : لو اجتمعت جميع القوى المخلوقة: خفيها وظاهرها ، على أن تأتي بمثل هذا القرآن .. لعجزت عن الاتيان بمثله .
ولكن : الجن ، كما يطلق على الملك الخيّر وهـــو قوه خفية، يطلق على إبليس وهو الشيطان الشرير ، وهو قوة خفية أيضاً من الملائكة عصى ربه . ويطلق كذلك على فريق من النـــاس غريب غير معهود : من ذوي الميول الخيرة ، او ذوي الميول الشريرة على السواء .

والأمر الذي يجب أن يؤخذ دائماً في مفهوم الجن إذن هو : الغرابة وعدم العهد به ، دون نظر إلى : معنى الخير والشر في طبيعته . وبذلك يكون اسم الجن : عاماً ، للقوة الخفية المجهولة وغير المعهودة ، من الطين او النار .

---

(١) الاسراء : ٨٨

د ــ في دائرة الانسان :

مسئولية الانسان ــ مشيئة الانسان ــ كسب الانسان ــ القضاء والقدر ــ الرزق على الله ــ التوكل على الله ــ التوبة لله ــ الشكر لله ــ الدعاء لله ذكر الله .

مسئولية الانسان

الانسان في أجياله المتعاقبة – في اعتبار الاسلام – لا يحمل خطيئة أو معصية ارتكبها سلف له من قبل. وعصيان آدم في الجنة كان عصياناً له طابعه الشخصي ، ولم يأخذ الطابع النوعي للانسان بحال . وجزاؤه على هذا العصيان – لذلك – كان طرده هو وحواء من الجنة : « قالا ربنا ظلمنا أنفسنا ، وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين . قال : اهبطوا بعضكم لبعض عدو، ولكم في الأرض مستقر ومتاع الى حين »[1] .. ولذا فكل مولود يولد .. هو على الفطرة .. لا يحمل وزراً سبق ، ولا يسهم في خطيئه ارتكبت قبل مولده . وهنا في الاسلام ليست جريمة ولا ذنب يتوارث . يسأل عنه جيل بعد جيل .

والطابع الشخصي للمسئولية الانسانية يبرزه قول الله تعالى : « وكل انسان ألزمناه طائره في عنقه (أي أن حظ كل انسان من الخير والشر، ومن العمل الحسن والعمل القبيح : ملازم ومصاحب له : ومطوق عنقه ، لا ينفك عنه بحال . وطائر الانسان ، هو حظه . وجاء استعمال القرآن به ، جريـاً على قول العرب : جرى لفلان : الطائر بكذا .. وبكذا ، من الخير والشر، تفاؤلاً أو تشاؤماً) ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً (أي سجلا مفتوحاً) : اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً . من اهتدى فإنما

---

(١) الاعراف : ٢٣ ، ٢٤

يهتدي لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها ، ولا تزر وازرة (أي لا تحمل نفس خاطئة) وزر أخرى (أي خطيئة نفس أخرى) وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً (أي لا نجازي أحداً بالعذاب على خطيئته وكفره إلا بعد أن نقيم الحجة عليه بارسال الرسول المصطفى وبإبلاغ رسالته الى الناس عامة)»[1] ..
فهذه الآيات الثلاث توضح :

أولاً — أن عمل كل انسان من صواب وخطأ، وخير وشر .. يسجل له ، ويصحبه لا يفارقه . ويوم الجزاء يعرض عليه ليراجعه .

وثانياً — أن نوع العمل الذي يباشره الانسان في حياته — إن كان هداية أو ضلالاً ، أو حسناً أو سيئاً — هو له وحده ، ولا يختلط بعمل غيره بحال من الأحوال . وأنه مهما كانت هناك صلة وثيقة أو قربى بين انسان وآخر .. فإن أياً منهما لا يحمل عن الآخر خطأه ، كما لا يضاف اليه صوابه : « ولا تزر وازرة وزر أخرى ، وان تدع مثقلة الى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى »[2] .

ونظرة الاسلام الى مسئولية الانسان الشخصية عن عمله .. هي نظرة الرسالة الإلهية منذ أن أتى بها رسول من قبل الله جل شأنه .. حتى محمد بن عبدالله عليه الصلاة والسلام . وذلك فيما يقصه القرآن في قول الله تعالى : « أفرأيت الذي تولى . وأعطى قليلاً وأكدى (أي قطع عطاءه ويئس من فعل الخير) . أعنده علم الغيب فهو يرى (أي أن لا فائدة من صنع الخير) . أم لم ينبأ بما في صحف موسى (وهي التوراة) . وابراهيم الذي وفى (أي وصحف ابراهيم الخليل ، وهي رسالته) : أن لا تزر وازرة وزر أخرى . وأن ليس للانسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى »[3] .. فما في

---

(١) الاسراء ، ١٣ ، ١٥
(٢) فاطر : ١٨
(٣) النجم ، ٣٣ — ٤٠

صحف : موسى ، وابراهيم – وهما من أصحاب الدور الرئيسي في الرسالة الإلهية للبشر – ينبىء في وضوح : عن تحديد المسئولية الانسانية الشخصية ، على نحو ما ذكرته آيات القرآن السابقة ، من :

أ – أنه ليس للانسان إلا سعيه ، وعمل الخير والصواب ، وأن هذا العمل سوف يعلم ويرى رأى العيان يوم الجزاء .

ب – ثم : أنه لا تضاف الى نفس أخطأت في سلوكها أو في اعتقادها.. أخطاء نفس أخرى . وإنما هناك عدل تام : إن في جانب العمل الصالح فلا تحرم منه نفس باشرته ، وإن في جانب العمل السيء فلا ينقل من نفس مسيئة الى نفس قد أساءت كذلك .

وتعود هذه المسئولية الشخصية – في نظر الاسلام – الى ما يتميز به الانسان من عقل وادراك ، عن بقية الكائنات الأخرى . فتميزه بالعقل جعل له السيادة والخلافة عن الله في الأرض : « وهو الذي جعلكم خلائف في الأرض ، ورفع بعضكم فوق بعض درجات .. ليبلوكم فيما آتاكم »[1] . ولكن في الوقت نفسه جعله مسئولاً فيما يباشره من عمل : « ليبلوكم فيما آتاكم » .. ليختبركم فيما أعطاكم من نعمة : العقل والخلافة عن الله في الأرض ، وفضل بعضكم على بعض في مستوى ما يرفع به الشأن درجات ، في : المال ، والجاه ، والاستطاعة والطاقات البشرية المتفاوتة .

وقد صرح القرآن بمسئولية العقل في الانسان عن تصرفات الانسان في قوله : ولا تقف ما ليس لك به علم (أي لا تتبع ما لا تعلم ولا يعنيك) : إن السمع ، والبصر ، والفؤاد ، كل أولئك كان عنه مسئولاً[2] .. فمنافذ

---

(١) الانعام : ١٦٥

(٢) الاسراء : ٣٦

الادراك لدى الانسان هي: سمعه وبصره ، بالاضافة الى ما يهدي هذا الادراك الى الصواب ، وهو ايمان القلب .

مشيئة الانسان :

يقول الله تعالى في شأن طبيعة الأنسان : « انا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج (أي من نطفة مختلطة من الذكورة والأنوثة) .. نبتليه (أي والغاية من خلقه هي: ابتلاؤه واختباره في اتجاهه في السلوك : والاعتقاد ، والعمل) فجعلناه سميعاً بصيراً (ولكي يمكن أن يحقق هذه الغاية فيه ، جعل كائناً مدركاً عن طريق حواسه ، وبالأخص حاستي السمع والبصر) . إنا هديناه السبيل (أي ولكي يساعد على استخدام ادراكه وعقله استخداماً سليماً كانت هداية الله في رسالة الرسل) : إما شاكراً ، وإما كفوراً (وهو بعد اعداده بالعقل والادراك ، وبعد مساعدته بالهداية الالهية .. له المشيئة في الايمان بالله تعبيراً عن شكره، كما أن له المشيئة في الكفر به تعبيراً عن نكران فضل الله ونعمته عليه » [1] .. فهاتان الآيتان تتحدثان عن ثلاث حقائق في الطبيعة البشرية :

الأولى: أنها طبيعة مختلطة مما الذكورة والأنوثة ،وهي حقيقة مادية نوعية .

والثانية : أنها طبيعة معدة بالادراك العقلي ، ومزودة بسبيل الرشد الانساني في اتخاذ المواقف المختلفة التي تعبر عن تميز الانسان دائماً في سيادته في هذه الأرض ، وتفوقه على الكائنات الأخرى عليها ، وهي حقيقة عقلية أو معنوية .

والثالثة : انه أضيف الى سبيل الرشد الطبيعي فيه — وهو العقل — نوع آخر من الهداية تتضمنه رسالة الله ، وهي حقيقة إلهية .

---

(١) الانسان : ٢ ، ٣

ويصور الحقيقة العقلية في الانسان ومنزلتها في اتقاء الأخطاء : قوله تعالى في سورة الأعراف في مواجهة بني آدم جميعاً : « يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوآتكم (ويقصد باللباس : العقل في ستر نقائص الانسان بإبعاده عن الزلل والأخطاء) وريشاً (أي وكما أنه ستاراً يحول دون النقائص وارتكاب الأخطاء ، فهو زينة في الوقت نفسه .. كريش يتزين به الانسان . لأنه طالما أنه : من شأنه أن يقلل من أخطاء الانسان .. فإنه من غير شك : يظهر الانسان في صورة جميلة مقبولة) ولباس التقوى ذلك : خير (أي وهذا العقل في الانسان الذي يتقي به الأخطاء ما أمكن ، وهو أشبه باللباس في الستر .. هو خير من عند الله ونعمة من نعمه الكبرى) ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون (وهو لهذا : نعمة من نعم الله على بني آدم . ويرجى منهم لذلك : ان يتذكروا هذه النعمة باستخدامها في وضعها الصحيح ، وعدم تعطيلها بالوقوع تحت تأثير الاتجاهات المادية التي تحيل مستوى الانسان الى مستوى مادي بحت ، وتعزله عن العقل وحكمته فيه ، كما تعزله عن هداية الله وارشاده في رسالته) »[1] .

وهداية الله في رسالته إذن لا تقف من الانسان موقف الإلزام والإكراه. وإنما تقف منه موقف المساعد فقط عند طلب المساعدة . وهذا هو ما تسجله الآية الثالثة السابقة في سورة الانسان : « إنا هديناه السبيل ، اما شاكراً ، واما كفورا .. » فوضع الانسان هنا ازاء هداية الله هو : وضع المختار بين الايمان والكفر بها . هو وضع صاحب المشيئة .. هو وضع البعيد عن الاكراه والإلزام . ويؤيد هذا الوضع قوله تعالى : « لا إكراه في الدين » .

وهنا تبدو صلة الله بالانسان ، كما تبدو صلة الانسان بالله في الايمان والكفر ، وفي العمل الصالح ، والسيء ، وفي استقامة السبيل في الحياة ،

---

(١) الاعراف : ٢٦ .

وارتكاب الجرائم والمعاصي فيها . فالانسان صاحب مشيئة مبدئية في ذلك كله . وهداية الله للانسان هي : في توفيقه الى الأخذ برسالته .. هي في مساعدته بالميل على الانتفاع بها .. هي في ارسال الرسول بهذه الهداية :
« قل : ان ضللت فإنما أضل على نفسي، وان اهتديت فبما يوحي الي ربي»[1].
« وقل : الحق من ربكم ، فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر » [2].

وعندما اقترف آدم وزوجه حواء معصيتهما في الجنة اعترفا : بأنهما هما .. باشراها من أنفسهما : « قالا : ربنا ظلمنا أنفسنا » [3] واعتبر سلوكهما معصية لأنهما خالفا فيه أمر الله فقط، ولكنه لم يخرج عن كونه باختيارهما : « ويا آدم : اسكن أنت وزوجك الجنة ، فكلا من حيث شئتما ، ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين (أي لنفسيكما) » [4].

والغاية من عقل الانسان التي تكمن في الابتلاء والاختبار .. تتحقق بالابتلاء بالخير والنعمة ، والشر والحرمان على السواء : « ونبلوكم بالخير والشر فتنة » [5] .. « إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم ، أيهم أحسن عملاً » [6] .. ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ، ونقص من الأموال والأنفس والثمرات » [7] .. ومعنى ابتلاء الانسان واختباره : ان يوضع أمام متع الدنيا مرة ، وأمام الحرمان منها مرة أخرى، ليعرف مدى قدرته على ضبط نفسه : هل سينجرف في تيار الترف والعبث بالمتع المادية ان واتته

---

(١) سبأ : ٥٠
(٢) الكهف : ٢٩
(٣) الاعراف : ٢٣
(٤) الاعراف : ١٩
(٥) الانبياء : ٣٥
(٦) الكهف : ٧
(٧) البقرة : ١٥٥

وهل سيضيق ذرعاً بالحياة وتتملكه روح اليأس عندما يحرم منها ؟ . ونداء عقله في الحالين ، هو : الصبر وضبط النفس ، وهو نفسه رسالة الله للانسان، لأن أياً من الأمرين – اليسر ، والعسر – لا يدوم . وإنما التعاقب بينهما هو قانون الحياة . والباقي للانسان أبداً : هو محافظته على مستوى انسانيته : باتباع عقله ، وهداية الله ، وهي تساوق العقل في طريقه الصحيح .

كسب الانسان :

يسند القرآن : الكسب الى الانسان . وهو كسب مال ، او قوة ، او كسب عمل سيء او صالح . ففي جانب كسب المال يقول تعالى في سورة المَسَد – كجزاء لأبي لهب – « ما أغنى عنه ماله وما كسب (أي لم يجد نفعاً له : ما كان يملك من رأس مال وما حصل عليه من أرباحه.. في وقايته من عذاب الله له في دنياه وفي آخرته) »[1].. ويقول : « يا أيها الذين آمنوا انفقوا من طيبات ما كسبتم ، ومما أخرجنا لكم من الأرض »[2] .. فهو في الوقت الذي يضيف فيه الله الى المؤمنين والى نشاطهم : كسب المال – بجانب مساعدتهم على إنبات ما في الأرض – يحثهم على أن ينفقوا للمحرومين وأصحاب الحاجة من طيباب ما كسبوا ولا يقصدوا الخبيث منه والرديء فيخرجون منه .

وفي جانب كسب المال ، والقوة المادية يذكر القرآن قول الله تعالى : « أفلم يسيروا في الأرض فينظروا : كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، كانوا اكثر منهم ، وأشد قوة ، وآثاراً في الأرض ، فما أغنى عنهم ما كانوا

---

(١) المسد : ٢
(٢) البقرة : ٢٦٧

يكسبون »[1] . والقصد بكسبهم : ما أعدوا به أنفسهم من قوة العدد ، والعدة ، وقوة المال والبنيان والعمار في الأرض ، وقوة السلطة والتمكن .

ويأتي الكسب بمعنى السعي في تحصيل العمل السيء ، او في تحصيل العمل الصالح : « تلك أمة قد خلت (وهي أمة ابراهيم وبنيه) لها ما كسبت ، ولكم ما كسبتم ، ولا تسألون عما كانوا يعملون »[2] .. أي كل أمة لها شأنها في مسئولية العمل الذي تأتي به . وكما أن كل فرد : له — او عليه — نوع ما يحصله من عمل .. كذلك كل أمة وجماعة مسئولة عن كسبها الخاص في العمل . ثم يأتي ذلك المبدأ العام: «كل امرىء بما كسب رهين»[3]. ويأتي ما وجهه الرسول عليه السلام الى أهله : « يا بني هاشم ! : لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم » .

فللانسان كسب ، وارادة خاصة به مستقلة : في تحصيل المال .. او في اعداد القوة .. او في السلوك السيء ، او في السلوك الحسن . وبسبب ارادته المستقلة في كسبه .. كانت مسئوليته الشخصية ، وكان جزاؤه بالسوء ، او بالحسنى : على توجيه ما يكسبه : في : تحصيل المال .. او في اعداد القوة .. او في التمكن من السلطة ، ان في سبيل الخير او في سبيل الشر .. وكذلك على ما يكون عليه كسبه ، ان باشر عملا سيئا ، او غير سيء .

والانسان — في نظر القرآن اذن — ليس سلبيا ، ولا متواكلا . والآية التي عبرت سابقا بقول الله تعالى : «يا أيها الذين آمنوا : انفقوا من طيبات ما كسبتم .. ومما أخرجنا لكم من الأرض » .. فميزت : بين عمل الانسان ..

---

(١) غافر : ٨١

(٢) البقرة : ١٣٤

(٣) الطور : ٢١

وعمل الله : فأسندت الى الانسان : كسباً.. والى الله اخراج ما في الأرض.. هذه الآية تحدد النظرة الواضحة الى الانسان : على انه ايجابي ، وعلى انه : صاحب مسئولية في العمل من اجل معيشته ورزقه .. وصاحب مسئولية كذلك : فيما يباشره من عمل سيء ، او صالح .

وما جاء في بعض الآيات التي تجعل الله متكفلا برزق الانسان ، في مثل: « وما من دابة في الارض إلا على الله رزقها » . فإن الآية ذاتها تنطوي على عمل خاص بالانسان كذلك . اذ الدابة – وهي كل ما يدب على الارض ويتحرك فيها من مخلوقات الله – لا تستحق هذا الوصف : بالدابة .. إلا اذا تحركت بالفعل . وليست حركتها إلا السعي او العمل . وإلا لم تكن دابة ، بل كانت جماداً .

وما جاء في بعض الآيات الاخرى التي تنسب الضلال ، والهداية الى الله : « يضل من يشاء ، ويهدي من يشاء » .. وبذلك يبدو الانسان مسلوب المشيئة نحو الايمان والكفر ، ونحو العمل السيء والعمل الصالح .. ما جاء على هذا النحو لا يرفع مسئولية الانسان ، ولا كسبه الارادي . فتدخل مشيئة الله في ايمان من يؤمن ، او في كفر من يكفر : عن طريق رسالته التي يوحي بها الى رسوله . والانسان في قبولها او في رفضها : حر ، وصاحب اختيار ومشيئة . وليست للرسول المرسل عليه : ولاية الإلزام بالهداية. وايمان من يؤمن : يرجع الى تحكيم المنطق وعدم التأثر بجو البيئة ، وكفر من يكفر: يعود الى المصالح الخاصة التي يفيدها بسبب كفره .

القضاء والقدر :

قضاء الله هو ما يقع في كونه تنفيذاً لارادته ، ولمصلحة عباده . وارادته سبحانه وتعالى ارادة نافذة لا يحول دون تحقيقها اي حائل : « وقالوا : اتخذ الله ولداً ، سبحانه ، بل له ما في السموات والأرض ، كل له قانتون (اي خاضعون ومطيعون) . بديع السموات والأرض (اي خالقها على غير مثال

ونموذج) واذا قضى أمراً ، فإنما يقول له : كن .. فيكون (اي واذا أراد أمراً في كونه ، ولعباده .. تحقق ووقع فور مـــا يريد » [1] .. والتعبير بقوله : كن فيكون.. قصد به فقط : ان ارادته جل جلاله لا تعطل بحال. وإذا كان هناك في الوجود ما لا يعطل ارادته سبحانه وتعالى فهو المتفرد في صفات الخلق ، والقدرة ، والارادة .. هو المتفرد وحده في الكمال . ولذا : لا يكون هناك من يشبهه .. لا يكون هناك ولد له . اذ شأن الولد أن يكون مشاركاً لوالده في الصفات .

وإرادة الله في عالم الانسان يصورها « قانون عام او مبدأ عام » من تلك القوانين والمبادىء التي تحكم الحياة الانسانية للأفراد والمجتمعات :

فوحي الله في كتابه يمثـل ارادة الله وقضاءه ، وهذه الارادة تتبلور في مجموعـــة من القوانين والمبادىء التي تنظّم سلوك الانسان ، وتحدد دائرة اعتقاده . يقول الله تعالى : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمراً : ان يكون لهم الخيرة من امرهم ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضـل ضلالاً مبيناً » [2] .. وقضاء الله ورسوله الذي تجب على المؤمنين والمؤمنات طاعته وعدم مخالفته هنا وليس لهم خيار بالتالي في قبوله او في رفضه — هو ما اوحى به الله لرسوله ﷺ في قرآنه الكريم . وما جاء في هذا القرآن الكريم هو ضوابط ، او قوانين ، او أحكام عامة تحدد الروابط الانسانية بين الفرد والفرد ، والافراد بعضهم مع بعض في الأمة : في شئون المعاملات المختلفة ، وشئون الأسرة ، وشئون الامة كدولة في سياستها الداخلية ، وفي علاقتها الخارجية مع أمم لا تسلك مسلكها في الاعتقاد والايمان .. وفيما قبل هذا كله : تحدد صلة الفرد بالله في عبادته ، وفي اداء فروض هذه العبادة .

---

(١) البقرة : ١١٦ ، ١١٧

(٢) الاحزاب : ٣٦

والقرآن لا يتناول هذه الشئون كلها إلا في صيغ عامة : كصيغة المؤمن والمؤمنة هنـــا ، بغض النظر عن أشخاص المؤمنين والمؤمنات في عهد او في عهود مختلفة .. كما لا يتناولها إلا داخل اطار عـــام كاطار وجوب الطاعة لأوامر الله – اي اوامر له – وربط الضلال بالعصيان والمخالفة لأي امر منها. واذا ذكر في تفسير بعض ما جاء في القرآن سبب خاص فإن هـــذا السبب الخاص لا يحول دون بقاء ما ورد فيه على عموم لفظه . ولذا يؤثر عن علماء اصول الفقه قولهم : العبرة بعموم اللفظ ، وليس بخصوص السبب .

وربط النتائج بمقدماتها في ترقب وقوع النتائج وتحققها عندمـــا توجد مقدماتها في حياة الأفراد والمجتمعات كقوانين عامة ، بغض النظر عن تحديد الجزئيات .. يصور كذلك قانوناً عاماً اقتضته ارادة الله : كربط ضرورة تغير المجتمع بفساد كبرائه ، على نحو ما يذكره قول الله تعالى : « واذا أردنا ان نهلك قرية (اي أن نطيح بمجتمع ونبيد نظامه وأسسه) أمرنا مترفيها ففسقوا فيها (أي جعلنا اصحاب الترف في المجتمع هم : اصحاب الشأن وأولي الأمر . وبذلك تتاح لهم الفرصـــة للخروج السافر عن القيم العليا في سلوكهم ومواقفهم) فحق عليها القول (أي وعندئذ ينطبق على هذا المجتمع العابث قضاء الله بتغييره) فدمرناها تدميراً (اي وليس بعـــد قضاء الله بالتغيير : إلا نفاذ قضائه وارادته في الوقت المعلوم له : « وما أهلكنا من قرية (اي مجتمع) إلا ولها كتاب معلوم (اي أجل محدد) . ما تسبق من امة اجلها وما يستأخرون »[1] .. فمثل هذا الربط بين المقدمات والنتائج في تعاقب المجتمعات البشرية هو ربط عام لا يتقيد بمجتمع معين . وإنما كلما انتشر الفساد في صوره المختلفة في اي مجتمع ، وفي اي عهد او جيل ، على ايدي الزعماء والكبراء فيه .. كلما يتوقع له التغيير . ولكن متى يقع هـــذا

---

(١) الحجر : ٣ ، ٥

التغير فذلك امره عند الله : «وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم». وهذا الربط العام – او هذا التلازم بين المقدمات والنتائج في حياة المجتمعات البشرية – يصور قضاء الله وارادته التي لا تقبل التعطل عن النفاذ بأي حال.

وقد يكون لهذا القانون العام أمثلة جزئية وقعت بالفعل في حياة هذه المجتمعات . كما يقص القرآن الكريم – مخاطباً الرسول محمداً عليه السلام تطميناً ومؤكداً له : عدم تخلف هذا القانون - في قول الله تعالى : « وان يكذبوك فقد كذبت قبلهم : قوم نوح ، وعاد ، وثمود ، وقوم ابراهيم ، وقوم لوط . واصحاب مدين ، وكذب موسى ، فأمليت للكافرين ، (اي أمهلتهم) ، ثم أخذتهم (اي نفذت فيهم قضاء الله بالتغيير) فكيف كان نكير . « فكأي من قرية أهلكناها وهي ظالمة ، فهي خاوية على عروشها ، وبئر معطلة ، وقصر مشيد »[1] .. وبعد أن أعطت هذه الآيات الأمثلة الجزئية لتطبيق رضاء الله وارادته كقانون عام.. عقبت بذكر هذا القانون العام مرة أخرى فيما تقوله : « فكأي من قرية أهلكناها وهي ظالمة ، فهي خاوية على عروشها » .. وبذلك أعادت الربط بين ضرورة تغيير المجتمع ووقوع الظلم فيه . وليس الظلم إلا فساداً ، وإلا كفراً برسالة الله .

الرزق على الله :

يقرأ المسلم ، او يسمع قول الله تعالى في كتابه العزيز : « ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين »[2] . كما يقرأ، او يسمع : « وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها »[3] . ثم يقرأ أيضاً ، او يسمع : « له مقاليد السموات والارض ، يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، انه بكل شيء عليم)[4] ..

---

(١) الحج : ٤٢ ، ٤٥

(٢) الذاريات : ٥٨

(٣) هـود : ٦

(٤) الشورى : ١٢

فيعتقد ان الله هو الذي يرزق، وأنه يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر، ولأنه الرازق – ولا أحد سواه في الوجود يشاركه في ذلك – أوجب على نفسه وتعهد برزق كل كائن يتحرك ويدب على هذه الأرض .

وما يعتقده المسلم ، عندما يقرأ ، او يسمع مثل هذه الآيات .. صحيح في الاعتقاد . وواجب كل مؤمن بالله ان يعتقد فيه : انه وحده هو الرازق ذو القوة المتين .

ولكن الله سبحانه وتعالى عندما يضيف الى نفسه وحده صفة الرزق لعباده – ولكل كائن يتحرك على هذه الأرض – يريد اولاً وبالذات ان ينفي : ان له انداداً وشركاء تعبد من الناس معه وأنها تؤله وتقدس ، كما يؤله ويقدس هو ، جل شأنه ، لما لها من فاعلية في حياة هؤلاء تستحق أن تعبد من اجلها . نقرأ قوله تعالى : « يا أيها الناس ! اعبدوا ربكم الذي خلقكم ، والذين من قبلكم لعلكم تتقون . الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء ، وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم ؛ فلا تجعلوا لله انداداً ، وأنتم تعلمون » [1] .. ففي هاتين الآيتين يوجه القرآن الى الناس كافة – من يتشبث بالشرك .. ومن هو على استعداد للايمان – النداء يطلب فيه عبادة الله وحده : « اعبدوا ربكم ». ثم يذكر من أفعاله ونعمه القريبة الملموسة ما يوجب على الناس جميعاً أن تكون عبادتهم له وحده دون غيره . فيذكر :

خلقه لهم ،

وتمهيد الأرض لعملهم فيها ،

---

(١) البقرة : ٢١ ، ٢٢

ورفع السماء كمظلة للوقاية ،

وإحداث المطر للمعاونة على انبات الثمرات في الأرض مما يصفها بأنها رزق لهم . ويرتب على ذكر هذه النعم نتيجة واحدة ، هي طلب عدم الشرك : « فلا تجعلوا لله أنداداً (اي شركاء) وأنتم تعلمون (اي مع علمكم بهذه النعم وحقيقة فاعلها وهو الله – وليس هناك من لا يعلمها لأنها نعم لا يتجاوزها الحس بحال : فالبصر يدركها ، واليد تعمل فيها ، والمعدة تتقوت بها) » .

فإذا حدث المطر والله فاعله – وأنزل من السماء ماء – ونبت به الثمر الذي هو رزق للناس ، فهذا الرزق من الله لأنه نتيجة لفعله هو وحده ، ولم يكن لشريك هو ند له ، خالصاً او على سبيل المشاركة معه .

وكذلك عندما يضيف القرآن الى الله سبحانه رزق الانسان .. لا يقصد بذلك : ان يكون الانسان « سلبياً » متواكلا او متراخياً عن العمل .. لا يقصد ان يجلس الانسان في انتظار رزقه حتى تفتح ابواب السماء عليه . ان القرآن الذي يقول : « وآية لهم : الارض الميتة ، أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون . وجعلنا فيها جنات : من نخيل وأعناب ، وفجرنا فيها من العيون . ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم ، أفلا يشكرون » [1] .. ويقرن فضل الله بعمل الانسان معاً في ايجاد هذه النعم.. ان هذا القرآن الذي يصنع ذلك يضع الانسان في رزقه أمام مسئوليته نحو العمل والسعي في سبيل هذا الرزق .

وإلا اذا لم يكن للانسان عمل : فيم يمتن الله على الانسان في قوله: «وجعلنا الليل لباساً وجعلنا النهار معاشاً » [2] .. فيقسم الزمن في حياته الى قسمين:

---

(١) يس : ٣٣ ، ٣٥

(٢) النبأ : ١٠ ، ١٢

قسم لراحته وسكنه ونومه ، وقسم آخر لمعاشه والسعي والعمل في سبيله ؟ .
انه لا معنى لأن يكون النهار معداً بضوء الشمس فيه ومخصصاً لمعاش الانسان ولا يعمل الانسان بمساعدة ضوء الشمس على العمل فيه من اجل المعاش . اذ عندما لم يعمل الانسان يستوي لديه الوقت : في ظلمة الليل ، دون حاجة الى ضوء النهار .

وإلا أيضاً ، فيم يطلب الله من المؤمنين في كتابه الحكيم ، ان ينتشروا بعد أداء صلاة الجمعة في الأرض ويبتغوا من فضله - اي من رزقه - على حين يطلب إليهم الكف عن العمل عندما ينادى لصلاتها ، والسعي اليها ، «يا أيها الذين آمنوا اذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله وذروا البيع ، ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون . فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض ، وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون»[1] ؟

ان المسلمين هنا عندما نودي لصلاة الجمعة كانوا يباشرون عملاً بالفعل وهو التجارة ، وطلب اليهم القرآن ان يتركوا العمل .. لحين الانتهاء من أدائها . ثم طلب اليهم استئناف العمل بعد أن تؤدى الجمعة . ومثل ممارسة التجارة ، ممارسة اي عمل آخر هو مصدر للمعاش . فإذا لم يكن العمل مطلوباً لم يطلب اليهم القرآن ثانية ان يستأنفوا مباشرته .

والقرآن عندما طلب مباشرة العمل بعد صلاة الجمعة لم يحدد العمل بالبيع والتجارة التي سبقت الصلاة . وإنما طلب العمل بوجه عام ، « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله » . وطلبه في أي مكان قريب او بعيد ، فيه يسر أو مشقة ، على حد سواء .

---

(١) الجمعة : ١٠ ، ١١

فالقرآن بإضافة « الرزق » الى الله لا يحول دون العمل من الانسان في سبيله . بل مع اضافة الرزق الى الله يطلب من الانسان، الانتشار في الارض والقصد الى تحصيل فضل الله ونعمته في هذه الارض ، وهي متنوعة وعديدة على ظاهرها وفي باطنها ، وفي جبالها واوديتها وبحارها ، ويستخدم نعمة الله الأخرى عليه في سبيل معاشه ، وهي نعمة النهار والليل ، فيسعى في النهار ويسكن ويخلد الى الراحة بالليل ، حتى يستطيع ان يجدد نشاطه لفترة العمل التالية وهي فترة النهار في غده . وهو القرآن نفسه الذي ربط فضل الله في احياء موات الارض بعمل الانسان فيها ، وجعل هذا العمل الانساني جزء لا يتجزأ في اخراج ما يخرج منها من طيبات هي رزق للانسان .

وإنما يقصد القرآن باضافة الرزق الى الله أن يلفت نظر الانسان الى ان الله وحده هو المستحق للعبادة دون سواه ، فليس في الوجود كائن آخر ، من انسان وخلافه ، يرزق الانسان في معاشه حتى يدين له بالفضل فيعبده ويشكره مع الله الخالق المنعم .. يقصد القرآن بإضافة الرزق الى الله أن يشعر الناس بكرامتهم في البشرية بالمساواة فيما بينهم ، فلا احد يرزق آخر وان ملك ما ملك ، « والله فضّل بعضكم على بعض في الرزق ، فما الذين فضلوا برادي رزقهم على ما ملكت أيمانهم فهم فيه سواء ، أفبنعمة الله يجحدون » .

ولكن الذي ليس بصحيح في اعتقاد المسلم عندما يقرأ ، او يسمع القرآن يتحدث عن اضافة الرزق الى الله ، هو ان يتواكل ويتراخى في انتظار أبواب السماء ، تفتح وتمطر ذهباً او فضة عليه .

التوكل على الله ،

ان الانسان أمام «المفاهيم» في اللغة يختلف وضعه من القوة الى الضعف،

ومن الضعف الى القوة . فالأصل في المفهوم أن يعطي مدلولاً محـــدداً ، يمليه الجو الذي قيل فيه . ولكن قد يسقط الانسان هذا الجو المحيط بالمفهوم ، ويقف به عند اللفظ وحده . وعندئذ يكون قـد انتقل المفهوم عن المدلول الأصيل لمدلول آخر ، هو أقرب أن يكون لفظياً ولغوياً ، أي أقرب الى أن يكون شكلاً لا يحمل معنى اطلاقاً .

والمفاهيم الدينية لا يختلف شأنها عن بقية المفاهيم الأخرى ، طالما الانسان هو الذي يغير موقفه منها ، وطالما هو الذي ينقلها مما تحمله أصلاً من طابع عملي .. الى أشكال لا تحمل أي واقع اطلاقاً .

والقرآن بمبادئه من أجل ذلك قد يوجد في حياة المؤمنين به ، ان قوي ارتباطهم به وقد يرتفع من حياتهم العملية ويصبح ألفاظاً ومفاهيم ينطقون بها ويتحدثون عنها ، ولكن لا يجدون لها أثراً في التطبيق والواقع الذي تسير عليه حياتهم ، ولذلك عندما يخف الايمان به ، او يتحول الى شعار فقط .

كثير من المفاهيم الدينية اليوم في مجتمعات المسلمين تختلف عما يريده القرآن الكريم لها ، وتختلف ايضاً عما طبق من قبل في حيـاة الرسول عليه الصلاة والسلام وحياة المؤمنين حقاً برسالة الله :

فالتوكل على الله –مثلاً– كما يفهم من جو القرآن الكريم – هو قوة نفسية لها فاعليتها ، وتدفع في غير تردد على ما يصمم المؤمن على تنفيذه . نقرأ قول الله تعالى في قصة نوح عليه السلام في مواجهته لقومه : « واتل عليهم نبأ نوح إذ قـال لقومه ياقوم ! : ان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت (أي ان شق عليكم نفسياً وجودي فيما بينكم وترديدي لرسالة الله في مواجهتكم فأنا رغم ذلك مستمر فيهـا ومتوكل على الله) فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ، ثم اقضوا إلي ، ولا تنظرون . (أي ولكم أن تتفقوا على الخطة فيما بينكم التي تواجهونني بها ، وأن تتفقوا ايضاً

على أن تستعينوا بشركائكم ضدي ، على أن يكون الأمر في ذلك واضحاً لكم ، ثم اقضوا بما تشاءون علي — ولو بالموت — وواجهوني بما تقضون به ، ولا ترجئوا لحظة واحدة تنفيذ ماحكمتم به) » [1] .. فنوح في موقفه من قومه الذي ينكر عليه رسالته يعلم تمام العلم مدى تحديه له على هذا النحو ، ولكن ايمانه برسالة الله ، وعزمه على الفناء في سبيلها ، كان أقوى من تحدي قومه اياه . وقد أضاف الى قوة ايمانه برسالة الله : توكله على الله واستعانته به . فزادت قوة مواجهته، وتحدى الموت لو قضوا به عليه ، وطالب بعدم ارجاء ما يحكمون به عليه .

فهنا : التوكل على الله قد سبقه إيمان قوي ، وتصميم مؤكد على الأستمرار في الدعوة لرسالة الله . وهي رسالة الحق ضد الباطل ، ورسالة الخير ضد الشر ، ورسالة الروحية ضد المادية الطاغية .

ويزيد في توضيح هذا المفهوم للتوكل على الله ، وأنه نهاية لإيمان وعزم سابقين على تنفيذ أمر خير حق قوله تعالى : « فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم واستغفر لهم ، وشاورهم في الأمر ، فاذا عزمت فتوكل على الله ، إن الله يحب المتوكلين »[2]. .. فهاتان الآيتان يوجههما القرآن الكريم لرسول الله محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام ناصحاً إياه .

أولاً : في أن لا يستمر في غضبه على ذلك الفريق من المسلمين الذي تخاذل في غزوة « أحد » ضد المشركين في سبيل الايمان بالله ، وانصرف الى الغنيمة فور أن بدرت بادرة في نصر المؤمنين عليهم ، وأن يعفو عنهم — جمعاً لصفوف الأمة — ويستغفر الله لهم .

---

(١) يونس : ٧١
(٢) آل عمران : ١٥٩

وثانياً : في أن يستشيرهم في أمور الأمة ، فاذا خلص – من المشورة – الى : رأي معـــين ، وعزم ، وصمم عليه ، فليتوكل على الله وليثق بنصره ومعـــاونته .

فالتوكل على الله –الذي طلبه القرآن هنا من الرسول عليه الصلاة والسلام– هو خطوة تلي قيامه بشورة أمته ، واستخلاصه الرأي المتفق عليه ، وعزمه وتصميمه على تنفيذه .

والتوكل على الله – أو الثقة في الله وفي نصره ومعاونته – يكون مثمراً للانسان المتوكل ، وذا ايجابية في حياته ، اذا تقدمه إيمانـ قوي بالحق في نفس من يتوكل على الله ، وتقدمه كذلك في نفسه أيضاً : تصميم على تنفيذ ما يؤمن به . فهنا عنصرانـ لجعل التوكل ذا فعالية وذا أثر في حيـــاة الانسان ، هي :

الايمان بالحق وبالخير ،

والعزم والتصميم .

فاذا انعدم الايمان ، أو كان الايمانـ بغير الحق وبغير الخير ، أو انعدم العزم والتصميم على تنفيذ الايمـــان ، فالتوكل على الله لا يفيد من يعلن توكله عليه . ولهذا : اعلان التوكل على الله غير مجد في حياة من يعلنه ، اذا افتقـد عنصراً من هذين العنصرين . وتوكل المسلمين اليوم على الله لا يصاحبه النجـاح المؤمل فيه ، لأنه اعلان « لشعار » فحسب ، دون أن يكون في نفس المعلن لهذا الشعار إيمان بما لله في رسالته . وبذلك يختلف التوكل على الله ، الذي هو مصدر للعون في النصر والرعاية – كما يتحدث عنه القرآن – عن التوكل على الله الذي يعلنه المسلمون في حاضرنا شعاراً وقولاً ، دون أن يكون له واقع في نفس المعلن اياه : « فتوكل على الله ، انك على الحق المبين » .. بهذا يعلل القرآن طلب التوكل على الله من رسوله ﷺ .. يعلله بأنه على الحق المبين ..

أي على الايمان به وعلى العزم والتصميم في الدعوة اليه .

ان التوكل على الله ليس لفظة سحرية ينطق بهـــا الناطق فيجاب الى ما يرغب . ان التوكل على الله يستلزم قوة الايـمان بالله ، كما يستلزم صلابة العزم والارادة على العمل : في غير ضعف ، أو تردد ، أو انقطاع .

التوبـــة الى الله :

قد نرى كثيراً من الناس – في حاضرنا اليوم – يعلنون التوبة الى الله عن ذنب أو خطأ ارتكبوه في سلوكهم مع أنفسهم أو مع الآخرين . ويعتقدون أنهم باعلانهم التوبة الى الله قد زالت آثار ذنبهم أو أخطائهم وأصبحوا مقبولين عند الله . ثم يستأنفون نفس السلوك الذي يتضمن الذنب أو الخطـــأ ، أو يرتكبون ما هو أشد قبحـــاً من سابقه ، ويعلنون بعده « التوبة الى الله » ويعتقدون كذلك : أنهم أصبحوا مطهرين من ذنوب الماضي وأخطائه . وهكذا .. تمر حياتهم بين أخطاء ترتكب .. وتوبة الى الله تعلن . وكأن أعلان التوبة ممحاة تمحى بها الذنوب والأخطاء في أفعال الانسان وتصرفاته ، التي تنطوي على سوء أو قبح للذات أو للآخرين .

والتوبة على هذا النحو أشبه بلعبة يلعب بها المذنب ولا يدري : أن الذي يقبل التوبة من عباده هو الله الذي له ملك السموات والأرض ، وهو القاهر فوق عباده ، وهو الجبار المتعال . وهكذا تحولت التوبة الى الله الى «شعار» يردد ، دون أن تكون له حقيقة واقعة في حياة التائب . والذي حولهـا هو الانسان المسلم عندما خف إيمانه وأصبح هذا الايمان « شهادة » يتلوها بقوله : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » من غير أن يستجيب عمليـاً لدعوة الحق في توجيه الانسان ، وتصرفاته ، وهدايته الى الصراط المستقيم .

وإذا عدنا الى القرآن لتحديد معنى « التوبة » الى الله وجـــدنا : أن « التوبة » مقترنة بأمرين :

أولاً : بتصفية الماضي كله وعدم العودة اليه نهائياً ،

وثانياً : بانتهاج المنهج السليم في العمل والسلوك ، وفي المعاملة والعلاقات بين الناس ، طبقاً لمنهج الاسلام في العقيدة والشريعة معاً .

فعن تصفية الماضي يقول الله تعالى للذين يتعاملون بالربا : « وان تبتم فلكم رؤوس أموالكم ، لا تظلمون ولا تظلمون . وان كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة ، وان تصدقوا خير لكم ان كنتم تعلمون » [١] .. فيطلب القرآن لكي تتم التوبة من المرابين : أن يتنازلوا في ديونهم عن جميع الزيادات الطارئة على رؤوس أموالهم التي أقرضوها ، بحيث لا يكون هناك ظلم لأحد : لا لهم .. ولا للمتعاملين معهم . ثم للتدليل على النوايا الطيبة والاخلاص في التوبة .. يجب أن يؤجل المدين الى حين يساره ، ان لم يتنازل له كلية عن الدين . والتنازل عن الدين كله هو في مصلحة أولئك الذين كانوا يتعاملون بالربا ، قبل أن يكون في مصلحة المتعاملين معهم وهم المدينون : « وأن تصدقوا (أي برأس المال والزيادة عليه) خير لكم أن كنتم تعلمون » . لأن هؤلاء المدينين لا تنطوي نفوسهم بسبب قسوة المعاملة – وهم أصحاب حاجة ماسة – إلا على الحقد لمن قسى عليهم . وساعة أن يتنازل لهم عن الدين يتبدل حقدهم الى صفاء ، فمحبة . والحقد شر ما يبتلى به الانسان .

وعن الأمر الثاني وهو انتهاج المنهج السليم في العمل والسلوك يقول سبحانه جلت قدرته : « ثم ان ربك للذين عملوا السوء بجهالة ، ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا ، ان ربك من بعدها لغفور رحيم » [٢] .. فيربط القرآن غفران الله وقبوله للتوبة .. بتوبة التائب عن عمله السيء الذي صدر عنه من غير قصد ، والتزم حين توبته في عزم وارادة قوية : بتغيير عمله ، في نوعه وفي

---

(١) البقرة : ٢٧٩

(٢) النمل ، ١١٩

أسلوبه ، بحيث يكون عمله الجديد تعويضاً عن الماضي واصلاحاً لأخطـائه . أما اذا أعلن التوبة واستمر على منهجـه فيما قبل التوبة ، فتوبته عندئذ هي شعار فقط، يرفع دون أن يثمر : « وليست التوبة للذين يعملون السيئات »[1]. أي الذين يستمرون في عمل السيئات ، سيئة بعد أخرى .

وهكذا : نجد حقيقة : « التوبة الى الله » مركبة من أمرين : من الندم على ذنب فات ووقع من غير قصد ، ومن مباشرة العمل المثمر الصالح الذي توحي به هداية الله تواً في غير ابطاء ، وفي عزم أكيد : « واذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل : سلام عليكم ، كتب ربكم على نفسه الرحمـة : انه من عمل منكم سوءاً بجهالة ، ثم تاب من بعده وأصلح ، فإنه غفور رحيم »[2]. والذين يعمدون الى السوء ويقصدونه ، ثم يعمدون الى اعلان التوبـة ، قلما تقبل توبتهم . لأن قصدهم الى السوء لا يحقق ندمهم على اقترافه .

وان امارات الضعف للمسلمين هي في أن تتحول مفاهيم دينهـم الى شعارات ، تظل بعيدة عن التطبيق في حياتهم . وان امارات قوتهم وقربهم الى الله هي في أن تكون حياتهم العملية تعبيراً عن اسلامهم ، بدلاً من أفواههم وأقوالهم التي لا مدلول لها .

الشكر لله :

اذا رجعنا الى القرآن الكريم لتحديد معنى « الشكر » وجدنا أن شكر الله هو في اتباع هدايته ، وفي الالتزام بالايمـان به وبرسالته : فمعناه تطبيقي وعملي ، أكثر منه نطقاً وترديداً للفظه :

فصاحب المال والثروة إذ يشكر الله يشكره باتباع هدايته في المـال .

---

(١) النساء : ١٨
(٢) الانعام : ٥٤

وهداية الله في المال : أي يكون للآخرين منه نصيب ، وراء الزكاة ، حسبما يستطيعه صاحبه ، دون أن يلحقه عطاءه بمن أو أذى ، ودون أن يشعر صاحب الحاجة بأن ما يأخذه هو من مال المعطي ، بل من فضل الله ورزقه : « والله فضل بعضكم على بعض في الرزق ، فما الذين فضلوا برادي رزقهم على ما ملكت أيمانهم ، فهم فيه سواء ، أفبنعمة الله يجحدون ؟ » .

وصاحب العلم أو التوجيه إذ يشكر الله يشكره باتباع هدايته في العلم والتوجيه. وهداية الله في العلم والتوجيه أن لا يكون العلم للرياء ، أو يستخدم وسيلة للشر أو لإقلاق الآخرين وتهديدهم . وأن لا يكون التوجيه للإغراء والخداع والافساد . وإنما يتجه العالم بعلمه – في أي موضوع – الى خير الانسانية ونفعها ، ويتجه الموجه بتوجيهه الى الحق ، والعدل ، والمحافظة على حرمات : النفس ، والمال ، والعرض .

وصاحب السلطة أو الوظيفة العامة إذ يشكر الله يشكره باتباع هدايته في السلطة والوظيفة . وهداية الله فيها : في تجنب الطغيان ، والابتزاز ، والاستغلال ، والانحراف عن طريق أية منها .. في جعل السلطة والوظيفة للخدمة العامة ، ولتيسير الأمر عن من يلتجىء الى صاحب السلطة ، أو الوظيفة .

والمتولي للقضاء إذ يشكر الله يشكره باتباع هدايته في ولاية القضاء . وهداية الله فيه : في التزام العدل المطلق ، حسب الطاقة البشرية ، وتوخي البعد عن اثارة اللجاجة في الخصومة .

والعامل وصاحب العمل إذ يشكران الله يشكرانه باتباع هدايته في العمل. وهداية الله في العمل هي : في الأمانة في أدائه ، واتقانه من جانب من يباشره ، وفي الوفاء بالأجر ، ورعاية الرأفة والرحمة من جانب صاحب العمل وتجنب الاستعلاء ، وتأكيد روح الأخوة في الانسانية وفي الايمان بين الطرفين .

وهكذا .. رب الأسرة بالنسبة لأسرته ، وأم الأولاد بالنسبة لأولادهـا إذ يشكر هو الله أو تشكر هي الله ، فشكر أي منهما في اتباع هدايـة الله في الأسرة وفي الأولاد . وهداية الله في ذلك هي : في الرعاية والاحسان ، وحسن التهذيب .

وإذن شكر الله على نعمة ما هو في اتباع هداية الله في هذه النعمة عمـلا وتطبيقاً . نقرأ قول الله تعالى : « إنا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه ، فجعلناه سميعاً بصيراً . إنا هديناه السبيل ، إما شاكراً وإما كفوراً » [1] .. فالقرآن الكريم يتحدث أولاً : عن تركيب الانسان في خلقه وإعداده . فإذا كان قد خلق من نطفة مختلطة بين الذكر والأنثى ، فانه زود بمدخل العقـل والتفكير ، وهو الحواس التي يتميز : السمع والبصر من بينها . ثم يتحدث ثانياً : عن أن الله لم يدعه لعقله وتفكيره في شأن الهداية ، إذ قد تتغلب على عقل الانسان وتفكيره نزعات الغرائز – بحكم تبكيرها في مباشرة أهدافها للمحافظة على بقاء الانسان ككائن حيواني – مما يخل بالتوازن عنـدئذ : بين العقل .. والغرائز في الانسان ، ويميل به بالتالي الى الانحراف ، فالعبث عن طريق الهوى والشهوة . ولذا كانت الحاجة الى هـــداية الله حاجة ماسة : « إنا هديناه السبيل » عن طريق الرسالة الإلهية . وموقف الانسان – بعـد تزويده بالعقـــل وبرسالة الله – يجب أن يكون موقف الشاكر على نعمة الله الممثلة في : إعداده بالعقل .. وبتزويده بالهـــدايه الإلهية . وذلك باستخدام العقل فيما خلق له ، وهو ، التفكير السليم ، لصالح الانسان وصالح البشرية ، وباتباع الهداية الإلهية في مجالاتها المختلفة .

ولكن الانسان قد لا يحس بهذه النعمة المزدوجة فيقف منها موقف الكافر بها . وعندئذ لا يلوم إلا نفسه ، « ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ، ومن كفر

---

(١) الانسان : ٣

فان ربي غني كريم »[1] .

فشكر الانسان لله إذن هو : في اتباع هداية الله . وهداية الله ستوجه تفكيره ، وسلوكه ، وعمله ، بحيث لا يستهدف بأي منها ، سوى الحق والخير والمنفعة العامة ، كما يستهدف تجنب الإيذاء والإضرار بالغير .

ولكن هذا الشكر الذي هو اتباع ، أي تطبيق على هداية الله ، قد تحول في حاضر المسلمين الى لفظ عديم المدلول العملي ، والى « شعار » ليس له أثر في حياة الانسان . وما أكده الله في قوله ، « وإذ تأذن ربكم : لئن شكرتم لأزيدنكم » .. لم يعد ذا صلة بما تحول اليه شكر الله في حاضر المسلمين من شعار . فمهما عبر صاحب شعار الشكر ، ومهما كرره صباح مساء ، فلن تتغير حياته ، ولن يرى فيها مزيداً من فضل الله ونعمته .. ذلك المزيد الذي وعد به هنا ، وهو مزيد الهداية والتوفيق ، والاطمئنان النفسي ، وستر الله .

الدعاء لله :

كثير من المسلمين – في حاضرنا – يتجهون الى الله بالدعاء ، ويتضرعون اليه كي يحقق لهم رغبة أو رغبات من رغباتهم اليومية ، أو رغبات العمر . ثم ينامون على أمل . ويصبحون فلا يرون شيئاً تحقق . ثم تمر الأيام ولم يفقدوا الأمل بعد ، ويضيفون الى دعائهم بالأمس ، وأمس الأول .. دعاء اليوم ، وغداً ، وبعد غد . وتظل النتيجة هي النتيجة .. تظل الرغبة في حيز الرغبة ، ويظل الأمل في حيز الأمل ، وواقع الحياة لا أثر فيه لرغبة أو أمل . وأخيراً يرجعون الى قول الله تعالى : « وقال ربكم ، ادعوني أستجب لكم » .. وكذا الى قوله :

---

(١) النمل : ٤٠

١ — « وإذا سألك عبادي عنى فإني قريب »

٢ — « أجيب دعوة الداع اذا دعان »

٣ — « فليستجيبوا لي ، وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون . » [١] .. ويقفون عند ذلك. وربما يجول بخاطرهم هواجس شك ، أو على الأقل تدور في نفوسهم حيرة : هم سألوا الله سبحانه على نحو ما ذكر القرآن ، ولم يستجب لهم كما وعد ، أيضاً فيها ذكره القرآن . ولكنهم لم يسألوا أنفسهم أولاً : هـــل هم عباد الله ؟ كما تنطق الآية الثانية ذاتها : « وإذا سألك عبـــادي عني فاني قريب » ؟ انهم لم يسألوا أنفسهم . ولو سألوها ، ثم سألوا القرآن الكريم عن عباد الله لعرفوا حقيقة الأمر : لماذا كانت حيرتهم ؟ . إذ يقول الله في كتابه في شأن عباده :

« يا عبـادِ ! : لا خوف عليكم اليوم ، ولا أنتم تحزنون ، الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين » [٢] .. فيؤمن الله عباده — في الحيـــاة — من الخوف ، ومن الحزن معاً . فعبـــاد الله لا يصل اليهم قلق نفسي بسبب الخوف من شيء ، ولا تترك هموم الحيـاة وما فيها من ابتلاء العسر والشدة : أثر الحزن في نفوسهم . وهذا :

لأنهم يؤمنون بالله ،

ويأخذون أنفسهم في تطبيق مبادئه في حياتهم .. فالايمان الصادق بالله ، والتطبيق الواعي لمبادئه — كما جاء القرآن الكريم بهذه المبادىء — هو الأساس في الوصف بعباد الله ، وهو الأساس بالتالي في استجابة الله لدعاء عباده .

وصدق الايمان هو نتيجة امتحان واختبار لما في الحياة التي نعيشهـــا من فتنة وبلاء ، واغراء وشدة معاً . سواء أكان اغراء الجاه ، والمال ، والولد ،

(١) البقرة : ١٨٦
(٢) الزخرف : ٦٨

والمرأة .. أو كانت شدة الضيق ، والفقر ، والمرض . ويصور الايمان الصادق : ما يحكيه القرآن عن تحدي الله سبحانه لإبليس في أنه لا يستطيع أن يكون له أثر على عباد الله ، لصدق ايمانهم بربهم وحسن ثقتهم فيه ، وتوكلهم عليه ، فيما يذكره بقوله :

« واستفزز من استطعت منهم (أي من الذين يخف ايمانهم فيتبعون الشيطان أو الهوى والشهوة) :

١ - « بصوتك (أي بصوت دعايتك ، ووعدك ، ووعيدك) ،

٢ - « وأجلب عليهم بخيلك ورجلك (أي بكل ما أوتيت من أنواع القوة المادية) ،

٣ - « وشاركهم في الأموال والأولاد (أي مشاركة شيوع) ،

٤ - « وعدهم ، وما يعدهم الشيطان إلا غروراً .

« إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ، وكفى بربك وكيلا »[١] .. فيعطي الله لإبليس الفرصة في : أن يستخدم كل وسيلة للاغراء من الأموال ، والأولاد ، والوعود الخادعة .. وكل وسيلة أخرى للارهاب من القوة المادية في العدد والعدة .. ومن قوة الاذاعة والاعلام ، وذلك للحيلولة دون الايمان بالله . فمن عدا عباد الله : عرضة لقبول تأثير الاغراء ، أو الارهاب . أما عباد الله بإيمانهم بالله ، وتوكلهم عليه سبحانه .. فهم بمنجى من هذا التأثير .

والغرض من حوار إبليس - مصدر الشر - مع الله سبحانه وتعالى هنا هو تصوير ، أن الدنيا بمفاتنها واغرائها - وكذلك بما يقع فيها من اكراه ، وارهاب - من شأنها أن تؤثر على ضعاف الايمان ، دون أقوياء المؤمنين .

---

(١) الاسراء : ٦٤ ، ٦٥

والتطبيق العملي الواعي لمبادىء الايمان الصادق يحكيه قوله تعالى في وصف سلوك عباد الله :

« وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونـاً ، واذا خاطبهم الجاهلون قالوا : سلاماً . والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً ،

« والذين يقولون : ربنا اصرف عنا عذاب جهنم ان عذابها كان غراماً انها ساءت مستقراً ومقـامـاً . والذين اذا أنفقوا (أي على أنفسهم وأهليهم) لم يسرفوا ، ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً. والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر، ولا يقتلون النفس التي حرم الله ، إلا بالحق ، ولا يزنون .. الى أن يقول : والذين لا يشهدون الزور ، واذا مروا باللغو مروا كراماً . والذين اذا ذكروا بآيات ربهم ، لم يخرّوا عليها صماً وعمياناً . والذين يقولون : ربنا ! هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين اماماً » [1] .. فعباد الله هم :

الذين لا يزهون بأنفسهم خيلاء وكبراً ،

والذين يغضون الطرف عن أخطاء الحمقى من الناس ،

والذين يحافظون على أن يكون ليلهم قربى الى الله وعبادة اليه ، دون ان يكون لمؤامرة أو تدبير سوء ،

والذين هم يعتدلون في انفاق مالهم محافظة على ذويهم وأقربائهم من بعـدهم ورعاية لأصحاب الحاجة عداهم في وجودهم ،

والذين لا يباشرون الجرائم الاجتماعية من : قتل النفس التي حرم الله قتلها وهي نفس المؤمن بالله ، ومن الزنا والفحشاء ، ومن السرقة ،

والذين لا يشهدون الزور ،

---

(١) الفرقان : ٦٣ ، ٧٤

ولا يقضون قليلاً او كثيراً عند لغو القوم ،

والذين اذا ذكروا بآيات الله في مشورة تقدم اليهم لم يغفلوا شأنها ،

والذين يتجهون الى الله في شئونهم الخاصة في : أن يسعدهم في بناء أسرهم، وتوجيه أولادهم .

فمن ليس من عباد الله من المسلمين اليوم لا ينتظر استجابة الدعاء الى الله . لأنه – من ليس من عباد الله – حول دعاءه الى الله : الى « شعـار » فقط . والدعاء الى الله هو : ختام عمل ، وليس بداية قول .

ذكر الله :

يطلب القرآن الكريم في مثل قوله تعالى : « فاذكروني أذكركم ، واشكروا لي ولا تكفرون » [1] .. الى المؤمنين جميعاً : أن يذكروه سبحانه وتعالى . كما يطلب اليهم عدم الطاعة – أو الاعراض – لمن شغل قلبه ونفسه بغير الله.. أي لمن شغلها بالهوى وبمتع الحياة الدنيا ، ولم يرد سواها ، في قوله جل شأنه: « ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه »[2] . وفي قوله : «فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا » [3] . ولم يرد القرآن هنا من : «الذكر لله» أن يكون ذكره امارة ايمان به فحسب، كما لم يرد من اغفال ذكره أن يكون اغفاله امارة كفر به فقط. وانما يريد: أن يجعل من شأن المؤمن أن يذكر الله سبحانه وتعالى، فيتذكره في كل عمل يعمله ، وفي كل سلوك يسلكه ، وفي كل تفكير يباشره : « في بيوت أذن الله ترفع ويذكر فيها اسمه ، يسبح له فيها بالغدو والآصال . رجال لا تلهيهم تجارة ، ولا بيع ، عن ذكر الله ، وأقام

(١) البقرة : ١٥٢
(٢) الكهف : ٢٨
(٣) النجم : ٢٩

الصلاة ، وايتاء الزكاة ، يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والابصار [1] .. ويناشد المؤمنين كافة : أن لا تلهيهم الدنيا بفاتنها واغرائهـا : من أموال ، وأولاد ، عن ذكر الله ، عندما يوجه اليهم النداء في قوله : « يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله » [2] .

كما يريد أن يجعل من شأن الكافر : أن لا يذكر الله اطلاقاً ، وأن من شأن المنافق أن يذكره قليلا: «ان المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم ، واذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى، يراءون الناس ولا يذكرون الله الا قليلا » [3]. وذلك لأن الكافر يتبع هواه صراحة ، وهو واقع تحت تأثير الاتجاه المادي الذي يدفعه في غير هوادة الى الزلل والانحراف . وهو يمكن أن يساير هواه – وكذا لا يمكنه أن يساير الاتجاه المادي – الا في تجاهل واغفال الله ، فلا يذكره بحال . والمنافق انتهازي اذا ذكر الله فلمصلحة خاصة ، وإذا أغفل ذكره فلمصلحة خاصة كذلك . وواقع الأمر : ذكر المنافق لله – ان ذكره – هو كعدم ذكر سواء . لأنه لا يتأثر بذكره في عمل او تفكير .

و « ذكر الله » هنا هو اذن تذكر للمولى سبحانه بصفة دائمة . وتذكر الله هنا هو عملية عقلية تضع الانسان المؤمن في شعور ووعي واضح لجلال الله وعظمته ، وللخشية منه . وأثر هذه العملية العقلية في حياته هو : الاستقامة واتباع هداية الله ، وتجنب ما يسيء الى الذات او الى الغير .

والانسان المؤمن هو انسان قبل أن يكون مؤمناً : يقع منه السهو، وتقع منه الغفلة ، ويقع منه أيضاً الخطأ الذي يجانب اتباع هداية الله. ولذا عليه ان سها ، او غفل ، او أخطأ : أن يذكر الله ، ويتذكره ليعود الى نفس الخط الذي آمن بالسير عليه من قبل نسيانه ، وغفلته ، وخطأه . ويخاطب القرآن

---

(١) النور : ٣٦ ، ٣٧

(٢) المنافقون : ٩

(٣) النساء : ١٤٢

الكريم المؤمنين بقوله : «وسارعوا الى مغفرة من ربكم، وجنة عرضها السموات والأرض ، أعدت المتقين . الذين ينفقون في السراء ، والضراء ، والكاظمين الغيظ ، والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين . والذين اذا فعلوا فاحشة ، او ظلموا أنفسهم ، ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم، ومن يغفر الذنوب إلا الله، ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون »[١] .. فيجعل الجنة أيضاً جزاء لأولئك الذين اذا فعلوا فاحشة — أو ظلموا أنفسهم — ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم.. كما هي جزاء المحسنين .

والصلاة جعلت عبادة وقربى. لأنها تخلق الجمال النفسي والعقلي في الانسان المؤمن لذكر الله . وعندئذ تحول دون أن يرتكب هـــذا الانسان المصلي : فاحشة او منكراً . واذا صفت فيها نفس المصلي فانه سيستحضر جلال المولى وقـــدرته وعزته في صلاته . وعندئذ يكون امتناعه عن ارتكاب الجرائم الاجتماعية – وهي الفحشاء والمنكر من الزنا والقتل والسرقة – أشد وأقوى. يقول الله تعالى لرسوله عليه الصلاة والسلام، « اتل ما أوحي اليك من الكتاب، وأقم الصلاة ، ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، ولذكر الله أكبر »[٢] . فالصلاة في حقيقتها لا توصل فحسب الى الانتهاء من ارتكاب الفحشاء والمنكر. وانما توصل الى استحضار جلال المولى سبحانه : واستحضار جلاله في النفس: أكبر أثراً في حيـــاة المصلي من انتهـــائه عن الفحشاء ، والمنكر ، لأنه كذلك يحول عندئذ دون السهو في الصلاة ويجعلها عملاً ايجابياً يحمل على الانفـــاق في سبيل الله ومساعدة الضعفاء ، وآنئذ لا يكون المصلي من الذين قال الله فيهم: « فويل للمصلين . الذين هم عن صلاتهـــم ساهون . الذين هم يراءون : ويمنعون الماعون (أي يمنعون العون والمساعدة) »[٣] ،

---

(١) آل عمران ١٣٣ – ١٣٥
(٢) العنكبوت : ٤٥
(٣) الماعون : ٤ – ٦

وهكذا ، « ذكر الله » .. عملية عقليـــة او نفسية ، تحمل على سلوك ايجابي ، هو تطبيق لما جاء في « الذكر » عن الله تعالى : « إنا نحن نزّلنـــا الذكر وإنا له لحافظون » [1] .. ذكر الله هو معنى قبل أن يكون لفظـاً ، وله فاعلية قبل أن يكون « رمزاً » و « شعاراً » . « واذكروا الله كثـيراً لعلكم تفلحون » .

---

(١) الحجر : ٩

هـ ـ في دائرة الحياة الاخروية :

الساعة ـ جزاء الله ـ الجنة

الساعة

تأتي الساعة – في تعبيرات القرآن الكريم – بمعنى : توقيت الجزاء الأخروي : « ولله ملك السموات والارض ، ويوم تقوم الساعة ، يومئذ يخسر المبطلون »[1] .. اي يوم يأتي وقت الجزاء وموعده في الآخرة يتبين خسران المبطلين ، وهم الضالون الظالمون لأنفسهم بالكفر والالحاد .

فإذا قرنت : « الساعة » بكلمة العذاب .. قصد بالعذاب غالباً : عندئذ ما يقع من عقاب دنيوي ، كما في قوله تعالى : «قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدا . حتى اذا رأوا ما يوعدون : اما العذاب ، واما الساعة ، فسيعلمون من هو شر مكاناً وأضعف جنداً »[2] .. وكما في قوله : « قل : أرأيتكم ان أتاكم عذاب الله ، او أتتكم الساعة (اي أتتصورون ان حل بكم عذاب الله في الدنيا ، او أتى وقت الجزاء في الآخرة) أغير الله تدعون ان كنتم صادقين »[3] .

ولا تذكر كلمة : « الساعة » في مقام الانذار للوثنيين الماديين – في كتاب الله – إلا عندما يشتد استهتارهم بمن يدعون الى الله ، وتتضاعف

---

(١) الجاثية : ٢٧
(٢) مريم : ٧٥
(٣) الانعام : ٤٠

سخريتهم بالايمان بالله وحده . نقرأ قول الله تعالى في سورة محمد [1] : « فهل ينظرون إلا الساعة : ان تأتيهم بغتة ؟ (اي الى متى يواصل المنافقون خداعهم : أينتظرون في مواصلتهم الخداع حتى يأتي وقت الجزاء فيحل بهم فجأة ؟ وعندئذ لا تتاح لهم فرصة للخلاص من جريمتهم ، وهي جريمة اعلان الاسلام ظاهراً ، وتبييت العداء والمكيدة للايمان والمؤمنين) » . والمنافقون كافرون في حقيقة أمرهم . وكفرهم أشد ضراوة على المؤمنين ، وأبعد أثراً في حياتهم من أصحاب الكفر الصريح الذين لا يملون اعلان كفرهم لحظة بعد اخرى .

وقد سبق هذه الآية الأخيرة في السورة ذاتها : قول الله جل شأنه في تحديد : انهم المنافقون فيها : « ومنهم من يستمع إليك (اي من الكافرين الذين ستروا كفرهم خداعاً، بإعلان الاسلام) حتى اذا خرجوا من عندك (أي خرجوا بعد الانتهاء من الحديث الى من يستمعون اليك جميعاً) قالوا للذين اوتوا العلم : (وهم أولئكم الذين حفظوا واستوعبوا ما قلته في حديثك الى المستمعين ، وهم المؤمنون الخالصون) ماذا قال آنفاً ؟ (اي ماذا ذكر في حديثه الآن قريباً ؟ . قالوا ذلك سخرية واستهزاء) اولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم (اي هؤلاء المستفسرون سخرية واستهزاء .. صنعوا ذلك ؛ لأن الله أغلق قلوبهم دون الايمان ، بسبب طاعتهم لأهوائهم ووقوعهم تحت تأثيرها) . والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم (أما الذين استمعوا مخلصين الى حديث رسول الله ﷺ وقت الاجتماع به وأصبحوا أولي علم بما تحدث فقد انتفعوا بحديثه : زادت هدايتهم واستمرت تقواهم) . فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة ؟ فقد جاء أشراطها (اي اماراتها . ورسالة الرسول محمد بن عبدالله عليه الصلاة والسلام واحدة من هذه الامارات.

---

(١) محمد : ١٨

لأن بها ختمت الرسالة الإلهية ، وأصبح الانسان يعتمد على استقلاله اعتماداً كلياً في اتباع هداية الله او عدم اتباعها، ووضع الآن أمام مسئوليته التامة. واذن لا يترقب جديداً من السماء . فقد انتهى امرها في شأن الهداية . ولا شك أن ختم الرسالة الإلهية ينطوي على انذار للبشرية في الوقت الذي تمثل خاتمة الرسالات : الدين الكامل للانسانية : « ... اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الاسلام ديناً » (١)) فانى لهم اذا جاءتهم ذكراهم (اي أين يكون وضعهم اذا حل وقت الجزاء بالفعل،وأصبح حقيقة تذكر ولا تنسى ؟ . ان وضعهم لا شك سيكون وضع أصحاب النار ان هم آثروا الاستمرار في الخداع ، والبقاء تحت تأثير المادية ، والكفر بالروحية الانسانية التي هي هداية الله في كتابه المبين) » .

جزاء الله :

طالما كانت للانسان مشيئة مبدئية في الايمان والكفر ، وفي مباشرة العمل الصالح او السيء .. وطالما كان مسئولاً مسئولية شخصية وفردية عن نوع اعتقاده ونوع عمله، ولا يحمل مسئولية غيره مهما كانت صلة القربى به.. فإن جزاءه عن ايمانه وكفره، وعن عمله المستقيم وعمله المنحرف يكون جزاء وفاقاً لنوع اعتقاده ، وعمله : « ليس بأمانيكم (أيها المشركون الماديون) ولا أماني أهل الكتاب (اي لا يتوقف المصير ولا ترتبط الأعمال في الجزاء عليها : بالرغبات والأماني . وإنما يكون الجزاء على نوع العمل فقط) : من يعمل سوءاً يجز به ، ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً . ومن يعمل من الصالحات، من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ..فأولئك يدخلون الجنة،ولا يظلمون

---

(١) المائدة : ٣

نقيرا (اي أقل القليل) »[1] .. والله عادل فيما يجازي به : « ان الله لا يظلم الناس شيئاً ، ولكن الناس أنفسهم يظلمون »[2] .

وعدل الله في الجزاء أمر يقتضيه وضع الخالق بين عباده ومخلوقاته . وهو وضع الغني بذاته عن المخلوقات والناس جميعها : « وربك الغني ذو الرحمة : ان يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء ، كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين »[3] .. فلا تعود مصلحة شخصية عليه – جل جلاله – من ايمان بعض الناس ، او كفر البعض الآخر منهم . وإنما أثر الايمان يعود على من آمن ، وأثر الكفر يعود على من كفر منهم : « ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه ، ان الله لغني عن العالمين »[4] .. « ولقد آتينا لقمان الحكمة : ان اشكر لله (اي بالايمان به) ومن يشكر (اي يؤمن معبراً بإيمانه عن شكره) فانما يشكر لنفسه (اي تعود منفعة ايمانه على نفسه) ومن كفر فان الله غني حميد »[5] .. ووضع الغني بذاته بين المخلوقين له : يتعين ان يكون وضع العادل .. المتجرد عن الغرض والمصلحة الخاصة . ثم يوجب كذلك : أن يكون الجزاء مرتبطاً بنوع العمل وحده ، الذي باشره ويباشره الانسان في حياته الدنيوية .

وهنا تؤكد آيات عديدة هذا الربط ، كما نقرأه في قول الله تعالى : «فمن يعمل مثقال ذرة خيراً .. يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً .. يره »[6] ..

---

(١) النساء ، ١٢٣ ، ١٢٤

(٢) يونس ، ٤٤

(٣) الانعام ، ١٣٣

(٤) العنكبوت ، ٦

(٥) لقمان ، ١٢

(٦) الزلزلة ، ٧ ، ٨

وفي قوله : « والذين كسبوا السيئات : جزاء سيئة بمثلها ، وترهقهم ذلة ، ما لهم من الله عاصم » [1] .. وفي قوله : « ومن يعمل من الصالحات ، وهو مؤمن ، فلا يخاف ظلماً ولا هضماً » [2] .

وما يتردد من القول : بسلب المشيئة من الانسان في علاقته بالله ، وبنسبة هدايته وضلاله الى المولى جل شأنه وحده – دون تدخل من الانسان – وبالتالي : بعدم فهم الجزاء من الله له المترتب على ضلاله .. هو قول لا يستند الى فهم سليم لكتاب الله . نقرأ قوله تعالى مثلاً : « أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً (اي ليس كمن لم يضل ويخدع ، واهتدى بهدي الله في كتابه) : فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات، ان الله عليم بما يصنعون » [3] .. فهذه الآية تنسب الى الانسان صنعاً وعملاً في خداع نفسه مرتين ، مرة عندما تقول : « أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً » .. فتسند اليه أنه رأى السيء في واقع أمره ، حسناً في نظره فجاراه ، وبذلك ضل ولم يهتد . ومرة أخرى عندما تعقب بقولها : « إن الله عليم بما يصنعون » .. أي بما يصنع أولئك الذين لم يروا الصواب على وجهه الصحيح . واذن : الانسان له دخل وعمل في اضلال نفسه او في هدايتها . ومع ذلك فان لله أيضاً دخلا في الهداية والضلال ، ولكن على معنى: صرف الانسان او عدم صرفه عن متابعة خط السير لما في رسالة الله. فللانسان دور في تحديد نوع العمل الذي يقوم به ، وفي نوع الاعتقاد الذي يعتقده ، ولله أثر كذلك : في التوجيه نحو هذا الاتجاه . او نحو ذاك : « سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق » [4] .

---

(١) يونس ، ٢٧
(٢) طه ، ١١٢
(٣) فاطر ، ٨
(٤) الاعراف ، ١٤٦

وفيما يوصي به القرآن رسول الله ﷺ في قوله : « فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم ، واستغفر لهم ، وشاورهم في الأمر ، فاذا عزمت فتوكل على الله ، ان الله يحب المتوكلين »[1] .. يوصيه أولاً بمباشرة : العفو عن المخطئين في غزوة « أحد » من المؤمنين بتطلعهم الى الغنائم – وليس الى المبادىء – فيها ، واستغفار الله لهم خطأهم ، وبمشاورتهم من جديد في شئون الدفاع عن الأمة : « فاعف عنهم ، واستغفر لهم وشاورهم في الأمر » .. ثم يوصيه ثانياً – بعد انتهاء المشاورة وترجيح الرأي نحو اتجاه معين،وموقف معين: ازاء الأعداء– بالتوكل على الله .. أي بطلب العون والمساندة منه فهنا : عمل من الانسان ، وعون من الله .. هنا استفاد مجهود الانسان وطاقته في العمل ، ثم طلب المؤازرة بعد ذلك لمن يملكها وحده ، وهو الله سبحانه وتعالى . وكذلك فيما يأمر به المؤمنين بقوله : « قاتلوهم (اي قاتلوا الاعداء المنتهكين لحرماتكم) يعذبهم الله بأيديكم ، ويخزهم (اي بسبب هزيمتكم لهم) وينصركم عليهم (أي بما لكم من ايمان قوي) ويشف صدور قوم مؤمنين . ويذهب غيظ قلوبهم (اي بما تحرزون من نصر واضح) »[2] .. يأمرهم بالقتال ، وعن ايمان قوي فيه : بحيث يكون النصر على الأعداء أمرا واضحاً ، فيطلب منهم : عملاً .. وايماناً .. يستتبعهما :

نصر من الله .

والمزاوجة في دائرة الانسان في صلته بالله .. هي مزاوجة بين عمل الانسان أولاً ، عملاً ناجحاً متفوقاً ، واقتران ذلك : برعاية الله وعونه : ان كان في مجال الهداية والضلال ، او في مجال مقاتلة الاعداء، او في مجال السعي في الرزق والحصول على أسباب العيش في الحياة . واذن : عمل الانسان ،

---

(١) آل عمران ، ١٥٩

(٢) التوبة ، ١٤ ، ١٥

وسعيه ، وجده في العمل والسعي .. مقدمة ضرورية لتتويج عمله بالنجاح برعاية الله وفضله ، وبدون عمل للانسان وبدون استقامة فيه : لا تكون رعاية .. ولا تكون معاونة .. ولا يكون نصر من الله . ان السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة . وانما هو الانسان وسعيه .. والله ورعايته .

الجنـــة :

« مثل الجنة التي وعد المتقون : فيها أنهار من ماء غير آسن ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار من خمر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفى ، ولهم فيها من كل الثمرات ، ومغفرة من ربهم ،كمن هو خالد في النـــار ، وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم » (١) .

ان منطق الدعوة الاسلامية في القرآن الكريم يقوم على توضيح المفارقة بين المؤمن بالله ، والكافر به : في الاعتقاد ، والسلوك ، ومدى التجاوب في علاقات الناس بعضهم ببعض ، وفي نوع الحياة في الدنيا والمصير في الآخرة .

فاذا ما وضع مثلاً مصير المؤمن والكافر في الحياة الآخرة موضع الموازنة في قول الله تعالى في سورة محمد : « مثل الجنة التي وعـــد المتقون : فيها أنهار من مـــاء غير آسن ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار من خمر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفى ، ولهم فيها من كل الثمرات ، ومغفرة من ربهم .

كمن هو خالد في النا ، وسقوا ماء حميماً فقطع امعاءهم » .. اذ مـــا يضع مصير كل منهما هذا الوضع المقارن ، انما يفصل مـــا سبق أن ذكره في هذه السورة ، من : وعد قطعه الله على نفسه في قوله : « ان الله يدخـــل الذين آمنوا وعملوا الصالحات : جنات تجري من تحتها الأنهار ، والذين كفروا

---

(١) محمد ، ١٥

يتمتعون ويأكلون (اي في الدنيا) كما تأكل الأنعام ، والنار مثوى لهم (اي في الآخرة) »[1] .

فهذه الآية ذكرت : ان الكافر في الدنيا يسعى للاستمتاع بالحياة المادية والأكل مما تشتهيه النفس مما يؤكل فيها .. أكثر مما يستهدفه المؤمن في سعيه فيها . بل ان الكافر قد يبالغ في الاستمتاع بمادياتها ، على نحو : لا يعرف فيه لنفسه ضابطاً ، ولا يعرف لغيره حرمة ووجوداً ، كما يصنع الحيوان سواء بسواء : « والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام » . أما المؤمن — فلأن هدفه في الدنيا : ان يباشر العدل مع غيره ، والاحسان في صوره المختلفة الى الآخرين — فهو لا يشغل نفسه بتحقيق شهوات النفس ومتعها المادية ، بقدر ما يحقق المعاني الانسانية الكريمة في الملاقات البشرية بينه وبين من عداه . ولذا : استمتاعه من ماديات الحياة الدنيا .. بقدر ما يكون لديه الطاقة على تحقيق هدفه الأسمى .

والحياة الدنيا هي مرحلة في حياة الانسان — وجهة نظر الاسلام والمؤمن به — تليها مرحلة ثانية وهي مرحلة الآخرة . ومرحلة الدنيا اذا كانت مرحلة اختبار لمن يسعى فيها لتحقيق شهوات النفس ومتعها وحدها — وهو ذلك الكافر — ولمن يسعى أيضاً ليشارك الآخرين وليكون معهم كما يكون مع نفسه ، وليقاسمهم حلوها ومرها على السواء وهو ذلك المؤمن.. فمرحلة الحياة الآخرة هي مرحلة جزاء لكل من النوعين .. وهي مرحلة ثواب للمؤمن ، وعقاب للكافر .

ولقد جاء في وصف ثواب المؤمن هنا ، وهو ثواب الاقامة في الجنة : « ... فيها أنهار من ماء غير آسن (اي غير راكد ولا فاسد) وأنهار من لبن لم يتغير طعمه (اي لا يعتريه التحول من حال الى حال كما هو وضعه في

---

(١) محمد : ١٢

الدنيا) وأنهار من خمر لذة للشاربين (اي لا تؤدي الى ذهاب العقل ، ولا تسبب صداعاً ولا غثياناً ، بل هي متعة صافية لمن يشربها) وأنهار من عسل مصفى (اي ليست به شوائب غريبة عنه) .. ومعنى هذه الاوصاف في تحديد الجنة : ان بها من المتع المادية مـــا يفوق متع الدنيا في : الكم ، والكيف معاً . فهي تجري في أنهار ، وليست في قوارير ، وهي لا يعتريها أي فساد ، او تحول فيا هي عليـــه ، كما لا تؤدي الى أي ضرر على المدى القريب او البعيد . كما هو شأن ما في الدنيا من هذه المتع .

وبالاضافة الى هذه المتع المادية الكثيرة في حجمها، والجيدة في نوعها.. هناك متعة أخرى بعدها تفوق في كل مـــا لها من خيرات ، وهي متعة معنوية . وتلك هي رضاء الله وغفرانه : « ومغفرة من ربهم » .

وجاء كذلك في وصف عقاب الكافر وهو عقاب الاقامة الدائمة في النار: « كمن هو خالد في النار ، وسقوا ماء حميماً (اي اشربوا ماء شديد الحرارة) فقطع أمعاءهم » . فالكافر يعيش في نار ، وفي داخل بطنه مـــا هو يشبه النار ، وهو الماء الشديد الحرارة .

وفي التقابل بين ثواب المؤمن في آخرته – مع ما قد يتعرض له من حرمان في دنياه من متعها المادية من جانب – وبين عقاب الكافر في أخراه ، مع ما قد يستمتع به من متع الحياة الدنيوية الماديـــة حتى يصل الى مستوى الحيوان في الافراط من جانب آخر .. وفي هذا التقابل بين الوضعين : يؤثر العاقل حتماً من غير شك .. وضع المؤمن ، مهما كلفه ايمانـــه من مشقة في حياته الدنيوية في سبيل ايمانه ، والوقوف بنفسه عند حسن المسعى ، ويعني مع ما تعنيه الآية هنا : مثل الجنة التي وعد المتقون ليست كمثل النـــار التي يخلد فيها الكافرون .

الفصل الثاني

في سلوك الانسان

أ – في دائرة الصراط المستقيم :

التقوى – العمل الصالح – سبيل الله – العدل – الاحسان – الوسيلة – الجهاد – ولي الله – العفو – القناعة – المعروف – الصبر – الابتلاء

التقوى

التقوى في كثير من آيات القرآن الكريم تشير الى معنى : الترك والتجنب، لما هو : باطل في الاعتقـــاد ، ومسيء في المعاملات والتصرفات ، وسيء في السلوك . ولذا : الآيات التي تحكي دعوة الرسل السابقين لأقوامهم تطلب اليهم: التقوى أولاً ، بمعنى : الترك لما كانوا عليه ، كمتهيد لقبول الرسالة في جانبهـا الايجـــابي ، وهي العمل الصالح على أساس من الايمـان بالله وحده . فتقول هذه الآيات :

« اذ قـــال لهم أخوهم نوح : ألا تتقون ؟ »[١] .

« اذ قـال لهم أخوهم هود : ألا تتقون ؟ »[٢] .

« اذ قال لهم أخوهم صالح : ألا تتقون ؟ »[٣] .

« اذ قـال لهم أخوهم لوط : ألا تتقون ؟ »[٤] .

« اذ قـــال لهم شعيب : ألا تتقون ؟ »[٥] .

وفي حديث القرآن عن مهمة داود عليـه السلام يقول : « يا داود : إنا جعلناك خليفة في الأرض ، فاحكم بين الناس بالحق ، ولا تتبـع الهوى فيضلك

---

(١) الشعراء : ١٠٦
(٢) الشعراء : ١٢٤
(٣) الشعراء : ١٤٢
(٤) الشعراء ، ١٦١
(٥) الشعراء : ١٧٧

عن سبيل الله ، ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا ، يوم الحساب » .. الى أن يقول : « أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات .. كالمفسدين في الأرض ، أم نجعل المتقين .. كالفجار ؟ » [1] . فتقضي الآية الأولى من هاتين الآيتين : بأن جزاء الذين ينحرفون عن سبيل الله — وهو سبيل الايمان بالحق — هو العذاب الشديد يوم الحساب ، أي في الآخرة. وتجيء الآية الثانية هنا لتوضيح : أن هذا الجزاء هو العدل بعينه ، ولكن في صورة منطقية ومقنعة . وهي صورة : التفرقة في الجزاء بين المفسد في الارض ، والمؤمن الذي يعمل عملاً صالحاً ، وبين المتقي وهو الذي يترك الجرائم الاجتماعية كلها من : زنا ، وسرقة ، وقتل ، كما يترك الباطل في الاعتقاد من الوثنية والخرافة ، وذلك الآخر الذي يقابله ، وهو : الفاجر الذي ينحرف عن الطريق المستقيم في السلوك والهداية معاً . فوضع المفسد في هذه الآية : في مواجهة المؤمن الذي يعمل صالحاً ، كما وضع المتقي : في مواجهة الفاجر المنحرف . ومن هذا الوضع ، وهو وضع التقابل ؛ يفهم : أن التقوى هي ترك الانحراف ، والباطل ، سواء في الاعتقاد ، أو السلوك .

ومن أجل ذلك ، ترد في آيات أخرى ، كلمة : التقوى ، بهذا المعنى والمفهوم ، وهو مفهوم الترك والتجنب للباطل — في اقتران مع عمل ايجابي آخر طبقاً للايمان بالله وحده ، كشرط لرضاء الله سبحانه . نقرأ مثلاً قوله تعالى : « وإن تؤمنوا ، وتتقوا فلكم أجر عظيم » [2] . وقوله : « وان تحسنوا ، وتتقوا ، فان الله كان بما تعملون خبيراً » [3] . وقوله : « وان تصلحوا ، وتتقوا ، فان الله كان غفوراً رحيماً » [4] .. فالايمان في آية ،

---

(١) ص : ٢٦ — ٢٨

(٢) آل عمران : ١٧٩ .

(٣) النساء : ١٢٨

(٤) النساء : ١٢٩

والاحسان في آية أخرى ، والاصلاح في آية ثالثة هنا ، في مقابل : التقوى فيها جميعها .. يشير الى العمل الايجابي ، بينما : التقوى تشير فقط الى : الترك والتجنب . وقلما يكتفي القرآن في حسن قبول الانسان عند الله بالتقوى وحدها . بل يضيف اليها : العمل الصالح ، وهو العمل الايجابي المثمر ، ممثلا في الايمان او التصديق ، او ممثلاً في الاحسان ، او ممثلاً في الاصلاح ، كما نرى هنا .

والمتقي اذن هو الذي يترك الموبقات ، والفحشاء والمنكر ، والاعتقاد الباطل. ولكي يكون مقبولاً عند الله لا بد أن يعمل -بجانب ذلك الاتقاء- عملا صالحاً قائماً على الايمان بالله وحده ، ومتبعاً فيه هدايته .

ولكن لأن ترك الفحشاء والمنكر والاعتقاد الباطل يحتاج ممن يتركها الى عزم قوي ، وارادة نافذة ، وصبر وتحمل .. كان دور المتجنب لها دوراً أساسياً عند الله . ولذا : عظم شأن المتقي ، وشأن التقوى في التقدير ، وفي العرف معاً .

العمل الصالح :

في القرآن الكريم آيات عديدة تتحدث عن : « العمل الصالح » وعن طبيعته او حقيقته . وفيما يتجلى من هذه الآيات ، يقصد بالعمل الصالح : تطبيق مبادىء الايمان بالله وبرسالة الرسل ، وهي رسالة الاسلام دين الله : منذ ابراهيم.. الى محمد بن عبدالله ، عليهما الصلاة والسلام : « ان الذين آمنو والذين هادوا ، والنصارى . والصابئين ؛ من آمن بالله واليوم الآخر ، وعمل صالحاً ، فلهم أجرهم عند ربهم ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (١) .

فهذه الآية وضعت جميع الطوائف على عهد الرسول عليه الصلاة والسلام ،

---

(١) البقرة : ٦٢

أمام موقف واحد، اذا ما طلبت أي منها : الاطمئنان على حياتها ، واللحاق بالمقربين الذين لم تفت عليهم فرصة النجـــاة . وهذه الطوائف هي : طائفة المؤمنين بالقرآن ، وطائفة اليهود ، وطائفــــة النصارى ، وطائفة الصابئة ، وهي تلك التي كانت تعبد النجوم والكواكب : فيما بين النهرين ، وما وراءهما والموقف الواحد الذي وضعت أمامه هذه الطوائف لتحقيق الهدف المرجو ، هو : الايمـــان بالله واليوم الآخر ، والعمل الصالح . وهو ذلك العمل الذي يكون وفقاً لهذا الايمان ، وقائماً عليه .

وشرط أساسي اذن في مفهوم العمل الصالح – كما جاء في القرآن الكريم هنا – أن يكون مؤسساً على الايمـان بالله وحده ، وباليوم الآخر . فاذا كان هناك من يؤدي عمل المؤمنين في استقامته ، دون أن يكون مؤمنـــاً بالله وباليوم الآخر ، فلا يكون عمله عندئذ عملاً صالحاً . ولانطواء العمل الصالح على ضرورة الايمان بالله واليوم الآخر ، قد يكتفي القرآن في بعض آياته عن ذكر لفظ : الايمان بالله واليوم الآخر ، بذكر العمل الصالح وحده . كما جاء في قول الله تعالى : « قل : انما أنا بشر مثلكم ، يوحى إلي : أنما إلهــــكم إله واحد ، فمن كان يرجو لقاء ربه : فليعمل عملاً صالحاً ، ولا يشرك بعبـادة ربه أحداً » [1] .. فذكرت الآية صراحة : العمل الصالح ، كأمر يتطلب حتماً : الايمان بالله ، وباليوم الآخر مسبقاً ، ولم تذكر : الايمـــان صراحة ومباشرة ، وان كان يمكن أن يؤخذ الايمـــان بالله من قوله : « ولا يشرك بعبادة ربه أحداً » .. كما يمكن أن يؤخذ الايمان باليوم الآخر ، من قوله : « فمن كان يرجو لقـــاء ربه » ولكن بطريق غير مباشر . والاكتفاء بذكر العمل الصالح عن الايمـــان : اعتماداً على : أن العمل الصالح يتطلب ضرورة تأسيسه على الايمان المزدوج : بالله وحده ، وباليوم الآخر .

---

(١) الكهف : ١١٠

واذا حكى القرآن نداء الله الى الرسل ، بقوله : « يا أيها الرسل : كلوا من الطيبات ، واعملوا صالحاً ، اني بما تعملون عليم » [1] .. فلم يذكر في هذا النداء : طلب الايمان مع العمل الصالح : فذلك ليس لأن من مهمة الرسل : الايمان بالله واليوم الآخر أولاً ، وبالضرورة. ولكن مع ذلك -بالضرورة أيضاً- لأن العمل الصالح لا يكون صالحاً ومقبولاً عند الله إلا اذا ارتبط بالايمان ، وصار في حركته طبقاً لمبادىء هذا الايمان .

وقوله تعالى : « من عمل صالحاً فلنفسه ، ومن أساء فعليها » [2] .. لا يقصد هنا بالعمل الصالح : العمل المستقيم في ذاته ، كما لا يقصد بالعمل السيء: العمل السيء في ذاته . وانما الايمان ضرورة في كيان العمل الصالح ، وعدم الايمان ضرورة كذلك في مسمى العمل السيء ، وان كان له طابع الاستقامة .

ان ضرورة الايمان بالله واليوم الآخر في مفهوم العمل الصالح ، لأن من لم يؤمن بالله وباليوم الآخر ، مع العمل الصالح .. يستحيل أن يكون ما يأتي به من عمل ، على طول الزمن ، لمصلحة الآخرين ، كما هو لمصلحته . اذ طبيعة عدم الايمان بالله كمركز للقيم العليا - وهي قيم يتقرب اليها المؤمنون وتحقق المصالح العامة للناس جميعاً - قد تدفع الى الايمان بالذات ، وبالسعي في سبيلها : اما وحدها ، او مع قسط ضئيل جداً في سبيل الآخرين معها لفترة ما. وهنا يتجه عمل المؤمن بذاته وبأنانيته .. الى أن يكون عملاً ذاتياً ، او أنانياً. ومثل هذا العمل لا يكون صالحاً . بل يكون عملاً سيئاً .

.. يستحيل على غير المؤمن بالله أن يكون غير مادي . ومن يكون مادياً يقوم عمله على المقابلة ، والمبادلة المادية وحدها ، وينكر كل علاقة بينه وبين الآخرين لا تقوم على هذه المبادلة ، حتى علاقته بالأسرة ، وبالوالدين فيها . ومن ينكر

---

(١) المؤمنون : ٥١
(٢) فصلت : ٤٦

الروابط الانسانية في العلاقات ، ويذشد الجانب المادي وحده فيها ، ينكر : كل معنى انساني ، وكل قيمة من القيم العليا . وادعاء : أن مثـل هذا المنكر للروابط الانسانية : انه يسلك في عمله ، طريق المصلحة العامة له وللآخرين معه ، انما هو كادعاء اجتماع النقيضين ، كالمـــاء والنار في مكان واحد وفي وقت واحد .

الايمان بالله هو تحول في واقع الأمر من الأنانية الى الجماعيــة الانسانية . وبقدر عمق الايمان بالله واليوم الآخر في نفس المؤمن ، بقدر تمشي عمــــله مع الخط المستقيم لصالح الجماعة والأمة .

والعمل الصالح اذن ، هو : تعبير مجسد عن هذا الايمان العميق في نفس المؤمن . ولذا : أصحاب العمـل الصالح : لا خوف عليهم ، ولا هم يحزنون . ليس في آخرتهم فحسب ، وانما مع ذلك في دنياهم . اذ هم يعيشون لغيرهم ، قبل أن يعيشوا لذواتهم .

سبيـــــل الله :

ان المتتبع لآيات الله في كتابه الكريم ، فيما عبرت به هذه الآيات : عن « سبيل الله » .. يجد : أن الكفر بالله وعدم الايمان به ابتعاد عن سبيل الله: « أم تريدون أن تسألوا رسولكم ، كما سئل موسى من قبل ؟ ومن يتبـــدل الكفر بالايمان فقد ضل سواء السبيل »[1] .. فالآية قد جعلت تحدي الماديين الوثنيين بمكة على عهد الرسول ﷺ لرسالته ، وكفرهم بوحدانية الله ، ضلالاً وانحرافاً عن سواء السبيل . وسواء السبيل — او السبيل السوي المستقيم — هو سبيل الله . ويجد أيضاً : أن اتباع هوى النفس وشهوتهـا ضلال وبُعد أيضاً عن سبيل الله . ففي نداء الله لداود عليه السلام بقوله : « يا داود : إنا

---

(١) البقرة ، ١٠٨ .

جعلناك خليفة في الأرض ، فاحكم بين الناس بالحق ، ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ، ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب »[1] .. ففي نداء الله هذا : يربط بين اتباع الهوى والضلال عن سبيل الله .. أي يربط بين السلوك الأناني ، والانحراف عن الخط المستقيم الذي هو سبيل الله .

.. ويجد كذلك : أن الشرك بالله وجعل أنداد له ، ابتعاد عن سبيل الله : « ألم تر الى الذين بدلوا نعمة الله كفراً ، وأحلوا قومهم دار البوار .. الى أن يقول : وجعلوا لله أنداداً ليضلوا عن سبيله ، قل تمتعوا فان مصيركم الى النار »[2] .

.. ويجد أيضاً : أن اتباع الظن والكذب في السلوك والمواقف ، انحراف عن سبيل الله : « وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً ، لا مبدل لكلماته ، وهو السميع العليم . وان تطع أكثر من في الارض يضلوك عن سبيل الله ، ان يتبعون الا الظن ، وان هم الا يخرصون »[3] . فإذ ينهى الرسول عليه الصلاة والسلام عن مخالفة كتاب الله الى رأي اتباع الناس مهما كثر عددهم ، فانما يربط بين رأيهم ، واتباع الظن او الكذب فيه . واتباع الظن او الكذب هو تجنب للصراط السوي ، وهو صراط الله .

وهكذا :

الكفر بالله ،

واتباع الهوى والأنانية ،

والشرك بالله ،

---

(١) ص : ٢٦

(٢) ابراهيم : ٢٨ — ٣٠

(٣) الأنعام : ١١٥ — ١١٦

واتباع الظن او الكذب .. انحراف وابتعاد عن سبيل الله . وسبيل الله اذن هو : سبيل الهداية ، وسبيل الايمان ، وسبيل التضحية من أجل الايمان، وسبيل المصلحة العامة .

سبيل الله هو السبيل الانساني المهذب الذي يرتفع فيه الانسان في معاملة الآخرين عن : النفاق والانتهازية ، وعن الأنانية والاستغراق في الشهوات والمتع المادية ، وعن التخمين والتصورات التي قد لا تصيب الواقع . والذي يسلك سبيل الله هو : من يحب غيره كما يحب نفسه .. وهو من يصارح غيره ويكون مرآة له ويرى فيها عيوبه .. وهو من يتبع العلم واليقين في مواقفه من الآخرين .. وهو – قبل ذلك كله – من يؤمن بالله وحده ، دون أن يشرك معه أحداً سواه : في الاحترام ، والتقديس ، والعبادة . إذ من يؤمن بالله وحده لا ينافق انساناً آخر معه ، ولا يخدعه ، ولا يؤثر ذاته بالحب وحدها ، دون الآخرين في محيط وجوده .

سبيل الله هو : هداية الله التي سجلها في كتابه الكريم ، وأوحى به الى رسوله محمد بن عبدالله ، عليه الصلاة والسلام.. هو رسالة الاسلام ، الذي هو السلام بين الناس على هذه الارض .

العـــدل :

ان هدف رسالة الاسلام –منذ ابراهيم .. الى محمد عليهما الصلاة والسلام– أن يكون المجتمع البشري في سلام واطمئنان في العلاقات التي بين الناس . وذلك بأن يمارس العدل في قوة بنائه وتماسكه : ان في القول ، أو في الحكم، أو المصالحة ، أو في الشهادة ، أو في المعاملة ، بجانب استخدام القوة المادية التي للحديد في المنعة ضد الاعتداء ، واستخدام منافعه في صالح التعمير والرخاء . وتقول الآية الكريمة في توضيح هذا الهدف : « ولقد أرسلنا رسلنا بالبينات ،

١ — « وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط (أي بالعدل) »

٢ — « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ، ومنافع للناس ، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ، ان الله قوي عزيز »[١] .. فكما ان الله جعل الحديد مصدر القوة المادية ، جعل كذلك : كتاب الله مصدر القوة المعنوية ، وهي العدل . وباقتران القوتين معاً فيما عبر عنه القرآن بالانزال هنا: « وأنزلنا » .. لا يتحقق سلام في مجتمع بشري ، ولا اطمئنان فيه اذا وجدت فيه احدى القوتين دون الأخرى . فاذا وجد « العدل » وحده — دون القوة المادية التي للحديد في استخدامه واستخلاص منافعه — لا يأمن المجتمع وقوع الاعتداء عليه من خارجه ، كما لا يأمن الأفراد فيه وقوع التنازع والتخاصم فيما بينهم ، بسبب التخلف في الجوانب الاقتصادية ، التي لا يساعد فيها إلا منتجات الحديد ذات الأهمية في التطور الصناعي . واذا وجد الحديد وحده — دون «العدل» — كان الطغيان وكان الظلم ، تسنده قوة لا تعرف التوجيه في ذاتها . وانما تعرف فحسب أن توجه . ويتوقف الانتفاع بها على أن توجه من مرشد ، هو الانسان العادل .

وأياً وجدت احدى القوتين دون الأخرى ، فان كتاب الله — الذي أنزل مع الحديد — لا يكون مطبقاً تطبيقاً كاملا ، ويكون المجتمع الذي يأخذ بواحدة من هاتين القوتين دون الأخرى قد آمن ببعض الكتاب وكفر بالبعض الآخر . وعندئذ يبتعد المؤمنون فيه عن أن يكونوا قريبين من الله القوي ، العزيز . فتعقيب الآية بقول الله : « ان الله لقوي عزيز » : يرشد المؤمنين بالله الى أن يلتمسوا القوة ، والعزة التي هي في مباشرة العدل ، والانتفاع بالحديد معاً . فإذا ما التمسوها وأصبحوا أقوياء ، كانوا عابدين حقاً لله الذي هو القوي العزيز . فالله لا يرضى عن عباده الضعفاء . وإنما يرضى فقط عن

---

(١) الحديد : ٢٥ .

أولئكم الذين يحاكون صفاته عن طريق عبـــادتهم اياه في : سلوكهم ، وفي مواقفهم ، وأفعالهم . ومن صفاته القوة والعزة .

والعـــدل في ضروبه المختلفة تشير اليه آيات القرآن ، فيما يقوله الله عز وجل :

أ – فيقول في شأن العدل في القول : « واذا قلتم فاعدلوا ، ولو كان ذا قربى » [١] .

ب – ويقول في شأن العدل في الحكم : « واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » [٢] .

ج – ويقول في شأن العدل في المصالحة : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحو بينهما فان بغت احداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى أمر الله ، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ، إن الله يحب المقسطين » [٣] .

د – ويقول في شأن العدل في الشهادة : « وأشهدوا ذوي عدل منكم ، وأقيموا الشهادة لله » [٤] .

ه – ويقول في شأن العدل في المعاملة المالية : « وأوفوا الكيل والميزان بالقسط » [٥] . ويقول أيضاً : وأوفوا الكيل اذا كلـــتم ، وزنوا بالقسطاس المستقيم » [٦] .

---

(١) الانعام : ١٢٥
(٢) النساء : ٥٨
(٣) الحجرات : ٩
(٤) الطلاق : ٢
(٥) الإسراء ، ٣٥
(٦) النساء ، ١٣٥

وفي الوقت الذي يأمر فيه القرآن بالعـــدل – وعلى الأخص في هذه الجوانب ينهى أيضاً عن أن يتأثر الانسان في مباشرته للعدل :

أ – بالغضب فيقول : « ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى » .

ب – وبالهوى والرغبة فيقول : « فلا تتبعوا الهوى ، أن تعدلوا » [١] .

جـ – وبالتحيز بسبب العقيدة فيقول : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ، أن تبروهم وتقسطوا اليهم » [٢] .

ولكن لا يستطيع الانسان أن يباشر العدل بين الناس في ضروبه المختلفة : في القول ، والحكم ، والمصالحة ، والشهادة ، والمعاملة ، ولا يستطيع كذلك أن يتخـلى عن الغضب ، والهوى ، والتحيز في مباشرته أياه ، اذا لم يكن هو « عادلاً » في نفسه بين مقتضيات بدنه ، وتوجيه حكمته وعقله .. اذا لم يكن معتدلاً في سلوكه وتصرفاته .. اذا لم يكن متوازناً بين ذاته من جانب ، والآخرين معه في المجتمع من جانب آخر .. لا يستطيع ذلك اذا كان « أنانياً » او « انتهازياً » او « مادياً » او « منفعياً ومصلحياً » .

ان مباشرة العدل بين الناس يحتاج الى انسان عرف العـدل ، وطبقه في حياته الخاصة أولاً . والعدل – كقيمة من القيم العليا – لا يختلف عن « الحكم » و « الدين » ان دخل أي منهما مجال الاحتراف فانه يكون أسوأ ما تمنى به البشرية . وهنا كان أمر الله لرسوله الكريم : « وأمرت لأعدل بينكم » [٣] .

---

(١) النساء ، ١٣٥

(٢) الممتحنة ، ٨

(٣) الشورى ، ١٥

الاحسان :

يروج بين المسلمين في معنى « الاحسان » : أنه العطاء للمال لصاحب الحاجة . انتهى أمر الاحسان في التطبيق بين المتأخرين منهم .. الى : أنه منح القليل للعاجز ، أو لصاحب العاهة . وأصبح أمره في تقدير المجتمع المعاصر ينطوي على مهانة ومذلة لمن يمنح هذا القليل . ومن أجل ذلك يعمد هذا المجتمع المعاصر الى التشريع ، فالتنفيذ بالقوة الالزامية في سد حاجة المحتاج باسم « الضمان الجماعي » أو بأي اسم آخر . . ويفاخر هذا المجتمع المعاصر كذلك بأنه يحتفظ للمواطن بكرامته الانسانية عن طريق هذا التشريع . ولكن اذا قرأنا قول الله تعالى في سورة الليل : « والليل اذا يغشى . والنهار اذا تجلى . وما خلق الذكر والأنثى . ان سعيكم لشتى : فأما من أعطى واتقى . وصدق بالحسنى . فسنيسره لليسرى . وأما من بخل واستغنى . وكذب بالحسنى . فسنيسره للعسرى »[1] .. اذا قرأنا هذه الآيات نجد ان الاحسان ، او الحسنى ، أعم من العطاء للمال . نجده هنا : يشمل العطاء والتقوى ، كما تذكر الآية : « فأما من أعطى واتقى » . وقول القرآن بعد ذلك : « وصدق بالحسنى » هو تعقيب على العطاء والتقوى معاً . وهذا النوع من الناس الذي يعطي المال ويتقي – مع تصديقه وايمانه بالاحسان – أمره ميسر في حياته وفي آخرته . لا يحقد عليه انسان معه في حياته ، وعمله مقبول عند الله في آخرته . لأنه امتثل لما أراده الله منه في شأن المال وفي شأن السلوك الانساني معاً .

وفي مقابل هذا النوع : النوع الآخر الذي يمسك عن العطاء ، ويستغني بماله عن تقواه وعمله الصالح ، مع تكذيبه وانكاره لمبدأ الاحسان ، فان أمره يصير الى العسر والشدة في حياته وآخرته: « وما يغني عنه ماله اذا تردّى »

---

(١) الليل ، ١ – ١٠

.. أي سقط في أزمة في حياته ، أو انتهى أمره الى الموت في آخرته . فالحقد يحيط به من كل جانب ، والمذلة من أجل جمع المـــال تسقط كرامته في دنياه ، ثم هو في آخرته لا ينال الحسنى من الله ، لأنه خالف ما أمره به في المال والسلوك .

وكذلك اذا قرأنا بعض آيات القرآن التي تصف عملاً للمؤمنين بالاحسان ، كما في قوله : « الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين » [1] . فان هذه الآية تعقب بقوله : « والله يحب المحسنين » ونقصد بالمحسنين أولئكم المؤمنين الذين يتصفون بالانفاق فيما يسر وفيما يدفع الضر والشدة ، وبأنهم يكظمون غيظهم عندما يساء اليهم شخصياً من غيرهم ، وبأنهم يعفون ويتسامحون عن هفوات هؤلاء . فأدخلت الآيـة : كظم الغيظ ، والعفو عند المقدرة عن الناس ، بجانب الانفاق في سبيل المصلحة العامة ، في صفات المحسنين . وهنا شمل الاحسان ما ليس بعطاء من المال .. شمل موقفاً كريمـاً مهذباً للانسان المؤمن ، وهو موقف الكاظم لغيظـــه من اساءة غيره ، وموقف الذي يتسامح للآخرين ، مع قدرته على الجزاء ورد الاساءة بالاساءة .

وكذلك الشأن إذا قرأنا ما يوجهه القرآن الى المؤمنين في قوله :

١ — « ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النـار ، وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون .

٢ — « وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفـاً من الليل ، ان الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين .

٣ — « واصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين » [2] .. نرى هذه الآيات

---

(١) آل عمران ، ١٣٤

(٢) هود : ١١٣ ، ١١٥

الثلاث تصف : موقف المؤمنين من أعدائهم بما يجب عليهم :

من عدم الركون اليهم والثقة فيهم ،

ومن مباشرة الصلاة في أوقات مختلفة من النهار والليل ،

ومن الصبر والتحمل على مناوشة الأعداء الى أن يتمكنوا من دفعهم .. تصف هذا الموقف من المؤمنين بالاحسان . تصفه مرة فيما تقول آية : « ان الحسنات يذهبن السيئات » . وتصفه مرة أخرى الآية : « فان الله لا يضيع أجر المحسنين » .

ومع ذلك ليس أداء أي عمل من هذه الأعمال عطاء للمال الى محتاج اليه . وانما ما يطلب من المؤمنين هنا في هذه الآيات الثلاث : هو موقف نفسي – كعدم الركون ، وعدم الثقة بالأعداء ، والصبر والتحمل لمناوشتهم – أو عبادة يتصل بها العابد بربه ، أو كاقامة الصلاة في بعض أوقات النهار والليل.

واذا انتقلنا الى نوع آخر من الآيات التي تدعو الى الاحسان في التعبير ، كما في قوله تعالى : « وقل لعبادي يقولوا : التي هي أحسن ، ان الشيطان ينزغ بينهم ، ان الشيطان كان للانسان عدواً مبيناً » [1] .

.. أو الى الأحسان في الجدل والنقاش كما في قوله : « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن ، إلا الذين ظلموا منهم ، وقولو آمنا بالذي أنزل الينا وأنزل اليكم ، وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون » [2] .

.. أو الى الاحسان في رد التحية على نحو ما تذكر الآية : « واذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها » [3] .. اذا انتقلنا الى مثل هذه

---

(١) الاسراء ، ٥٣

(٢) العنكبوت ، ٤٦

(٣) النساء ، ٨٦

الآيات : نجد الاحسان عبارة عن تهذيب في القول ، والمنطق ، والوجدان ، وليس عطاء المال ، في قليله أو كثيره .

وهكذا لو تتبعنا معنى الاحسان في آيات أخرى ، كتلك التي تحدد المعاملة في الأسرة ، مثل الآية التي تطلب من الأولاد أن يحسنوا الى آبائهم في قوله تعالى : « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا اياه ، وبالوالدين احساناً : إمّا يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ، وقل : ربّ ارحمهما ، كما ربياني صغيراً » [1] .. أو الأخرى التي تطلب من الزوج : الاحسان الى الزوجة عند طلاقها في قول الله تعالى : « الطلاق مرتان ، فإمساك بمعروف أو تسريح باحسان » [2] .. لو تتبعنا مثل هذه الآيات لوقفنا على أن معنى « الاحسان » الى الوالدين هو ما شرحته بقية الآية التي طلب فيها الاحسان اليهما في قوله : « إما يبلغن عندك الكبر : أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ، ولا تنهرهما ، وقل لهما قولاً كريماً . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ، وقل رب ! : ارحمهما ، كما ربياني صغيراً » . ومضمون ما طلب هو : رعاية الشعور النفسي ، وتوفير الاحترام لهما ، اكثر من انفاق المال عليهما .. ولوقفنا أيضاً على أن معنى « الاحسان » الى الزوجة عند طلاقها ومفارقتها نهائياً هو : معاملتها معاملة انسانية كريمة في الاحتفاظ بكرامتها وتوفير معنى الاحترام لها ، أكثر من تقدير (المتعة) لها ، وهي النفقة القصيرة الأجل بعد طلاقها .

وهكذا « الاحسان » .. المطلوب من المؤمنين في القرآن الكريم يتعدى عطاء المال الى التهذيب في المعاملة ، وفي النطق ، وفي المخاصمة ، وفي المواقف التي تتخذ قبل الآخرين .. نجده : السلوك الانساني في مستواه الرفيع .

---

(١) الاسراء : ٢٣ ، ٢٤
(٢) البقرة : ٢٢٩

ولذا كان الاحسان درجة فوق العدل ، ومأموراً به لتماسك الجماعة وبقائها على الصفاء النفسي :

انه الاعطاء حقاً ،

ولكنه اعطاء من الانسانية ، قبل الاعطاء من الماديات ،
وانه التزام من المؤمن لنفسه ، وليس الزاماً من سلطة وراء ذاته .

الوسيـــلة :

يفهم بعض المسلمين مما جاء في قول الله تعالى : « يا أيهـا الذين آمنوا : أتقوا الله ، وابتغوا اليه الوسيلة ، وجاهدوا في سبيله لعلكم تفلحون » [١].. يفهم من تعبير الآية بـ : « الوسيلة » : أن الوسيلة هي : « الوساطة » بين الانسان والله .. وأنهـا وساطة مجسمة في شخص حي يرزق ، أو ميت : يقصد بالزيارة في قـبره ، في المناسبات أو في فترات متقطعة . وكأن المؤمنين يتوسل بعضهم ببعض الى الله ، وأنه يكفي في القربى الى الله : أن يتوسط انسان لإنسان .

ومعنى الوسيلة على هذا النحو ، من : الوساطة ، يتعارض مع قول القرآن الكريم في آية أخرى : « من عمل صالحاً فلنفسه ، ومن أساء فعليهـا ، وما ربك بظلام للعبيد » [٢] . إذ هذه الآية تبرز معنى المسئولية الفردية . أي تبرز : أن عمل الانسان هو الذي يقربه الى الله إن كان عمـلاً صالحاً ، وهو نفسه الامر الذي يبعده عن الله إن كان عمـلاً سيئاً . والقربى الى الله حينئذ لا تكون إلا بالعمل الصالح المستقـيم لمن يباشره ، دون أن تتحقق بوساطة شخص آخر ، مهما كانت درجته في التقوى والايمان : « ومن يأته مؤمناً

(١) المائدة : ٣٥
(٢) فصلت ، ٤٦

قد عمل الصالحات ، فأولئك لهم الدرجات العلى »[1] .

والاسلام يحارب الشرك والوثنية ، لأنه يقصد من محاربتها الى رفع : « الوساطة » بين الله والناس ، ويريد أن يسوي بينهم جميعاً في موقفهم : أمام الله . والناس جميعاً : كما هم متساوون في الاعتبار البشري ، هم أيضاً متساوون في المسئولية الفردية عن أعمالهم . إذ على أساس من هذه المسئولية الفردية يكون جزاء الله لهم . وهو جزاء متنوع بين : رضاء الله وجنته ، وغضبه وجحيمه . وفي تنوع جزاء الله حسب تنوع أعمال الناس .. لا يكون الله ظالماً لأحد ممن يقع عليه جزاؤه ، إن بالرضا ، أو بالغضب عليه. لأن نوع الجزاء مرتبط بنوع العمل : « وما ربك بظلام للعبيد » .

والوسيلة التي جاءت فيهذه الآية - كما جاءت في آية أخرى فيالكتاب الكريم - هي العمل الصالح وحده الذى يأتي به المؤمن ، والذي هو مسئول عنه . والآية هنا ، وهي قول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا : اتقوا الله ، وابتغوا اليه الوسيلة ، وجاهدوا في سبيله لعلكم تفلحون » .. تطلب الى المؤمنين أولاً : أن يتقوا الله ، أي يتجنبوا غضبه . وذلك بترك المحرمات ، وبالأخص: ترك الجرائم الاجتماعية منها ، وهي : القتل ، والسرقة ، والزنا ، وثانياً : أن يبتغوا اليه الوسيلة ، أن يباشروا العمل المستقيم ، وهو العمل الانساني الذي يفيد الانسان والآخرين معه ، ولا يؤذي أحداً منهم ، والذي من شأنه أن يعود على الأمة بالترابط وبالقوة وبالعزة والمنفعة ، وعلى وجه أخص : يباشروا الجهاد في سبيل الله : بدفع الاعتداء عن الأمة ، وعنقيمها العليا التي آمنت بها .

وعلى هذا النحو لمفهوم « الوسيلة » : ما جاء في الآية الأخرى من قول الله تعالى : « قل : ادعوا الذين زعمتم من دونه ، فلا يملكون كشف الضر

---

(١) طه ، ٧٥

عنكم ولا تحويلا . أولئك الذين يدعون : يبتغون الى ربهم الوسيلة — أيهم أقرب — ويرجون رحمته ، ويخافون عذابه ، انعذاب ربك كانمحذوراً[1].
فالآية الثانية في هاتينالآيتين : تندد بمن يعبدون غير الله من أفراد الانسان. فبينما يتجه هؤلاء العابدون لغير الله بعبادتهم الى بعض أفراد الانسان ، إذا بذلك البعض الآخر الذي يتجه اليه بالعبادة يسعى هو بالعمل الصالح الى ربه، ويبتغي اليه الوسيلة ، وهي القربى بهذا العمل الصالح . وهذا معنى قوله : « أولئك الذين يدعون (أي هؤلاء الذين يتجه اليهم بالعبادة) يبتغون الى ربهم الوسيلة (أي يسلكون الى الله طريق العمل الصالح) ويرجون رحمته ، ويخافون عذابه » . فأي الفريقين هنا أقرب الى الله ؟ : أذلك الفريق الذي عبد من غيره ، وهو نفسه يتقرب الى الله بالعمل الصالح ؟ أم ذلك الفريق الآخر الذي وقف بعبادته عند بعض أفراد الانسان ، دون الله ؟ : « أيهم أقرب » ؟ .

وهكذا : الوسيلة هي العملالصالح – وليست الاستناد الى شخص آخر – في القربى إلى الله .

الجهــاد :

إن مفهوم الجهاد — فيما تذكره آيات عديدة من القرآن الكريم — مرتبط بسبيل الله.. مرتبط بنشر مبادىء الدين، أو بالدفاع عنها . يقول الله تعالى: « إنما المؤمنون : الذين آمنوا بالله ورسوله ، ثم لم يرتابوا ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله (أي عملوا جاهدين عن طريق انفاق أموالهم ، أو بذل طاقاتهم البشرية في تأييد الدين ونشره) أولئك هم الصادقون (أي في ايمانهم) »[2] .. يقول الله ذلك في توضيح : أن من نتائج الايمان الصادق

---

(١) الاسراء : ٥٦ ، ٥٧

(٢) الحجرات : ١٥

بذل ما يملك المؤمن من مـال ، او جهد انساني : ابتداء من أي مستوى .. الى التضحية بالنفس ، في سبيل الدعوة الى الدين وقيمه .

ويقول أيضاً في سبيل الدفاع عن الدين وقيمه عندما يعتدى عليها : « أذن للذين يقاتلون (أي أذن للمؤمنين الذين يقاتلهم أعداؤهم بسبب تمسكهم بالايمان بالله .. ان يقاتلوهم ويردوا اعتداءهم) بأنهم ظلموا (أي وسبب اذن الله لهم برد الاعتداء عليهم . انهم ظلموا بالاعتداء عليهم ولم يكونوا هم البادئين به) وان الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا: ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس : بعضهم ببعض لهدمت صوامع (وهي أماكن الرهبان) وبيع (وهي أماكن العبادة للنصارى) وصلوات (وهي أماكن العبادة لليهود) ومساجد يذكر فيهـا اسم الله كثيراً . ولينصرن الله من ينصره ، ان الله لقوي عزيز . الذين ان مكناهم في الأرض : أقامـوا الصلاة وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر، ولله عاقبة الأمور»[1] .. فهذه الآيات تأذن للمؤمنين بالقتال - كمرتبة من مراتب الجهاد - لرد الاعتداء، والدفاع عن مبادىء الدين ورسالته ، وفي الوقت نفسه تستهدف ممارسة الحياة الاسلامية وفق تلك المبادىء ، ان مكنوا وانتصروا على أعدائهم .

فشرط أساسي في الجهاد : أن تكون الغاية منه هي الدين ومثله العليا : دعوة ، ودفاعاً ، وتطبيقاً . واسترداد المؤمنين أرضهم وديارهم التي أخرجوا منها ،عن طريق الجهاد،ليست لذاتها ، وإنما ليباشروا عليها حياتهم الاسلامية من جديد ، ويحققوا فوقهـا قيمهم العليا التي أتى بها الدين . ومعنى ذلك : ان وجوب الجهاد وعده من صفات الايمان ، ان تعلق بأرض الوطن .. يتعلق بها لأنها موطن المسلمين ، ولأنها أرض يعلن المؤذن فوقها : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، من قبل ومن بعد .

---

(١) الحج : ٣٩ ، ٤١

واذا كان الدين هو المستهدف أساساً في فريضة الجهاد .. فإن الجهاد ليس بلازم أن يكون قتالاً ، إلا إذا فرض القتال .. فرضه العدو لرد اعتدائه بالحرب او ما يشبه الحرب : فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » [١] .

.. يكون الجهاد بالكلمة والدعوة ،

.. ويكون الجهاد بالقدوة الطيبة ،

.. ويكون الجهاد بإعلان انكار المنكر ،

.. ويكون الجهاد بالسيف والقتال .

وفيما يقوله سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا : هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم . تؤمنون بالله ورسوله ، وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ، ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون » [٢] — في خطاب موجه الى جميع المؤمنين — فيما يقوله الله هنا يؤذن بأن الجهاد له مستويات متنوعة : ففضلا عن أنه بالمال والنفس .. فإن درجات المال ، مختلفة وطاقات النفس عديدة . وإذا كان المال يختلف بالقلة والكثرة في أيدي المؤمنين ، فإن طاقات النفس بينهم تتعدد من : اللسان والقدرة على البيان .. الى القلب وما يملك من المحبة والكراهية .. الى اليد وما تستطيع من ضرب وقتل .. الى العقل وحكمته وابداعه .. كل تلك جوانب متعددة ومختلفة لدى المؤمنين .. ونوع الجهاد كفريضة عليهم يتحدد بالنسبة لكل مؤمن ، حسب ما هو بارز فيه من طاقة ومقدرة .

أما بالنسبة للمؤمنين كأمة فنوعية جهادها في سبيل الله يختلف باختلاف

---

(١) البقرة : ١٩٤

(٢) الصف ، ١٠ — ١١

أوضاعها وعلاقاتها بالآخرين . فقد تفرض على الأمـــة الاسلامية من الآخرين حرب أيديولوجية ومذهبية رداً لتشويه مغرض ودعاية مسمومة ضد الاسلام، وهنا : يكون من اللسان والقدرة على البيان ، وتكون حكمة العقـــل في السياسة . وقد تفرض على هذه الأمة حرب اقتصادية ، وهنا : يكون المال في جمعه من القادرين ، واستثماره عن طريق من لهم خبرة في شئون استثماره والانتفاع به في سبيل مصلحة عامة . وقد تفرض عليها حرب تسفك فيهـا الدماء ، وهنا يكون ابداع العقل في القيادة ، ومـــال القادرين في العدة ، وشجاعة الأقوياء في لقاء العدو في ميدان القتال . وقد يفرض عليها لون من ألوان استعمار القوى – والأمة ضعيفة لا تستطيع المواجهة الصريحة – وهنا تكون كراهية القلوب وبغضاؤها ، وعـــدم قبول النفوس لأي نوع من أنواع التعاون مع المستعمر .

ومشروعية الجهاد إذن هي الطريق الى الحياة : كيف يحتفظ المؤمنون بحياتهـــم ؟ .. كيف يصونون استقلالهم وكرامتهم ؟ .. – واستقلالهم وكرامتهم .. في عدم تبعيتهم لغيرهم فيما يعتقدون ، وفيما يسلكون – كيف يكونون آمنين غير مهددين في أوطانهم ؟ : كيف يكونون أعزّاء وسعداء بثرواتهم ؟ .. كيف يكون بناؤهم لمستقبل مجتمعهم وهم أحرار ؟ .

إن الجهاد ضرورة الحياة . وان ارتباط الجهاد بالايمان بالله وبسبيل الله هو الطريق لبقاء حيويته ولنجاحه أيضاً في آثاره .

ولي الله :

هناك أولياء لله ،

وهناك أيضاً أولياء للشيطان ،

وهناك أولياء للكافرين او الأعداء كذلك .

إن القرآن في حديثه عن أولياء الله يذكر قوله تعالى : ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . الذين آمنوا وكانوا يتقون »[1] .. كما يشير في آية أخرى اليهم بقوله : « وما لهم أن لا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه ، ان أولياؤه إلا المتقون ، ولكن أكثرهم لا يعلمون »[2].. فيحكم على أولياءالله «بأنهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون».. ويصفهم بأنهم : المتقون .. وفي الوقت نفسه ينفي عن المشركين أنهم أولياء الله ، ويحكم عليهم بأن عذابه لاحق بهم لا محالة بسبب عداوتهم للايمان وصدهم عن المسجد الحرام .

ولكي نعرف « المتقين » الذين هم أولياء الله ، والذين هم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .. نتابع النقل عن القرآن الكريم في قوله تعالى :

« ليس البر (أي ليست الهداية ولا اتباع الحق) أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر :

١ ـ « من آمن بالله ، واليوم الآخر ، والملائكة ، والكتاب ، والنبيين ،

٢ ـ « وآتى المال على حبه ذوي القربى ، واليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل ، والسائلين ، وفي الرقاب ،

٣ ـ « وأقام الصلاة ،

٤ ـ « وآتى الزكاة ،

٥ ـ « والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ،

٦ ـ « والصابرين في البأساء ، والضراء ، وحين البأس ،

---

(١) يونس : ٦٢
(٢) الأنفال : ٣٤

« أولئك الذين صدقوا ، واولئك هم المتقون »[1] .. ففي هـذه الآية يصف القرآن التقوى بست صفات ، هي : الايمان ، وانفاق المال مع الرغبة في انفاقه لصالح الأهـل وأصحاب الحاجة في حياتهم اليومية أو في حياتهم الانسانية كالمكرهين على أمرهم في شئونهم وحريتهم، واقامة الصلاة ، واخراج الزكاة ، والوفـاء بالعهد ان اعطوه ، والصبر في الشدائد ووقت الأزمات .

فالتقوى هي : ايمان وسلوك .. هي انسانية تتجلى في الايمان بالله ، وفي رعاية الغير والآخرين ، رعاية نفسية ومادية .. هي حد من الأنانية لإفساح مجال المشاركة في المساندة والمعاونة .. هي طاقة في النفس تحملها دائماً على التفكير والعمل من أجل الغير ، كما تفكر وتعمل من أجل الذات . والمتقي إذن هو ولي الله . والمنحرف عن طريق التقوى هو ولي الشيطان ، او ولي الكافرين . والمتقون ، أو أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . لأن أسـاس الخوف هو الحرص على متع الحياة المادية من الضياع . ولأن الحزن نتيجة لما ضاع فعلاً من متعها . وولي الله – كما وصفته الآية هنا – يعطي من نفسه ومن ماله ، وهو راغب ومحب للعطاء . وهو صابر في البأساء والضراء ، لأنه يعلم أنه يعيش لهدف ، هو : الايمان بالله ، والبقاء على هذا الايمان . ومن ثم لا تلعب متع الدنيا في حياته إلا دور عدم الحرص عليها . فإن جاءت فهي للآخرين معه . وان ولت فلا أسف على ذهابها . وهنا لا يخاف ضياعها، ولا يحزن على فواتها . وكذلك لا يخشى عليهم . لأنه يخشى عليهم من ماذا؟. هـم يعطون الآخرين ، ويعاونونهم على التحرر من : الجوع ، ومن إذلال العبودية في أية صورة من صور الاذلال . والآخرون من أجل ذلك لا يحقدون عليهم . وبالتالي لا يضمرون الانتقام منهم . فهم لا خوف عليهم . ولا يخشى

---

(١) البقرة : ١٧٧

عليهم أيضا ، لأنهم أوفيـــاء بعهدهم ، وأمناء على غيرهم في أعراضهم ، وحرماتهم ، وأماناتهم . ولذا هم مطمئنون . ولا يخشى عليهم من إذلال أعداء الله لهم ، ان وقعوا في أزمة وفي شدة . لأنهم أقوياء ، وأصحاب قدرة على التحمل والاستمرار فيه ، حتى تمر الأزمة . فهم ليسوا قابلين للاذلال بسبب الشدة والضيق .

واذا كان ولي الله هو المتقي ، واذا كانت التقوى صفات تحـــدد السلوك والاتجاه في الحياة : على أساس من هدى الله وكتابه .. فالولاية لله مفتوحة لمن يتقي ، ويتبع كتاب الله وهدايته . وأولياء الله بالأمس لا يتميزون على أولياء الله اليوم .. او في الغد ، إلا في مستوى التقوى . فأكرمهم عند الله أتقاهم ، أي أكثرهم تقى . «ان أكرمكم عند الله أتقاكم » .

وولي الله إذن ليس هو من يخرج عن هدايـــة الله ، ويسقط تكاليفه ، بدعوى : « التميز » والاتصال بالحقيقة ، وعـدم الحاجة الى هـذه التكاليف الظاهرة !! . فرسول الله عليه الصلاة والسلام كان الإمام بين أوليـاء الله ، ومع ذلك فهو : « القدوة » في تطبيق هداية الله والعمل بتكاليفه . وولي الله اذن كذلك : ليس « صاحب الضريح والقباب » وليس « صاحب الرداء المزركش » ، وليس « المدعي للكرامات » ولا « المتحدث عن النفحات » . « ان أولياء الله هم عباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » . ان أولياء الله هم المجاهدون بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، وهم الذين يقون المسلمين من شر الأعداء ، ويقون الاسلام من مادية الشرك وإلحاده . هم : « الذين آمنوا ، وكانوا يتقون » .

العفو .. والصفح :

العفو — كصفة ممدوحة — ليس هو التنازل للآخر عن خوف او جبن .

وإنمـــا هو التنازل عن قدرة على البقاء على عدم الصفح في مواجهة من يعفي عنه . يقول الله تعالى – متحدثاً عن نفسه جل شأنه – في كتابه الكريم : «ان تبدوا خيراً او تخفوه، او تعفوا عن سوء،فإن الله كان عفواً قديراً»[1].. فإنه يصف نفسه بالعفو ، مقترناً بوصفها بالقدرة في اللحظة ذاتها : « فإن الله كان عفواً قديراً » .. ليشير إلى أن صفة العفو في الانسان – وقد طلبه هنا: « او تعفوا عن سوء » – لا تعد فضيلة له او محـــل اعتبار وتقدير ، إلا إذا جاء العفو نفسه عن استطاعة في البقاء على عدمه ، مع تحمل مسئولية التشدد في الموقف .

واذا كان العفو هو التنازل عن قدرة فلا يكون الدافع اليه :هوى النفس. بل يجب أن تدفع اليه اعتبارات تتصل بالمجتمع ، او بظروف من يقع منه العفو :

أ – فمن الاعتبارات التي تتصل بالمجتمع : حاجة من وقعت منهم الاساءة الى معاونة من وجهت اليهم هذه الاساءة . يقول الله تعالى :

« ولا يأتـــل (أي يحلف) أولوا الفضل منكم والسعة : أن يؤتوا أولي القربى ، والمساكين ، والمهاجرين في سبيل الله ،
« وليعفوا ، وليصفحوا ،

« ألا تحبون أن يغفر الله لكم ، والله غفور رحيم »[2] .. فقـــد نسب القرآن الى بعض أصحاب الحاجة من الأقرباء ، والمهاجرين في سبيل الله، ومن عداهم : أنهم شاركوا في اساءة تتصل بأصحاب الفضل واليسار في الأمـــة – وفي مقدمتهم ابو بكررضي الله عنه – فبيّت هؤلاء العزم وعقدوا اليمين

(١) النساء : ١٤٩
(٢) النور : ٢٢

على عـــدم مشاركة أولئكم في أموالهم ، وسد حاجتهم منها . فجاءت الآية تطلب العفو والصفح عن الاساءة التي وقعت ، وتطلب بالتـالي : العودة الى العلاقة التي كانت قائمة قبل . وهي علاقة المعاونة والمساعدة لاعتبار انساني ، هو الرحمة بأصحاب الحاجة في المجتمع . وفي ذلك مصلحة الأمة كلها .

وكان التعقيب في الآية هو : لفت أنظار من وجـه اليهم طلب العفو الى أنهم من غير شك اذا اخطأوا – وهم من بني الانسان وليسوا فوقهم – يودون أن يغفر الله لهم . ثم من جهة ثانية شمل هذا التعقيب لفت أنظارهم : لما عليه الله من صفة : المغفرة والرحمـة : « وكان الله غفوراً رحيماً » . والمؤمن بالله هو من يتقرب الى ذاته الكاملة : بالعمل على أن يتخلق بأخلاقه ، وان يحاكي صفاته في السلوك والمواقف .

ب – ومن الاعتبارات التي تتصل بالمجتمع أيضاً ، في شأن العفو : الابقاء على التماسك فيه ، والمحافظة على قوتـــه في البناء . يخاطب القرآن رسول الله ﷺ بقوله : « فبما رحمة من الله لنت لهم،ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فأعف عنهم ، واستغفر لهم ، وشاورهم في الأمر ، فإذا عزمت فتوكل على الله ، ان الله يحب المتوكلين »[1] .. ويطلب اليه العفو عمن تولى وهرب من المسلمين في « أحد » يوم التقى الجمعان ، حفاظاً على وحدة الامة وقوتها في مواجهة أعدائها ، رغم أن هـــذا البعض الذي دفعه الى التولي : التعجل بالغنائم من الاعداء . ولم يطلب القرآن الى رسول الله : العفو فقط ، بـــل طلب مع ذلك منه استغفار الله لهم ، واشراكهم في الرأي فيما يتصل بشئون الامة ، اشعاراً لهم باعتبارهم وقيمهم فيها ، وتطميناً لنفوسهم . وقد سبق لله تعالى : ان عفى عنهم فيما تحكيه آية اخرى : « ان الذين تولوا منكم

---

(١) آل عمران : ١٠٩

يوم التقى الجمعان ، إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ، ولقـــد عفا الله عنهم ، ان الله غفور حليم » .

وتعقب الآية بوصف الله : بأنه حليم ، بعد وصفه بأنه غفور ، لتفيد : ان هؤلاء الذين اخطأوا يوم « أحــد » بالانصراف الى الغنائم وعدم الثبات في أماكن القتال التي حددت لهم قبل انتهاء الموقعة .. يجب أن تعطى لهم فرصة أخرى لاختبار قوة ايمانهم ، ولا يؤخذون بقبولهم لاغراء الغنائم بعد الجولة الاولى في الميدان . والمصلحة العامة اذن أن يعفى عنهم .

جـ — ومن هذه الاعتبارات كذلك عدم التفريط في حق عام . فقد وجه القرآن لرسوله ﷺ فيما تذكره الآية : « عفا الله عنك ، لم أذنت لهم ، حتى يتبين لك الذين صدقوا ، وتعلم الكاذبين » [1] .. ان الله قد عفى عنه ، وانه ما كان ينبغي له ان يجيب بعض المؤمنين — وهم في حقيقة أمرهم من المنافقين — الى ما طلبوا من القعود عن القتال . فالعتاب الذي يوجهه القرآن الى الرسول — ﷺ — خاص بسياسة الأمة وبمصلحتها في وقت الحرب والقتال. والسياسة الحكيمة في هــذا الوقت : هي التعرف على العناصر الانتهازية في في الداخل التي تضمر العداء للايمان بالله في الواقع ، وتتستر وراء اعلان الايمان ، ولا تتردد في هذا الوقت أن تتآمر ضــــد الامة وسلامة أمنها . والتعرف على هذه العناصر : من حق الأمة والمصلحة العامة ، قبل حق القائد فيها . ولذا لا ينبغي السماح بما يعوق هذه المصلحة .

فعفو الله اذن عن الرســـول : لهؤلاء الانتهازيين بالقعود عن المشاركة في القتال .. كان تطميناً لخاطره فقط . ولكنه أكد حق المصلحة العامة بعتابه . وبتوضيح خطورة الامر ، فيما لو عدل عن السياسة الواجبة الاتباع في هــذا الوقت . وقد كشف امرهم في قوله : « لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً

---

(١) التوبة : ٤٣

لاتبعوك ، ولكن بعدت عليهم الشقة ، وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم ، يهلكون أنفسهم ، والله يعلم : انهم لكاذبون » (١) .

أما الاعتبارات التي تتصل بظروف من يقع منه العفو فترجع الى الرغبة في « رده الصدع » وعدم اتساع شقة الخلاف ، والعودة الى العلاقة التي تقوم على صفاء النفوس » . ومن يعفو عندئذ فهو من المحسنين ، أصحاب التهذيب في انسانيتهم . وقد جاء في وصف أصحاب الاحسان من المؤمنين قوله تعالى : « الذين ينفقون في السراء والضراء ، والكاظمين الغيظ ، والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين » (٢) . فعد العفو عن الناس احساناً ، كالانفاق في السر والعلن ، وكضبط النفس عندما يوجب انفعالها من الآخرين .

ثم – كمبدأ عام – جاء قوله : « وجزاء سيئة سيئة مثلها ، فمن عفا وأصلح فأجره على الله ، انه لا يحب الظالمين » (٣) .. فوعد بمثوبة من عفا عن الاساءة ، ولم يباشر جزاء مماثلا الى اصحاب الاساءة ، مع قدرته عليه ومع أنه من حقه . وفي الوقت نفسه توعد القرآن هنا المعتدي والمسيء : بأنه بعيد عن رضاء الله وحبه : « انه لا يحب الظالمين » . والآية بذلك تحقق العدل ، كما تحقق الصفاء والسلام في العلاقات بين الافراد .

واذن : ليس العفو تنازلاً عن عجز . وليس تفريطاً في مصلحة عامة . وليس العفو لشهوة النفس وهواها . العفو عمل انساني لمصلحة الفرد، ولمصلحة الأمة ممن يستطيع ان يقدمه .

القناعة :

لا يمل الطفل السؤال لوالديه – وحتى لأجنبي عنهما – لحاجة او لغير

---

(١) التوبة ، ٤٢

(٢) آل عمران : ١٣٤

(٣) الشورى : ٤٠

حاجة . فمن خصائص طفولته حب الذات ، او الأنانية . والأنانية من شأنها أن تسعى الى اقتناء ما يقع عليه النظر والى جمعه وتحصيله ولو كان مكرراً ، ولو لم تكن هناك حاجة تدفع الى تحصيله . وأنانية الطفولة من اجل ذلك : هي المصدر في كثير من الأحايين لبكائه او لصياحه ، او لاشتباكه مع أطفال آخرين معه يسعون كذلك الى الاقتناء والتملك في الدائرة التي يعيشون معاً فيهـا .

وظاهرة « الشره » في التحصيل والاقتناء – بغض النظر عن الحاجة او عدم الحاجة – التي تبدو واضحة في الطفولة ، تستمر كذلك بعد الطفولة ، ولكن في صورة مقنعة . ولا يضع لها حداً في تطور مراحـــل الانسان الا تكون عادات اخرى عن طريق الدين والخشية من الله ، والتقرب اليـــه كذلك . وعبادتا الصوم والزكاة لهما دورهما الواضح في الحد من أنانية الانسان ومن دفعـه الى وعي « الوجود المشترك » بينه وبين غيره في مجتمعه وامته . وعن هذا الوعي بالوجود المشترك لا يخفف الانسان من أنانيته ، بالامساك عن « خطف » ما بيد الغير فحسب – كما يفعل الطفل – وإنما يسلك سلوكاً آخر مقابلاً لمسلك الأنانية ، وهو : انه يعطي لغيره ، دون ان يأخذ بديلاً عمـا يعطي .

و « الغصب » الذي يباشره الانسان الذي تجاوز مرحلة الطفولة هو ظاهرة « لشره » الأنانيـة التي تبدو في سن الطفولة ، والتي بقيت رواسبها متمكنة في نفس الغاصب . لأن هذا الغاصب لم يعود على عادات اخرى ، تحمله على الوعي بالوجود المشترك بينه وبين غيره .

و « القناعة » التي يوصف بها الانسان « القنوع » هي : « الرضا » بمـا يقع في يد الانسان القانع وبما يقسم له من متع الحياة . فإذا تطورت «القناعة» الى الرضاء « بما يفي الحاجة » من مـــال القانع كانت القناعة عندئذ خلقاً

انسانياً كريماً .. كانت فضيلة .. كانت امارة قربى الى الله تعالى . فرضاء الانسان بما قسم له في الحياة او بما وقع في يده مما يدفع به الانسان حاجته في الحياة من اجل العيش ، هو في واقع الأمر : رضاء « بقدر الله » جل جلاله : « وانه هو أغني وأقنى » [1] . والرضاء بقدر الله هو طاعة لله وقربى اليه في الوقت نفسه . ولكن الرضاء بما يفي بالحاجة مما يملك القانع مع القدرة على ما فوق الحاجة .. اي مع القدرة على الترف ، هو رضاء عن إرادة ومشيئة ، وليس رضاء عن عجز او فقر . فهو اكثر قربى الى الله ، وهو أدخل في انسانية الانسان، اذا أنفق ما زاد عن حاجته في سبيل الآخرين .. في سبيل حاجاتهم المتنوعة .

وهنا لا يعد البخيل او المقتر على نفسه وأهله ورحمه « قانعاً» اي صاحب رضاء بما يفي بحاجته مع القدرة فوق الحاجة . لأن البخيل يمسك ما زاد عن الحاجة لنفسه – وربما لنفسه فقط – فهو أناني يشبه ذلك الطفل صاحب « الشره » في جمعه لنفسه كل ما يقع عليه بصره ، وان لم تكن له به حاجة . أما ذلك الذي يأخذ قدر حاجته من ماله ويترك الباقي منه لغيره فهو انسان تمكنت منه الانسانية التي تتمثل في الوعي بوجود الآخرين معه وبحقهم في الحياة . وهنا الآن ثلاث صور للانسان في علاقته بما يحيط به من متع الحياة واغرائها :

الصورة الأولى : للطفل في مرحلة طفولته . وهي صورة الأناني الشره في تحصيل ما يستمتع به ، لحاجة او لغير حاجة ،

والصورة الثانية : للانسان الذي تجاوز مرحلة الطفولة ويرضى بما قسم له في الحياة وبما يصيبه من متعها . فهو انسان طيع لله وراض بقدره ،

---

(١) النجم ٠ ٤٨

والصورة الثالثة : للانسان الذي يرضى بما يفي بالحاجة من المـــال الوفير الذي يملكه ، على أن يترك الزائـــد لغيره . فهو لا يرضى عن عجز وفقر ، وإنما عن قدرة وإرادة .. وإنما عن تقرب الى الله وعن مزيد في طاعته .

وهذه الصورة الثالثة تعكس الانسانية وقيمها . لأنه إذا كان الانسان الطفل لم يزل بأنانيته وهواه وغرائزه في دائرة الحيوان فلا يعرف إلا نفسه وذاتـه ، فهذا الانسان الذي يشرك غيره فيما يملك : يوجد الآن في دائرة الانسانية ، التي تقابل تماماً دائرة الحيوان في فصائله المختلفة .

ومن هنا كانت « القناعة » عن مقدرة : تقرب للانسان لما عليه المولى جل جلاله في غناه . فإذا وصف سبحانه نفسه بالغني ، على نحو ما يذكر القرآن الكريم في قوله : « واعلموا ان الله غني حميد » وفي قوله : « ومن كفر فإن الله غني عن العالمين » .. فغناه جلت قدرته غناء ذاتي ، اي أنـــه اكتفى – ويكتفي – في وجوده بذاته ، وليست له حاجة الى غيره .

والذي يقنع عن إرادة بمـــا يفي بحاجته من ماله ، على أن يترك الباقي لغيره ، هو أشبه بأن يحقق لنفسه اكتفاء ذاتياً . انه يوم تكون له حاجة يحاول أن يستغني عن تلك الحاجة ،ولا يسأل غيره . وهو إذ يحاول الاستغناء عن الحاجة وعدم سؤال الغير يستعين بالصبر وبالتحمل . فهو كريم على نفسه، ولا يتركها لمذلة السؤال ان احتاج ، حين يعطي غيره ان ملك .

المعروف :

تأتي كلمة : « المعروف » في آيات عديـــدة في القرآن الكريم ، وتأتي وصفاً : لقول ، او فعل ، او سلوك . ومعناها المشترك فيما تأتي بـه ، هو : غير المنكر في عقول الناس . فإذا وصف بها القول على نحو ما تذكر الآية : « ويقول الذين آمنوا : لولا نزّلت سورة ، فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال ، رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون اليـك نظر المغشي عليه

من الموت ، فأولى لهم : طاعة ، وقول معروف ، فإذا عزم الأمر ، فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم »[1] .. فإن المراد عندئذ بالقول المعروف : القول غير المنكر وغير المستهجن في عقول الناس ، وهو القول الصدق . ولذا كان التعقيب في هذه الآية : « فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم .. اذ عندما سأل المنافقون : سورة في القرآن يحدد فيها طلب القتال من المؤمنين ، كانوا كاذبين مع أنفسهم فيما طلبوه . بدليل : انهم عندما طلب القتال بالفعل – عن طريق الوحي – ذهلوا ونظروا الى الرسول عليه الصلاة والسلام نظرة الخائف المرتعد من الموت : « فإذا أنزلت سورة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض (وهم المنافقون) ينظرون اليك نظر المغشي عليه من الموت ». ولذا : كان نصح القرآن اليهم : ان يلتزموا الطاعة فيما يؤمرون به ، ان كانوا مؤمنين حقاً ، كما يحرصوا على أن يكون قولهم معروفاً ، اي غير منكر في عقول الناس . وهو القول الصدق المعبر عن الحقيقة : « فأولى لهم : طاعة ، وقول معروف »

واذا جاءت – كلمة المعروف – وصفاً لفعل ، كما في قول الله تعالى : « وابتلوا اليتامى حتى اذا بلغوا النكاح ، فان آنستم منهم رشداً ، فادفعوا اليهم أموالهم ، ولا تأكلوها اسرافاً وبداراً أن يكبروا ، ومن كان غنياً فليستعفف ، ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف ، فإذا دفعتم اليهم أموالهم فأشهدوا عليهم ، وكفى بالله حسيباً »[2] .. فالقصد بالأكل بالمعروف ، هو : الأكل غير المنكر في عقول الناس ، وهو الأكل المعتدل ، البعيد عن الاستغلال . إذ نهي الآية فيما تذكر : « ولا تأكلوها اسرافاً ، وبداراً ، أن يكبروا (أي لا تأكلوا أيها الاوصياء أموال اليتامى منتهزين فرصة صغرهم

---

(١) محمد : ٢١

(٢) النساء : ٦

في السن عنـــد مباشرتكم لاستثمارها ، بسبب اسرافكم ووقوعكم تحت تأثير الاتجاه المادي في الحياة) » .. إذ نهي الآية عن عدم المساس بأموال اليتامى على هذا النحو .. يجعل الأصل في الوصاية على هـــذه الأموال : صيانتها وأبعادها تماماً ، عن أن تكون نهباً للضياع في أيـة صورة . وهذا معناه : ان الوصي لو كان في اشرافه على مال اليتيم ، في حاجة لأن يأخذ منه نظير جهده في المباشرة – وليس له من مال خاص ما يعوضه عن هذه الحاجة – فإن أخذه من هذا المال عندئذ : يجب أن يكون أخذاً غير منكر في عقول الناس : « ومن كان غنياً فليستعفف ، ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف » . وغير المنكر في عقول الناس في الأخذ من مال اليتيم : هو الأخذ بالاعتدال، بحيث يبتعد فيه عن معنى الاستغلال .

واذا أتت – كلمة المعروف – وصفاً لسلوك وموقف ، كما في قوله جل شأنــه : « واذا حضر القسمة : أولوا القربى ، واليتامى ، والمساكين ، فارزقوهم منه وقولوا لهم : قولاً معروفاً » [1] .. فموقف أصحاب التركة هنا تجاه الأقرباء ، واليتامى ، والمساكين ، اذا مـا حضروا قسمتها ، هو : اعطاؤهم شيئاً من الإرث ، مصحوباً هـــذا الاعطاء بلين القول لهم . اي مصحوباً بتعبير لا تنكره ولا تستهجنه عقول الناس . وهو التعبير اللطيف ، البعيد عن الايذاء المعنوي . إذ العطاء المادي لمن هو في حاجة اليه ، لا يدل على طبيعة خيرة من المعطي ، ولا على انسانية فيه ، ان المعطي آذى بالقول النابي : صاحب الحاجة ، حين يقدم له عطاءه .

وإذا أحال القرآن الحكم على كثير من تصرفات النـــاس ، ومواقفهم ، وسلوكهم ، الى : المعروف .. فإنما يحيله الى العقل العام في الناس .. اي الى

---

(١) النساء ، ٨

ما تتفق العقول على عدم انكاره . ولا شك أن هناك قدراً مشتركاً بين الناس جميعاً يحدد معالم المنكر، وبالتالي يحدد معالم المعروف ضده . والمعروف والمنكر اذن أمران متقابلان : أحدهما مرغوب فيه ، والآخر مرغوب عنه: « كنتم خير أمة أخرجت للناس : تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله »[1] .. فجمعت الآية هنا بين المتقابلين ، مما يمكن أن يحدد مفهوم أحدهما بالضد من مفهوم الآخر .

الصبر :

يتحدث القرآن الكريم في صفات المؤمنين عن صفة « الصبر » في قوله تعالى :

« إنما يتذكر أولوا الألباب :

١ — « الذين يوفون بعهد الله ، ولا ينقضون الميثاق .

٢ — « والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ،

٣ — « ويخشون ربهم ، ويخافون سوء الحساب ،

٤ — « والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم ،

٥ — « وأقاموا الصلاة ،

٦ — « وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ،

٧ — « ويدرأون بالحسنة السيئة ، أولئك لهم عقبى الدار »[2] .. فجعل القرآن الصبر — ابتغاء وجه الله — في مستوى الوفاء بالعهد وعدم نقض الميثاق،

---

(١) آل عمران ، ١١٠

(٢) الرعد ، ١٩ ، ٢٢

وفي مستوى صلة الرحم والأقارب والجيران ، وفي مستوى الخشية من الله في كل عمل يعمل وفي نية تنتوى ، وفي مستوى إقامة الصلاة ، وإنفاق المال في سبيل الله سراً وعلناً ، وفي مستوى دفع الاساءة بالاحسان والتهذيب وكرم النفس . وجعل الذي يرعى هذه الصفات ويتعود عليها من أولي الألباب ، وأصحاب الحكمة في السلوك الانساني ، ثم له في الآخرة الجزاء الأوفى .

هل الصبر ابتغاء وجه الله هو الاستسلام للمذلة والمهانة ؟

هل هو السكوت عن عدم فاعلية ، وعدم استطاعة بشرية ؟

أم هو ضبط النفس والتحمل في سبيل أداء ما يجب أداؤه ؟.. أم هو الصبر ابتغاء وجه الله فيتحمل صاحب الرسالة في سبيل أداء رسالته ، ورب الأسرة في رعاية أسرته وتوجيهها ، وصاحب الوظيفة في أداء واجب وظيفته ، والقاضي في سبيل تحري العدل ، والحاكم في سبيل إحقاق الحق وإقرار الطمأنينة والأمن ، والفرد في سبيل سيطرة حكمته على هواه ، والأم في سبيل رعاية أولادها وسلامة صحتهم وعقولهم .. وهكذا ؟

ان التعامل مع الآخرين في مجال الحياة المشتركة كما يحتاج إلى التروي يحتاج إلى الهدوء والسيطرة على الأعصاب ، كي يكون أسلوب المعاملة غير ضار بأحد . والصفة أو الطبع الذي يوفر للانسان الهدوء والسيطرة على الأعصاب هو الصبر ابتغاء وجه الله .. أي هو التحمل في سبيل النفع العام وتحقيق المصلحة العامة المشتركة . وعندئذ يكون الصبر صفة في مستوى الصفات الأخرى التي أشادت بها الآيات السابقة ، والتي لا توجد فعلاً إلا إذا كان المتصف بها يحد من أنانيته ، ويحد كذلك من مطالب ذاته في مصلحة الآخرين .

وهنا الاستسلام للمهانة ، والسكوت عن عجز وعدم فاعلية .. لا يتصل أي منها بصفة الصبر ، ولا بالطاقة على التحمل .

الصبر – كصفة فاضلة – يتطلب القدرة .. القدرة على الاحتمال وضبط النفس . يتطلب ممارسة وتدريباً على السيطرة على هوى النفس وانفعالاتها ، وعلى الرجوع إلى العقل والتروي في مواجهة الشدة والأزمة أو في مواجهة المشاكل ، لتحليلها والوقوف على النتائج التي تترتب على كل اتجاه أو موقف فيها . ولذا كان توجيه القرآن للرسول ، عليه الصلاة والسلام عند مباشرته الدعوة للاسلام ، يقوم على أمرين :

أولاً – على العمل على صفاء النفس بقيام الليل وتلاوة ما نزل من القرآن فيـــه :

وثانياً – بالصبر على المعـــارضين لرسالته والمنكرين له ، في تهذيب وإنسانية . على نحو ما جاء في سورة المزمل : « إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلا (وهو الوحي بالقرآن) . ان ناشئة الليل هي أشد وطأ وأقوم قيلا » . ثم يقول : « واصبر على ما يقولون (أي ما يقول الأعـداء) واهجرهم هجراً جميلا (أي ليس فيه إيذاء لك ولا لهم) » .

فمنذ بدء الدعوة إلى الرسالة كان «الصبر» مطلوباً من الله لرسوله الكريم ، ومأموراً به اياه . لأنه عامل رئيسي في النجاح ، وفي دفع الهزيمـة . ولكي يؤكد القرآن أهمية الصبر في النجاح ، يأتي قوله مخاطباً المؤمنين : « ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين » . فصفة الصبر لا تجعل العـدد القليل عند اللقاء والمواجهة يساوي في القوة : العدد الكثير ، بل تجعله يتفوق عليه . ولذا يكون النصر للجانب الذي صبر مع قـلة عدده ، ضد الجانب الآخر مع كثرته العددية .

ان القوة المعنوية هي أشد فعالية من القوة المادية ، لأنها في حقيقة الأمر هي قوة الانسان . والقوة الانسانية هي دائماً قوة نافذة ومستمرة لغيرها . وفي كل ما ينصح به الاسلام في سبيل القوة يركز على القوة المعنوية والانسانية في الدرجة الأولى : « يا أيها الذين آمنوا : استعينوا بالصبر والصلاة ان الله

مع الصابرين . ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله ، أموات ، بل أحياء ولكن لا تشعرون ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ، ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ، وبشر الصابرين . الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا : إنا لله وإنا إليه راجعون» [1] .. فهو ينصح بالصبر والصلاة في القتال في مواجهة الأعداء . وينصح بالصبر والصلاة في مواجهة أزمات الحياة والشدة ، التي تطرأ بسبب الخوف ، والجوع ، ونقص الأموال والأنفس والثمرات .. ثم يعد بالنصر في القتال ، وباجتياز الأزمات والشدائد في سلام ، لأولئكم الصابرين . ويخص الصبر بالذكر هنا لا لأن أهميته تفوق أهمية الصلاة في الانجاح ، ولكن فقط ليؤكد أهمية الصبر ودوره في الانقاذ في النجاة ، ثم الاستمرار في الحياة .

انه ينصح المؤمنين بالصبر والصلاة ، لأن في كل منهما شد للعزيمة في المواجهة : في الصلاة يذكر المؤمن : الله والايمان به . وفي الصبر يتذكر: أنه ابتغاء وجه الله . فلا دنيا تتسلط عليه ، ولا بدن يشده إلى مطالبه . وإنما الانسانية في قوتها تواجه القتال ضد أعداء الانسانية ، وتواجه الأزمات المادية .

ان الصبر قوة احتمال ، وعزم على الاستمرار في الاحتمال ، وايمان بغايته وهدفه . وهو ابتغاء وجه الله ، ونصرة الحق ودين الله : « يا أيها الذين آمنوا : اصبروا ، وصابروا ، ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » [2] .

الابتلاء :

خلق الانسان في هذه الدنيا لرسالة خاصة . وليست هذه الرسالة في : أنه يوجد فترة من الزمن ثم ينتهي أمره ، وليست : أنه يحيا ويموت ، دون

---

(١) البقرة : ١٥٣-١٥٦
(٢) آل عمران : ٢٠٠

أن تكون له مهمة وراء خلقه ، ووراء حياته وعيشته في الحياة في دنياه : « تبارك الذي بيده الملك ، وهو على كل شيء قـــدير . الذي خلق الموت والحياة ، ليبلوكم : أيكم أحسن عملا » [١] .. فهيئت للانسان أسباب الحياة ، ثم أسباب الموت بعدها ، ليمارس الانسان نشاطاً معيناً في حياته - غير نشاط المحافظة على بقــائه بالأكل والشرب ، والنسل - هو نشاطه الانساني ، كي يمكن أن يظهر تفاوت الافراد والجتمعات في مباشرة هذا النشاط وأدائه ، ودرجة مستواه : « ليبلوكم : أيكم أحسن عملا » .

وفيما تذكره سورة الانسان في قول الله تعالى : « إنا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه ، فجعلناه سميعاً بصيرا . إنا هديناه السبيل : امـــا شاكراً ، واما كفوراً » [٢] .. يتضح تكوين الانسان وطبيعته في خلقه ، كما يتضح الهدف الحقيقي من تكوينه على نحو معين ، وهو يختلف فيه عن الطبائع الأخرى المخلوقة معه في كون الله ، سبحانه جل شأنه . فالآيـــة الأولى من هاتين الآيتين تشير إلى نمط تكوين الطبيعة الانسانية ، وأنها تكونت أولاً : تكويناً مادياً من نطفة مختلطة مما للذكورة والأنوثة الانسانية معـاً . وأنها ثانياً : أعدت بوسائل الادراك لما يحيط بها من وجود وعـــالم خارجي عن ذاتها . وفي مقدمة هذه الوسائل : السمع ، والبصر . وبهذا التكوين الثنائي : المادي ، والعقلي ، كانت طبيعة الانسان طبيعة وحيدة في عـالم المخلوقات . ولتفردها عما سواها : أعطيت للانسان الخلافة والقيادة في عالم الوجود الذي يعيش فيه .. والآية الثانية منها تشير - لكي يؤدي الانسان خلافته ، ويسير بقيادته لعالم ما يعيش فيه : في هدى - وفي غير حيرة - تشير إلى هداية الله له في رسالة رسله ، بعد ما تبين من التجربة التي مر بها آدم وحواء في الجنة ، أن : العقل البشري وحـــده غير كاف في التبصير بطريق الحق والصواب

---

(١) الملك : ١-٢

(٢) الانسان : ٢-٣

دائماً . إذ مع اعداد الانسان بالعقل في طبيعته ، ومع معاونته بعد ذلك بهداية الله في رسالته ، قد يجنح الانسان ، ويضل عن الحق ، كما قد يتجنب الصواب، تحت تأثير الجانب المادي في خلقه وتكوينه: « إنا هديناه السبيل: اما شاكراً ، واما كفوراً » .

وإذن الانسان في حياته الدنيا : مطلوب منه أن يسلك السبيل الذي يليق بانسانيته ، ويتميز به عن المخلوقات الأخرى .. مطلوب منه : أن ينشد الحق في ذاته ، والصواب في ذاته ، وأن يجنب ذاته طغيان ماديته التي تتمثل : في هواه ، وشهوته ، على عقله .. مطلوب منه : أن يسترشد بهداية الله ، مع عقله ، نحو الحق ، ونحو الصواب . ومع ذلك ليس معصوماً عن الخطأ فيهما . ولكنه يبذل جهده في السعي نحوهما ، والوصول إليهما .

وهنا : كان الانسان في حياته في الدنيا .. إلى موته ، في وضع الممتحن، والمختبر ، والمبتلى ، الذي قد يخفق في امتحانه واختباره وابتلائه ، وقد ينجح فيها :

١ – في حياة الانسان يوضع الانسان أمام المغريات التي تجذبه نحوها ، وهي الخير والنعم ،

٢ – ويوضع كذلك أمام الشدائد والأزمات التي تثير اليأس وفقدان الأمل ، وهي الشر ، والفقر والحرمان . وهو إذ يوضع أمام الخير والنعم ، يطلب منه : أن لا يطغى بخير الله ونعمه من : مال ، وأولاد ، وجاه ، ورياسة في قومه . كما يطلب منه أن يرعى حق الآخرين معه في الحياة ، كما يرعى حق ذاته من هذه النعم والخيرات ، سواء بسواء . وإذ يوضع أمام الشر والمصائب ، والفقر والحرمان ، يطلب منه : الصبر وعدم اليأس من رحمة الله . كما يطلب منه : أن يرعى من معه في وجوده وعلى نحو من وضعه، فلا يشيع بينهم : الجزع والقلق ، ولا عدم الثقة في تدبير الله .

والانسان إذن مبتلى بالشر والخير : على السواء : « كل نفس ذائقة

الموت ، ونبلوكم بالشر والخير ، فتنة ، وإلينا ترجعون »[١] .

قد يبتلي الله الأنفس بالحرب والقتال ، ليظهر مدى تضحيتها وتحملها في سبيل الايمان ، وليوضح درجة كل نفس في مستوى التضحية والتحمل : « ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم ، والصابرين ، ونبلو أخباركم »[٢] . والحرب شر ، والقتال شر . على معنى أن النفوس لا تقبل عليه ، كما تقبل على نعم الدنيا ، وأنها تتهرب منه بوسيلة أو بأخرى . ولكن لا مفر من أن يوضع الانسان أمامه، اختباراً لقوة ايمانه ، وجديته في الحياة، وامتحاناً لتحمله في سبيله .

وفي القتال من أجل الايمان بالله ، كان يمكن للمولى جلت قدرته أن يكون في صف المؤمنين ، وأن يجعل النصر حليفهم ، لا يهزمون أبداً . ولكن عندئذ لا يكون القتال ابتلاء وامتحاناً لإيمان المؤمن ، لأن النجاة مضمونة فيه للمؤمن آنئذ ، والهزيمة مكفولة فيه للأعداء كذلك . وبما ان الانسان وضع في حياته أمام : الخير والشر ، سواء، لتتميز الأفراد والجماعات في موقفها من كل منهما ، وفي نوع السلوك الذي تسلكه : أهو سلوك يتلاءم مع إنسانية الانسان، أم هو سلوك ينزل بالانسان إلى درجة المادية والحيوانية فيه .. من أجل ذلك كان نصر الله مكفولاً فحسب لأصحاب اليمين .. أصحاب المستوى الانساني الكريم : « .. ولو يشاء الله لانتصر منهم (أي من الأعداء) ولكن ليبلو بعضكم ببعض ، والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم »[٣] .

وقد يبتلي الله الأنفس كذلك بصور أخرى من صور الشر . فيبتليها بضياع الأموال ، أو بموت النفوس العزيزة التي يحرص الناس عليها كحرصهم

---

(١) الانبياء : ٣٥
(٢) محمد : ٣١
(٣) محمد : ٤

على الأموال ، أو بايذاء الأعداء ايذاء معنوياً تضعف الطاقة الانسانية على تقبله . ومن شأن هذه الصور من الابتـــلاء بالشر : أن تزحزح النفوس عن ثباتها ، وتخلق فيها القلق على الحياة في غدها ، قبل يومها . فالذي يضيع ماله بسبب حادث من الأحداث يتصور : أن مستقبله قد ضاع ، لأنه فقـد سنده في الحياة . والذي يتولى الموت خطف عزيز عليه كان يوصل إليـــه منفعة ، أو تترقب فيـــه المنفعة العاجلة أو الآجلة ، قد يغلب عليه الوهم والتخيل فيعتقد ، أنه نفسه قد ضاع ، وأصبح بلا أمل . والذي يؤذى في ايمانه ، وفيما يتمسك به من عقيدة أعز عليه من نفسه ، ان كظم غيظه فقد لا يجد السبيل القريب للتفريج عن ألمه وحزنه ، وان لم يكظم هذا الغيـظ فقد يلجأ إلى الحمق والتهور في التصرف ، تجاه مصدر ألمه وحزنه .

وموقف الانسان من أي من هذه الصور للشر ، هو : الصبر ، والالتجاء إلى الله وحده ، باتباع هدايته في السلوك ، والاستقرار في طريق الحق ،دون غيره . ومن يصبر ينل . ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ، ولو بعـد حين : « لتبلـــون في أموالكم ، وأنفسكم ، ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ، ومن الذين أشركوا أذى كثيراً ، وإن تصبروا وتتقوا ، فان ذلك من عزم الأمور » [١] .. والصبر والتقوى من الأمور التي تحتـاج إلى عزم وإرادة قوية ، ونية صادقة ، يتعود عليها الانسان المؤمن بأداء عبـــادة : الصوم ، وممارستها عدة مرات في حياته .

وقد يبتلي الله الأنفس بزينة الدنيا ، وما هيأه على الأرض من أسبـاب النعم والرخـــاء ، والقوة ، والسيادة ، ليبين للناس أنفسهم : إلى أي نوع يكون موقفها منها : أهو موقف الأنانيين أصحاب الهوى والشهوة ؟. أم هو موقف أولئكم الذين يشكرون الله على نعمه ، باشراك المعدومين،والمحرومين، والضعفاء ، فيما أنعم به الله عليهم ؟ : « إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها ،

---

(١) آل عمران : ١٨٦

لنبلوهم : أيهم أحسن عملا ؟ »[1] .

وقد يكون ابتلاء الله بما أنعم به على فريق من الناس ، لأولئكم الآخرين الذين كان حظهم من متع الدنيا أقل شأناً ، وأدنى منزلة : أهم سيقفون من حظ من أنعم الله عليهم بوفرة ، وفضلهم بنعمهم على من عـــداهم : موقف الحاقدين والحاسدين ؟. أم سيمارسون الصبر والتحمل ، إزاء ما قسم الله لهم من حظ أدنى ، ويبقون على ايمانهم في ثبات ، وعلى توكلهم على الله في ثقة ؟: « هو الذي جعلكم خلائف في الأرض ، ورفع بعضكم فوق بعض درجات : ليبلوكم فيما آتاكم ، ان ربك سريع العقاب ، وانه لغفور رحيم »[2] .. فهنا ثلاث قضايا :

الأولى — خلافة الانسان على الأرض، في أداء رسالة الله في مجتمعه عليها.

والثانية — تفاوت بعض الناس عن بعض في الرزق ونعم الله ، ومتع هذه الحياة الدنيا .

والثالثة — أن هدف هذا التفاوت هو : اختبار لمن أعطي وأنعم عليــه كثيراً ، وكذلك اختبار لمن أعطي أقل ، أو حرم من العطاء .

وهذا الاختبار ينتهي أمره : اما بعقاب الله لمن طغى بعطائه الكثير ، أو قلق ويئس ، بسبب حظه القليل : « ان ربك سريع العقاب » . وامــا ينتهي أمره بزيادة فضل الله لمن شكره على نعمته باشراك الآخرين معـه ، وتفريج كربة المأزوم ، وكذلك من أعسر في فترة حياته ، ان صبر وتحمل وبقي على ثقته في الله .

ولكن موقف الطبيعة البشرية عادة من ابتلاء الله — قبل الأخذ بهداية الله — هو موقف الأنانية : يظن الانسان ان حباه الله بنعم وفيرة : أنهــا

---

(١) الكهف : ٥

(٢) الانعام : ١٦٥

أعطيت له لشخصه . ولذا لا يجعل للغير نصيباً فيها . وان قدر عليه ، وقتر في رزقه يظن كذلك – أو يعتقد – أن الله: استهدف ذاته ، فينعي حظه، ويسلك مسلك الناقمين والحاقدين : « فأما الانسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه ، فيقول : ربي أكرمن . وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه (أي قتر عليه في الرزق) فيقول ربي أهانن »[١] .

ان الانسان في هذه الحياة لا بد وأن يواجه نعماً ، وخيرات ، وعطاء من الله : ان في الأموال ، والأولاد ، والصحة ، والجاه ، والقوة . واما أن يواجه مصائب ، وفقراً وحرماناً ، وشروراً في صور عديدة .

فان واجه الأولى فليشكر الله باقتسام هذه النعم على أصحاب الحاجة ممن معه في أمته ، وتسخيرها في الصالح العام : وان واجه الثانيـــة فليصبر ، وليتحمل في سبيل الضيق والحرج : « فان مع العسر يسرا . ان مع العسر يسرا » . ولا يفقد ثقته في الله أبداً. وهو في كلتا الحالتين حامد لله على: أن هداه للايمان ، وإلى الصراط السوي .

والخير والشر هو بحسب تقدير الانسان وحده . أما الله جلت قـــدرته فلا يبغي في واقع الأمر مما يسمى خيراً أو شراً ، سوى خير الانسان . وحكمته فوق تقدير الانسان وفوق نظرته في أمور الدنيا .

---

(١) الفجر : ١٥،١٦

ب ـ في دائرة الانحراف .. والفساد :

الفحشاء ، والمنكر ـ الجاهلية ـ السفه ـ التبذير ـ الاسراف

الفحشاء، والمنكر :

إذا ذكرت في القرآن الكريم كلمة : « المنكر » — دون: ذكر الفاحشة— فانه يراد بالمنكر : كل جريمة اجتماعية . أي كل جريمة تتجاوز آثارها الشخص الذي ارتكبها ، إلى المجتمع الذي يعيش فيه . فإذا قال الله تعالى : «ولتكن منكم أمة (أي جماعة) يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر » [1] .. فان المنكر الذي يجب أن تنهى عنه الأمة هنا ، هو : جرائم : الزنا ، والقتل ، والسرقة . وهي الجرائم الاجتماعية التي حددت لها حدود خاصة ، فيما جاء في كتاب الله .

وإذا اقترنت : الفاحشة ، بالمنكر ، كما في قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا : لا تتبعوا خطوات الشيطان ، ومن يتبع خطوات الشيطان فانه يأمر بالفحشاء ، والمنكر » [2].. إذا اقترنت الجريمتان ببعضهما —على هذا النحو— كان القصد من الفحشاء أو الفاحشة : جريمة الزنا وحدها ، كما جاء وصفه في قوله : « ولا تقربوا الزنا ، انه كان فاحشة وساء سبيلا » [3] . أما المنكر فيبقى عاماً ، يشمل الجريمتين الأخريين : القتل ، والسرقة .

وهذه الجرائم الثلاث جرائم اجتماعية ، وليست شخصية أو فردية، وان باشرها فرد . فجريمة : الزنا ، جريمة : عرض ، ونسل ، ومسئولية . فان

(١) آل عمران : ١٠٤

(٢) النور : ٢١

(٣) الاسراء : ٣٢

وقعت من شخص مع شخص آخر ، فان أثرهـــا يتعدى الشخصين اللذين اشتركا فيها ، إلى النسل الذي قد يأتي منهما ، بأن يظل الولد غير معروف الأب على سبيل الحقيقة ، أو في المجتمع نفسه . وعدم معرفة الولد لأبيــه يكون سبباً في عدم تحديد المسئولية في شأن رعايته والقوامة عليه . وهنــا ينمو طفل في المجتمع في غير ظل رعاية أبويه ، وفي غير مسئولية معينة من أحد عليه . ولذا يتكون لديه إحساس نحو المجتمع ، يختلف عن أحاسيس الآخرين الذين جاءوا إلى الحياة معه ، ولكن جاءوا في صراحة وعلن وفي غير خفية وتستر ، وفي رعاية أب معروف ، وفي قوامته طوال فترات نموه . وهذا الاحساس المختلف عند الطفـــل الذي لا يعرف أباً له ، هو : إحساس المنبوذ ، أو المشرد . ومن هنا يبتلى المجتمع المعافى حتى الآن ، بمرض اجتماعي ، هو مرض الطفولة المنبوذة ، أو المشردة . والسبب في هذا المرض إذن ، هو : الزنا . ولذا : كانت جريمته جريمة اجتماعية .

وجريمة القتل جريمة : اعتداء على حياة فرد ، وحياة أمة معاً . فالفرد الذي يعتدى عليه بالقتل ليس هو آخر الأفراد الذين يقتلون . وإنما التهديد بالقتل قائم بالنسبة لكل فرد في المجتمع . والمجتمع – ككل – مهدد بالفناء إذا انتشرت هذه الجريمة ، واتخذت وسيلة للقضاء على الخصومة ، أو لاقتناص فرص الحياة ، أو طريقاً للاستيلاء على مال الغير .

وجريمة السرقة اعتداء على مال فرد من جهة ، وعلى منفعـــة الآخرين عداه ، في هذا المال الذي يسرق من جهة أخرى . إذ نظرة الاسلام إلى المال : أنه ، ان أقر فيه الملكية الخاصة ، فانه يربط بهذه الملكية الخاصة ، أداء المال لوظيفته الاجتماعية ، وهي المنفعة العامة للآخرين . على نحو مـا يذكر الله جل شأنه في كتابه الكريم : « والله فضل بعضكم على بعض في الرزق ، فما الذين فضلوا برادي رزقهم على ما ملكت أيمانهم ، فهم فيه سواء (أي فمن يملك ومن لا يملك ، سواء : في مال المالك له : من حيث الانتفاع

به . ولذا لا يمتن صاحب المال على من انتفع بماله ، عن طريق الأجر بالعمل فيه ، أو طريق التبرع له منه) أفبنعمة الله يجحدون ؟ (أي إذا لم تؤد المنفعة العامة للمال ، وكانت قاصرة على مالك المال وحـــده ، عد ذلك : نكراناً لنعمة الله ، ممن حباه الله بها) »[1] .

والسارق ، ان باشر جريمة السرقة الآن ، يحرم صاحب المال من ماله ، ويحرم الآخرين الذين لا يملكون المال ، ولكن ينتفعون بملكية المالك له . وهنا كانت السرقة جريمة اجتماعية .

ومن أجل أثر هذه الجرائم الثلاث على المجتمع كان تعبير القرآن عنهـــا – تنفيراً منها ، وحملاً على عدم ارتكابها – بالفحشاء ، والمنكر ، أو بالمنكر فقط . والفحشاء ليس أمراً مستقبحاً فحسب . وإنما مستوى القبح فيه بلغ نهايته . والمنكر لا ينكره صحيح العقل والبدن وحده . وإنما أمر نكرانه لا يخفى على أحد ، يفرق فقط بين : الضوء والظلام ، والليل والنهار .

وكان تحديد الحدود التي جاء بها القرآن الكريم لهذه الجرائم الاجتماعية ، أمراً على سبيل القطع . حتى لا يكون هناك مجال للاختلاف فيها حسب العهود ، والأمكنة ، طيل حياة الانسان . فان وقع اجتهاد فليس في نوع الحد المقرر . وإنما في الظروف التي تكتنف مباشرتهـــا . « ان الله يأمر بالعدل ، والاحسان ، وإيتاء ذي القربى ، وينهى عن الفحشاء ، والمنكر ، يعظكم لعلكم تذكرون »[2] .

الجاهلية :

يأتي مفهوم : « الجاهلية » في آيات القرآن الكريم يحمل في كل آية منها صفة من صفاته التي تميزه بأنه ظاهرة اجتماعية إنسانية ، قبل أن يكون وقتاً

(١) النحل : ٧١
(٢) النحل : ٩٠

وزمناً خاصاً . فاذا قيل : ان ما قبل بعثة الرسول عليه الصـــلاة والسلام يمثل عصر الجاهلية .. فمعنى ذلك : أنه كانت هناك ظاهرة اجتماعية تغلب على المجتمع البشري ، هي ظاهرة القبلية في علاقات المجتمع ، وظاهرة الأنانية في علاقات الأفراد . واذا كان معنى « الجاهلية » يشير إلى ظاهرة اجتماعيـة خاصة .. فانهـــا تتكرر في وقت لاحق لبعثته عليه السلام ، في كل مجتمع تتوفر فيه عناصرها .

وعناصر مفهوم : « الجاهلية » التي تتجمع من خلال عرض القرآن الكريم في آياته تشكل :

أولاً : اتباع الهوى ، وعدم العدل في الحكم .. أي مراعاة الأحساب والأنساب ، والتفرقة بين الناس حسب منازلهم . يقول الله تعالى : « وأن احكم بينهم (أي بين قبائل العرب جميعاً – وبين الناس كافة) بما أنزل الله (وما أنزل الله هو العدل المجرد) ولا تتبع أهواءهم (أي لا تسر في الحكم وفق ميولهم ، فميولهم متأثرة بالمعاني والعادات القبلية) واحذرهم ان يفتنوك عن بعض ما أنزل الله اليك (وذلك باتباع اهوائهم) فإن تولوا (أي وإن أعرضوا وغضبوا لأنك لم تتبع أهواءهم) فاعلم انما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم ، وان كثيراً من الناس لفاسقون . أفحكم الجاهلية يبغون (أي أيريدون أن يقضي بينهم وفقاً للعادات القبلية ، وهي تلك العادات التي تفرق في الحكم بين منازل الناس الاجتماعية) »[1] .

وثانياً : تشكل الأنفة والغضب ، وعدم الاحتكام إلى العقل والمنطق . يقول الله تعالى : « وهو الذي كف أيديهم عنـــكم ، وأيديكم عنهم ببطن مكة ، من بعد أن أظفركم عليهم ، وكان الله بما تعملون بصيراً .... إلى أن يقول : إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية .. حمية الجاهلية (أي الغضب والحق) فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنـــين وألزمهم كلمة :

(١) المائدة : ٥٢ ، ٥٣

التقوى »[1] .. ففي صلح الحديبية بعد أن اقتنع المشركون بقوة المسلمين المتزايدة ، ووافقوا على أن لا يقفوا في سبيلهم في العام القادم . إلى الحج بمكة ، جادوا عند كتابة العهد بينهم وبين المسلمين ، وأظهروا حمقاً في حذف بعض الصيغ التي كان يمليها المسلمون ، بينما كان مسلك المسلمين مسلك التأني وضبط النفس واتقاء الاثارة وتجنب كل ما يؤدي إلى الفشل ، طالما لا يضار الهدف من عهد الصلح ، وهو الوصول إلى مكة في حج لمناسكها في أمان ، في وقت لم يأن الأوان بعد لفتحها بالقوة واخلاء بيت الله الحرام من الشرك والمشركين . فسمت الآية مسلك المشركين عند كتابة العهد : بحمية الجاهلية وهو مسلك الحمق وعدم تحكيم المنطق ، بينما مسلك المسلمين : بالسكينة أي بالهدوء ، وبالتقوى أي تجنب الاثارة .

وثالثاً : تصور الجبن القائم على تخيل باطل للحياة والموت . وهو ان الخروج إلى ميدان القتال يقرب أجل الانسان إلى الموت ، بينما الاحتماء بعيداً عنه يحول دون ذلك . يقول الله تعالى : « ثم أنزل عليكم من بعد الغم (ضيق النفوس وقلقها بسبب ما حدث للمؤمنين في غزوة أحد) أمنة (أي اطمئنانا) نعاسا يغشى طائفة منكم ، وطائفة قد أهمتهم أنفسهم (وهم المنافقون بين المؤمنين) يظنون بالله غير الحق .. ظن الجاهلية ، يقولون : هل لنا من الأمر من شيء ؟ (أي ليس لنا فيما وقع سبب) قل : ان الأمر كله لله ، يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك ، يقولون : لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا (أي لو أخذ رأيهم لما نصحوا بالخروج إلى القتال في : « غزوة أحد » وبالتالي ما قتل من قتل) قل : لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم (أي قل أيها الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — وبلغهم ، وبلغ الناس جميعاً : أن قضاء الله لا يرد ، ومن كتب عليه الموت فسيلقاه حتماً ، مهما احتاط وحافظ على حياته . فالخروج إلى ميدان القتال

---

(١) الفتح ٢٤ — ٢٦

لا يقرب من أجل الموت ، وكذلك البقـــاء في حماية الدار لا يبعد شبحه) »[١] .. وخاصة الجبن هذه انما تعود إلى الأنانية وحب النفس. واذا سادت في المجتمع فانه يكون مجتمعاً قبلياً أو جاهلياً .

ورابعاً : تمثل الدعوة السافرة من جانب المرأة لإغراء الرجل بها . يقول الله تعالى : « يا نساء النبي لستن كأحد من النساء ، ان اتقيتن فـــلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولاً معروفاً . وقرن في بيوتكن (أي اسكن في منازلكن واحتمين بها من أولئكم مرضى النفوس من الرجال ، خـــير لكن من أن تتعرضن لهم) ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى (أي لا تبرزن مفاتنكن لتغرين بها الرجال . فان ذلك سمة الجاهلية التي لا تعرف تهذيباً ولا سمواً في الانسانية ، ولا ترفعاً عن دنايا الشهوة وانحطاطها) »[٢]..

وباتباع الهوى في الحكم بين الناس .. وبعدم الاحتكام إلى العقل والجنوح إلى الحمق في المعاملة .. وبالجبن القائم على التصور الباطل في شأن الحيـــاة والموت .. وبتفسخ المرأة في عرض نفسها .. تحدد مظاهر : « الجاهلية » في المجتمع . فأي مجتمع تسود فيه هذه الخصائص هو مجتمع جاهلي – في المستوى الانساني – ولو كان مجتمعاً متقدماً في العلم والصناعة . وأي مجتمع آخر يرعى العدل ، ويحكم أفراده العقل في معاملة بعضهم لبعض ، ولا يتهيب أعضاؤه الموت في سبيل الدفاع عن قيمهم العليا ، وتحافظ المرأة فيه على حيائهـــا وكرامتها .. هو مجتمع حضاري في الانسانية ، ولو كان مجتمعاً زراعياً لم يدخل بعد في عصر التصنيع .

---

(١) آل عمران : ١٥٤
(٢) الأحزاب : ٣٢ / ٣٣

السفه :

ترد كلمة : « السفه » في كثير من آيات القرآن الكريم وصفاً للمنحرفين في الاعتقاد عن الصراط السوي . ففي قصة هود : يرميه زعماء قومه بالسفاهة ، فيما يحكيه قوله تعالى : « قال الملأ الذين كفروا من قومه : انا لنراك في سفاهة ، وأنا لنظنك من الكاذبين . قال يا قوم : ليس بي سفاهة ، ولكني رسول من رب العالمين » [1] .. فقد رماه زعماء قومه بالسفاهة اعتقاداً منهم : أنه ضال ومنحرف في دعوته الجديدة ، وهي دعوة التوحيد . إذ هي دعوة تناقض تماماً ما عليه مجتمع من وثنية مادية وشرك . ولذا في رده على الزعماء في المجتمع نفى السفاهة والضلال عنه ، وأعلن أن دعوته هي دعوة رب العالم كله ، وليست دعوة لصنم أو لجملة من الأصنام ، كما هو اعتقادهم .

ويعزز : أن السفه يأتي مرادفاً للضلال في القرآن الكريم : ما تحكيه قصة نوح في قول الله تعالى : « قال الملأ من قومه: انا لنراك في ضلال مبين . قال يا قوم : ليس بي ضلالة ، ولكني رسول من رب العالمين » [2] .. فقد وضع الضلال هنا موضع السفه . والضلال هو الانحراف في الاعتقاد .

وفي الحديث عن المنافقين في ايمانهم – وهم في حقيقة أمرهم كافرون – يحكي القرآن الكريم بعض خصائصهم في قوله : « وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس (أي كأولئكم الذين آمنوا بالفعل بالرسول عليه الصلاة والسلام) : قالوا : أنؤمن كما آمن السفهاء (فاستنكروا أن يكون وضعهم في الاعتقاد كوضع هؤلاء المؤمنين . إذ يرونهم في ضلال وحيرة) ؟ ألا : انهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون (ولذا جاء رد القرآن على استنكارهم بأنهم : هم – وليس

---

(١) الأعراف : ٦٦ / ٦٧
(٢) الأعراف : ٦٠ / ٦١

المؤمنون – على سفه وضلال في الاعتقاد ، بكفرهم وتشبثهم بوضعهم الذي هم فيه) » .

ويأتي السفه أيضاً وصفاً للمنحرفين في تصرفاتهم المالية . وللحيلولة دون الاستمرار في الانحراف في انفاق المال لمن يملكونه : يأمر الاسلام بوضع أموالهم تحت وصاية المسلمين . لأن الملكية الخاصة للمال لا تبرر في نظرته : الانحراف في انفاقه . إذ هو حريص على أن تكون منفعته منفعة عامة ، كما هو حريص على المحافظة على الملكية الخاصة . جاء هذا في قول الله تعالى : « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياما » [١] .. فيطلب القرآن عدم تمكين المنحرفين في انفاق أموالهم : من مباشرة استثمار هذه الأموال والتصرف فيها . وتعلل الآية ذلك : بأنها أموال المسلمين كافة ، التي ارتبط بها كيان وجودهم ومعيشتهم ، وان كانت هي ملكاً لهؤلاء السفهاء : « أموالكم ، التي جعل الله لكم قياما » ..

والانحراف في الانفاق الذي بسببه سمي المنحرف في انفاق ماله .. «سفيها» ، هو انحراف يشبه ما عليه الضال في اعتقاده ، في اثره السلبي على الامة الاسلامية . ومعنى ذلك: اذا لوحظ في وصف الضال في الاعتقاد : بالسفه .. عداوته للمسلمين في ايمانهم وتمسكهم بدين الله ، فيلاحظ كذلك في المالك المسلم الذي يوصف بالسفه لانحرافه في انفاق ماله .. أثر تصرفه في ماله : على اضعاف المسلمين في ايمانهم ودينهم . ويستوي اذن : السفيه بكفره ، والسفيه في ماله .. في الأثر السلبي على الأمة الاسلامية . والفرق بينهما عندئذ هو : ان السفيه بكفره عدو خارجي ، بينما السفيه في ماله عدو داخلي ، وان لم يكن على وعي ويقظة بعداوته الحقيقية لأمته ولدينه .

فالمسلم الذي ينفق من ماله لمعاونة عدو خارجي ، أو لمحاربة دين الله

---

(١) النساء : ٥

بنشر عقيدة ضارة به .. هو سفيه في ماله ، مهما قل ما ينفقه في هذا السبيل ، أو في ذاك .

والسفيه اذن هو المنحرف في انفاق ماله ، بما يضر امته في قوتها ، أو في دينها وايمانها ، ويكون عندئذ وصف تصرفه بالسفه ، قريباً من وصف الكافر بالسفه في ضلاله وفي عداوته لدين الله والمؤمنين به . وإذا كان المبذر المال هو المنفق اياه في الفساد والعبث مهما قل ما ينفقه ، فالسفيه هو المتصرف في ماله بما يؤذي أمته ويضر مالها ، من : دين وقيم عليا ، يترابط أفرادها على أساس منها ، مهما قل ما ينفعه كذلك .

التبذير :

يهتم القرآن الكريم بأداء المال لوظيفته الاجتماعية . وهي : أن ينفق في سبيل المصلحة العامة ولخير الناس جميعاً ، وان كانت ملكيته ملكية خاصة . إذ الملكية الخاصة للمال لا تجعل منه – في نظر الاسلام – مبرراً لانفاقه في الأغراض الخاصة وحدها . وقول الله تعالى : « والله فضل بعضكم على بعض في الرزق ، فما الذين فضلوا برادى رزقهم على مـــا ملكت ايمانهم فهم فيه سواء ، أفبنعمة الله يجحدون » [1] .. يجعل من صاحب الملكية الخاصة الذي يرى : ان منفعتها قاصرة عليه وحده ، وأنه اذا اعطى غيره منهـــا فانه يعطيه مما يملك ، ومما هو له .. يجعله جاحداً وكافراً بنعمة الله : « أفبنعمة الله يجحدون » . وانما الوضع الذي يرضي الله في شأن المال ، هو : كمـــا تذكره الآية هنا : وهو أن الذي يعطي من مال يملكه ، غيره ممن لا يملك شيئاً .. انما يعطيه حقه في واقع الأمر الذي له في مال الله عنده، المستخلف فيه من الواضعين يدهم عليه : « فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيمانهم (أي فما الذين فضلهم الله بملكية المال ان هم أعطوا أتباعهم الذين لا

(١) النحل : ٧١

يملكون شيئاً وأنفقوا عليهم .. لا يعطونهم مما لهم هم في واقع الأمر ، ولا ينفقون عليهم من ملك لهم . انما يعطونهم من مال الله في حقيقته ، وقد استخلفوا فيه فقط . ويدهم على المال عندئذ هي يد الوكيل أو المفوض الذي يجب أن يكون تصرفه طبقاً لما يأمر به موكله ومفوضه) » .

ومن أجل نظرة الاسلام هذه الى المال : في ملكيته ، ووظيفته — وهي ان ملكيته ملكية خاصة ، بينما منفعته منفعة عامة — يرى الاسلام ان الخروج في انفاق المال عن المنفعة العامة ، ولخير الأمة ، ولمعاونة أصحاب الحاجة فيها .. أمر يجب أن يوضع له حد ، بفرض وصاية على صاحب المال الذي انحرف في توجيه الانفاق ، لضمان بقائه في طريق المصلحة العامة وحدها . ومن جوانب هذه المصلحة : رعاية صاحب المال نفسه فيما كان تحت يده من مال : في معيشته ، وسكناه .

وقد ورد في القرآن الكريم في التعبير عن الانحراف في انفاق المالك فيما هو تحت يده من مال : اسم التبذير مرة ، واسم السفه مرة أخرى . وسمي المنحرف في ماله : بالمبذر ، أو بالسفيه .

ففي شأن التبذير جاء قوله تعالى : « وآت ذا القربى حقه ، والمسكين ، وابن السبيل ، ولا تبذر تبذيرا . ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين ، وكان الشيطان لربه كفورا » [١] .. فأمر بأمر ، ونهى عن آخر . فأمر باعطاء القريب وبالأخص الوالدين ، والمسكين — وهو الذي لا يتوفر له من سعيه سد حاجته في المأكل والمشرب والمسكن والملبس — وابن السبيل وهو الذي تطرأ عليه الحاجة أثناء سفره .. أمر باعطاء كل من هذه الأنواع الثلاثة ماعبر عنه القرآن بالحق . وصاحب القرابة اذن ان أخذ معاونة من موسر قريب له فهو يأخذ حقه منه . والمسكين إن أخذ ما يسد حاجته من الموسرين فهو

---

(١) الاسراء : ٢٦ ، ٢٧

يأخذ حقه منهم . وابن السبيل ان أخذ ما يعينه على اتمـام سفره الى غايته فهو يأخذ حقه من القادر على الإعطاء .

أما ما ينهى هنا عنه فهو التبذير : « ولا تبذر تبذيرا » ويفهم منه الآن: أنه الانفاق في غير هذه الأوجه وما يشبهها مما من شأنه أن يعود بمضرة على المصلحة العامة . وبما ان الآية الثانية هنا بعد النهي ألحقت المبذرين بالشياطين، وجعلت الشيطان كافراً بالله ، فالمبذرون اذن هم من أنفقوا من أموالهم : في المفاسد ، والمظالم ، قل أو كثر ما أنفقوه . لأن عمل الشيطان يقاس بنوعه ، وليس بكميته . وكذلك من يحملون على الشيطان ممن ينفقون الأموال في المفاسد يقاس عملهم بنوعه ، وليس بمقدار ما ينفقون. ولذا يحكي الزمخشري في تفسيره الكشاف،عن مجاهد : أن المنفق في ماله ، لو أنفق مداً في باطل كان تبذيراً . والمد هو أدنى وحدة في المكيال .

فإلحاق المبذر بالشيطان – في وصف الشرية – يحدد تصرفه في ماله بما يعود بمضرة وفساد على المصلحة العامة . وهذا ما يعطيه كذلك : التقابـل بين الأوجه التي أمر القرآن بالانفاق فيها هنا ، وبين ما عداها من المقابل لها مما عد تبذيراً .

وليس التبذير اذن هو الانفاق الكثير . لأنه قد يكون حينئذ في أوجه الخير وفي المصلحة العامة. وليس بالتالي أيضاً : مقابلاً للبخل والشح والامساك. انما المقابل لذلك هو : البسط كما جاء في آية تالية : « ولاتجعل يدك مغلولة إلى عنقك ، ولا تبسطها كل البسط ، فتقعد ملوما محسورا » [1] .

والمبذر اذن هو المفسد ، والعابث،والماجن بماله ، ولو بقدر ضئيل منه .

---

(١) الاسراء : ٢٩

الاسراف :

تأتي كلمة الاسراف ، في القرآن الكريم – في كثير من دلالتها – بمعنى : الخروج عن حد الاعتدال في معارضة الايمـــان بالله . والمسرف بهذا المعنى الكثير الشائع فيه ، هو : من يتشدد في معارضته للايمـــان ، ويبالغ في الكفر بالله .

نقرأ قول الله تعالى : « فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه ، على خوف من فرعون وملائهم : أن يفتنهم (أي يصيبهم بأذى) وان فرعون لعال في الأرض (أي لمتكبر ومتعاظم ومتجبر في حكمه وسلطانـــه) وانه لمن المسرفين » [1] .. والمعنى : أن السبب في أن الذين آمنوا بموسى من بني اسرائيل الذين هاجروا إلى مصر واستوطنوها ، كانوا قلة : هو الخشية من طغيان فرعون وعصابته في الحكم . وقد كان طغيانه يعود إلى انه مـــن المسرفين ، أي المبالغين في تحدى الله ورسالته .

.. ونقرأ أيضاً قول الله تعالى فيما يحكيه عن دعوة صالح إلى ثمود فيما تقصه هاتان الآيتان : « فاتقوا الله ولا تطيعوا أمر المسرفين . الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون » [2] .. ولا شك ان الذي يفسد في الأرض ولا يصلح فيها : هو متحد لرسالة الله للانسان على هذه الأرض . والمتحدي لدين الله ، مبالغ في كفره بالله .

.. كما نقرأ ما جاء في قصة الرجل المؤمن من آل فرعون الذي كان يكتم ايمانه في قول المولى جل شأنه : « وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم ايمانه : أتقتلون رجلا أن يقول : ربي الله ، وقد جاءكم بالبينات من ربـــكم (يشير القرآن بذلك إلى تهديد فرعون لموسى ، فيما يحكيه قبـــل ذلك ،

---

(١) يونس : ٨٣

(٢) الشعراء : ١٥١ / ١٥٢

بقوله : « وقال فرعون : ذروني أقتل موسى ، وليدع ربه ، اني أخاف أن يبدل دينكم ، أو أن يظهر في الأرض الفساد » [1] وان يك كاذباً فعليه كذبه ، وان يك صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم ، ان الله لا يهدي من هو مسرف كذاب » [2] . . فالحكم هنا بأن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب : يتناول فرعون أولاً وبالذات ، ثم من هو على شاكلته ومن ملائه . وفرعون وملاؤه كانوا من أشد المعارضين لرسالة موسى وللايمان بالله .

... وهكذا : فيما يحكيه الله عن بني اسرائيل في خضوعهم للاتجاه المادي في حياتهم ، مما كان يحول بينهم وبين الايمان بالله ، رغم تعدد الرسل والأنبياء اليهم : « ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات ، ثم ان كثيراً منهم بعد ذلك في الأرض مسرفون (أي ثم انهم رغم كثرة الرسل اليهم فان عدداً غير قليل منهم مبالغ في تحديه للايمان بالله : في السلوك والتصرفات) » [3] .

.. وعلى هذا النحو ما جاء في قصة يوسف : « ولقد جاءكم يوسف من قبل (أي جاء بني اسرائيل من قبل موسى) بالبينات ، فما زلتم في شك مما جاءكم به ، حتى إذا هلك (أي حتى إذا مات يوسف) قلتم : لن يبعث الله من بعده رسولاً ، كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب » [4] .. والمسرف المرتاب هنا : هم أولئك الذين لم يؤمنوا برسالة يوسف من بني اسرائيل ، وما زالوا في بعد عن رسالته إلى أن توفي .

---

(١) غافر : ٢٦
(٢) غافر : ٢٨
(٣) المائدة : ٣٢
(٤) غافر : ٣٤

وإذا كان الشائع في الاستعمال القرآني : أن الاسراف هو الخروج عن حد الاعتدال في الكفر بالله .. أي هو التحدي والاستمرار في المعارضة لدين الله ، فانه قد يأتي – وهو الأقل القليل – بمعنى : عدم الاعتدال في الانفاق . وعندئذ توجد قرينة دالة على هذا المعنى في كلام الله عليه . كما في قول الله تعالى : « والذين اذا أنفقوا (ويقصد بهم عباد الرحمن) لم يسرفوا ولم يقتروا ، وكان بين ذلك قواما » .. فالاسراف هنا بمعنى عدم الاعتدال في الانفاق . وقرينة ذلك : التعبير بأنفقوا ، ولم يقتروا (أي يمسكوا ويبخلوا) وقواما (اذ القوام هو العدل والتوازن) . وكما في قوله : « يابني آدم : خذوا زينتكم عند كل مسجد ، وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ، انه لا يحب المسرفين » فالاسراف هنا هو عدم الاعتدال في الزينة ، وفي الأكل والشرب ، بقرينة التعبير بهذه الكلمات الثلاث .

.. وعلى هذا النحو يفسر الاسراف في قوله تعالى في شأن اليتيم : «وابتلوا اليتامى (أي اختبروا القصر . والخطاب للأوصياء) حتى اذا بلغوا النكاح (أي بلغوا سن الرشد) فان آنستم منهم رشداً فادفعوا اليهم أموالهم (أي التي هي تحت وصياتكم) ولا تأكلوها اسرافاً ، وبدارا ، أن يكبروا (أي ولا تبددوا الأموال التي تحت أيديكم لليتامى : بالتبذير وعدم الاعتدال في الانفاق منها على أنفسكم ، مستغلين صغر سنهم) ومن كان غنياً فليستعفف ، ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف (أي والمبدأ الذي ينبغي أن يتبع في الانفاق منها مقابل رعاية استثمارها هو : أن الغني من الأوصياء يترفع عن الأخذ منها ، وأن الفقير يأخذ حاجته فقط ، كشأن الأموال العامة واستغلالها) فاذا دفعتم اليهم أموالهم (أي بعد بلوغهم الرشد) فأشهدوا عليهم وكفى

بالله حسيباً »[1] .. فالجو في هذه الآية هو جو مال . وهو من أجل ذلك قرينة على أن الاسراف هنا : بمعنى عدم الاعتدال في انفاق المال .

والآن نتيجة استعمال القرآن لمفهوم الاسراف وما اشتق منه : أن الاسراف في الكثير الغالب من استعمالاته بمعنى : التحدي والمعارضة في الكفر بالله وعدم الايمان به .. وفي الأقل القليل بين هذه الاستعمالات : بمعنى : عدم الاعتدال في الانفاق . وهو بذلك يساوي : التبذير .

(٢) النساء : ٦

حـ ــ في دائرة الأسرة

الزواج ـ العفة ـ قوامة الرجل ـ الاصلاح بين الزوجين ـ زينة المرأة ـ تبرج المرأة ـ الطلاق ـ الافتداء أو الخلع الظهار ـ الايلاء ـ اليتيم ـ المسكين .

الزواج ــ والنكاح

يأتي تعبير القرآن « بالزواج » توضيحاً لنوعية الذكورة والأنوثة في خلق الانسان ، والثنائية بينهما ، امتناناً على الانسان بهذا التنويع . لما فيه من جو الاطمئنان ، ولما يحمل من بث المودة والرحمة المتبادلة . يقول الله تعالى : « ومن آياته : أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً (أي من الذكورة والأنوثة) لتسكنوا اليها (أي لكي يطمئن بعضكم الى بعض ، ويهدأ كل نوع بسبب وجود النوع الآخر معه في الحياة) وجعل بينكم مودة ورحمة (أي وزيادة على الاطمئنان والهدوء : فإن هذا التنويع بين الذكر والأنثى في خلق الانسان يبعث على المودة المتبادلة ، وعلى الرحمة المتبادلة) إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون (أي أن في خلق الانسان على هذا النحو من ثنائية وازدواج لتحقيق الأهداف المرتبطة بهذا الازدواج .. لأمارات واضحة على وحدانية الله في الوجود كله ، كمعبود يستحق وحده ــ دون شريك له ــ العبادة : من الانس ، والجن على السواء . ولكنها أمارات واضحة في دلالتها لأولئك الذين يحكمون عقولهم ومنطقهم الانساني ، والذين يمارسون التفكير في كل ما يرونه او يواجهونه في الحياة) »[1] .

ويأتي تعبير القرآن ايضاً بالزوج : في الأسرة .. بعد أن ورد في خلق الانسان على العموم . يقول تعالى : « وان أردتم (أي أيها الأزواج) استبدال زوج مكان زوج (أي إن اردتم أن تأتوا بزوجة جديدة

---

(١) الروم : ٣١

موضع زوجة أخرى قائمة وموجودة بالفعل) وآتيتم احداهن قنطاراً (أي وأعطيتم مهراً كبيراً له شأن لتلك الزوجة التي يراد استبدالها) فلا تأخذوا منه شيئاً (أي مما أعطيتموه) ، أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً (لأنكم إن أخذتم أدنى شيء منه ، فقد أخذتم في واقع الامر ما ليس لكم .. أخذتم ما هو زور وباطل ، وارتكبتم بذلك : معصية واضحة في مخالفتها لما أمر به الله في حدوده التي حددها للأسرة — ومن تلك الحدود : أن المهر للزوجة مهما بلغ) — »[1] .

فالزوج — كما ورد في هاتين الآيتين — هو الطرف المقابل لطرف آخر يشترك معه في خصائص الانسان ، او يشترك معه في معاشرة أسرية ، وفي بناء وحدة انسانية هي وحدة الأسرة .

وللتعبير عن قيام وحدة الأسرة يؤثر القرآن ذكره بلفظ النكاح ، دون لفظ الزواج . والحديث إذ يكون بلفظ الزواج ، والزوجية في القرآن إنما يأتي بعد عقد النكاح واتمامه بالفعل . يقول الله تعالى : « وإن خفتم : أن لا تقسطوا في اليتامى (تقصد الآية باليتامى هنا : أولاد الذين قتلوا من المسلمين في ذلك الوقت في غزوة : أحد . ولقد طلب الى المسلمين إذ ذاك أن يؤثروهم بالزواج — تضميداً لجراح أسرهم — على شرط أن يكونوا واثقين من حماية مصالحهم وأموالهم بالعدل . والمعنى : وإن خفتم ألا تعدلوا حين طلبكم إتمام عقد النكاح مع اليتامى فانصرفوا عنهم الى غيرهم . وعندئذ :) فانكحوا ما طاب لكم من النساء : مثنى ، وثلاث ، ورباع ، فإن خفتم أن لا تعدلوا فواحدة ، أو ما ملكت أيمانكم ، ذلك أدنى أن لا تعولوا (أي أن الاقتصار على واحدة — في حال عدم ثقتكم بمباشرة العدل بين أكثر من واحدة — هو أقرب السبل للحماية من الوقوع في الانحراف وعمل ما ليس بعدل) »[2]. والنكاح

---

(١) النساء : ٢٠

(٢) النساء : ٣

إذا كان تعبيراً عن قيام الزوجية .. فالزواج هو التعبير عن تواجد الزوجين في حياة مشتركة بينهما .. والزوج هو التعبير عن أحد طرفي هذه الحياة : ذكراً ، أم أنثى على السواء . ويبقى لكل طرف : هذا الوصف – بعد الطلاق أيضاً – حينما يوجه اليه القرآن النداء بأداء ما يجب من التزام عليه نحو الطرف الآخر ، تسوية للوضع الذي كان قائماً بينهما معاً . كما جاء في قوله تعالى : « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً .. يتربصن بانفسهن أربعة أشهر وعشراً »[1] .. فسمى المتوفى عنها زوجها .. زوجاً ، بعد ان انتهت الحياة الزوجية بينهما بوفاة الزوج .

العفـــة :

تعرض آيات القرآن الكريم : للعفـــة .. بالتعبير عنهـا بالاستعفاف . وتعرض لها في مجالين : مجال المـال .. ومجال علاقات الرجال بالنساء . او النساء بالرجال .

ففي المجال الأول ، يقول الله تعالى : « وابتلوا اليتامى (أي اختبروا القصّر من الأولاد) حتى إذا بلغوا النـــكاح (أي حتى إذا وصلوا الى سن البلوغ الجنسي) فإن آنستم منهم رشداً (أي فإن أحسستم منهم عندئذ رشداً وحكـة في تصرفاتهم) فادفعوا إليهم أموالهم (أي فسلموا إليهم أموالهم التي هي تحت أيديكم ، للمحافظة عليها ولانمائها) ولا تأكلوها : إسرافـــاً ، وبداراً أن يكبروا (أي ولا تستولوا على هذه الاموال وهي تحت أيديكم: مرة بسبب الاسراف والتبذير في الانفاق منها.. ومرة أخرى بسبب الاسراع في أخذها قبل تسليمها إياهم في الوقت المعلوم ، وهو وقت الرشد والصلاحية لمباشرة إنماء المال والمحافظة عليه) ومن كان غنيـاً فليستعفف (أي ومن كان غير ذي حاجة الى المال والسعي اليه فليكن ذا عفة .. أي ليكن ممسكاً عن

---

(١) البقرة : ٢٣٤

الوقوع في أكل أموال اليتامى ، بأية وسيلة) » [١] .. فالاستعفاف – أو العفة – أتى هنا بمعنى الامساك عن الوقوع في خطأ .. في حرام .. وفي جريمة . وهي جريمة أكل مال الضعيف ، والاعتداء على حقه في وجوب المحافظة على ما له من مال .

وفي مجال علاقـــة الرجال بالنساء يقول جل شأنه مخاطباً الرجال : «وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً (أي ليمسك ذلكم الرجال الذين لا تتوفر لديهم امكانيات الزواج.. عن الوقوع في جريمة الاتصال الجنسي، وهي جريمة الزنا) حتى يغنيهم الله من فضله (أي .. الى أن يمكنهم الله من الزواج بفضل ما ينعم عليهم من امكانيات تساعدهم عليـــه) » [٢] .. ويقول ايضاً مخاطباً النساء : « والقواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحاً (أي والعجائز من النساء اللاتي لا يتوقعن زواجاً لكبر سنهن وفوات الوقت عليهن) فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن ، غير متبرجات بزينـــة (أي لا يلمن : إذا ما نحين ثيابهن الخارجية جانباً .. غير خليعات، وغير عارضات لزينة أبدانهن) وأن يستعففن خير لهن (اي والاحسن لهن : أن تكن محتشمات .. فتمسكن عما يثير الفضول في النظر اليهن ، وتكن بذلك سبباً في ارتكاب محرم هو النظر اليهن) » [٣] .

فالعفة – او الاستعفاف ، كما جاء به آيات القرآن – هي امساك عن الوقوع في خطأ .. هو تجنب ارتكاب جريمة اجتماعية : فجريمـــة أكل مال اليتيم – وهو الضعيف – جريمة اجتماعية .. وجريمـــة الزنا والتحريض عليه جريمة اجتماعية ، كلتاهما تتعلق بحق المجتمع وحرمة الاعتداء عليه . والاعتداء على مال اليتيم – وهو الضعيف – ليس في نظر الاسلام جريمة اجتماعية ، لأنه اعتداء على ضعيف فيه ، بل لأن مال اليتيم تتعلق به منفعة عامة لآخرين فيه

---

(١) النساء : ٦

(٢) النور : ٣٣

(٣) النور: ٦٠

ممن حرموا ملكية المال ، وهو: حق الزكاة .. والاحسان فيه . وجريمة الزنا يتعلق بها حق المجتمع ، لأنها تتصل بالأنساب والمحافظة عليها . والمحافظة على الأنساب ضرورة اجتماعية لوقاية المجتمع ذاتـــه من الطفولة المشردة ، وعبث أصحابها وميلهم الى الانتقـــام من مجتمعهم الذين يعيشون فيه ، كجزاء على وضعهم الذليل فيه .

وهكذا : العفة – أو الاستعفاف – فضيلة من الفضائل الرئيسية . لأنهـا تتطلب في أدائها أولاً .. مجهوداً نفسياً .. هو مجهود حماية النفس ممـا يغريها ويشدها اليه شداً عنيفاً : من شهوة المال . وشهوة الاتصال الجنسي ، ثم ثانياً لأنها تحقق للمجتمع مصلحة عامة ، وهي الوقاية من الأضرار الاجتماعية .

قوامة الرجل :

جاء في قول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله ، شهداء بالقسط » (١) .. تعبير الآية بكلمة : « قوامين » في أمر المؤمنين برعـــاية دين الله والمحافظة عليه . إذ المعنى : يا أيها الذين آمنوا .. كونوا رعاة لدين الله ، وحفظة عليه ، كما تكونوا ذوي عدالة في شهادتكم .

ومادة الحروف التي تتكون منها كلمة : « قوامين ».. تتكون منها كلمة أخرى ، ولكن بعد تحويل حرف الواو ، الى ياء . كما جاء في قول الله تعالى: « جعل الله الكعبة البيت الحرام « قيـــاماً » للناس » .. أي ملجأ وحصناً آمناً للناس . وكما ذكر ايضاً في قول الله جل شأنه : « ولا تؤتوا السفهـــاء أموالكم التي جعـــل الله لكم قياماً » .. أي جعل لكم حق رعايتها ، والمحافظة عليها ، والاستناد اليها .

فكلمة : قوام ، أو : قيام، تنطوي علىمعنى السند ، والحفظ، والوقاية، والرعاية . وعلى هذا الأساس تفسر : قوامة الرجل على المرأة ، في قول الله تعالى : « الرجال قوامون على النساء » (٢) . ومعنى هـذا التركيب إذن :

---

(١) المائدة : ٨ (٢) النساء : ٣٤

الرجال : رعاة ، وحفظة ، وسند للنساء .

وتستطرد الآية – بعد هذه الجملة – فتقول : « .. بما فضل الله بعضكم على بعض » .. أي أن كون الرجل سند المرأة في العلاقة الزوجية يعود الى ما ميز الله به الرجال والنساء بعضهم على بعض . وذلك : في تكوين الجسم، والإعداد لمواجهة مشقة الحياة ، وتحديات مشاكلها التي قد تدفع الى القتال في الحروب . ولا شك ان الرجل أكثر صلاحية واعداداً من الطبيعة – سواء بتكوين بدنه ، او بتمرسه على السعي في معترك الحياة من أجل الرزق – لمواجهة المشاكل الخارجية ، والتي قد يكون من بينها : الاعتداء على المرأة في أية صورة من صور الاعتداء عليها .

..ثم تستمر الآية في الاستطراد، فتقول: «.. وبما أنفقوا من أموالهم» .. أي وأيضاً : كون الرجل وكل إليه أمر الرعاية للمرأة في العلاقة الزوجية لا يرجع فقط الى اختلاف تكوين الطبيعة البشرية لكل من الرجل والمرأة ، ولكن يعود مع ذلك الى عامل يترتب على اختلاف التكوين : لطبيعة كل منهما . وهو عامل الانفاق والتكفل بالحياة الزوجية . وهو عامل : طلب إلى الرجل وحده أن يباشره ، دون المرأة. لأنه أقدر عليه ، وليس له من طبيعته ما قد يحول ، لفترة تطول وتقصر ، دون القيام به . كما هو شأن المرأة في فترات : الحيض ، والحمل ، والرضاعة ، والحضانة .

وهنا يكون مجمل هذا الجزء من الآية ، وهو قول الله تعالى : « الرجال قوامون علىالنساء ، بما فضل الله بعضكم على بعض ، وبما أنفقوا منأموالهم».. ان الرجل في الحياة الزوجية المشتركة بينه وبين زوجته مكلف من قبل الله جل شأنه برعاية الزوجة وبمسئولية الحياة المشتركة بينهما . وبمسئوليته هذه تتفق مع خصيصته التي هي له بحكم تكوينه . وهي خصيصة لا تشاركه المرأة فيها . إذ أنها خصيصة بناء جسمه : فهو لا يحمل ولا يرضع ما يأتي من ولد: منه ومن زوجته . وهو كذلك – لعدم استطاعتهالحمل والارضاع – أقدر من

زوجته على مواجهة المشقات ، ان طلب اليه السعي في سبيل الرزق للحياة المشتركة مع زوجه .

فتكليف الرجل بمسئولية الحياة الزوجية ، وبرعاية الزوجة فيها ، وبحمايتها من الاعتداء عليها ، أمر طبيعي ، من وجهة نظر الاسلام - وليس فيه - لذلك - عنت عليه ، ولا على الزوجة ايضاً . إذ لو كلفت الزوجة وحدها بهذه الرعاية للحياة المشتركة بينها وبين زوجها ، لشق عليها - على الأقل في بعض فترات حياتها : في فترات الحيض ، والحمل ، والرضاعة ، والحضانة - أن تباشر هذه المهمة . ولو كلف الاثنان معاً بها لاختلفا فيما بينهما اختلافاً مستمراً : في تحديد النصيب الذي يقوم به كل منهما ، او في تقديره . وعندئذ تخرج الحياة الزوجية عن أن تكون : حياة سكنى واطمئنان ، ولانتقلت المرأة حينئذ من دور الزوجة الى دور الشريكة التعسة ، والحاقدة على ما يصيبها من: ضعف ومن هموم ، في سبيل تحديها لزوجها بشأن قيامها بالنصيب المطلوب منها .

إن الزوج اذا لم يقم بهذا الدور الطبيعي ، وهو دور الرعاية للزوجة ومسئولية الحياة الزوجية : أي دور سيكون له في حياته سوى التبطل ، والتراخي ، على حساب الضعفاء وتعاسة الزوجات ؟

وبهذا الوضع الطبيعي لقوامة الرجل في الحياة الزوجية ، لا تحتمل هذه القوامة : معنى الاستعلاء والترفع ، ولا معنى السيادة والتكبر . ان الرجل بهذه القوامة يؤدي دوراً طبيعياً ، كما تؤدي الزوجة دورها الطبيعي في الحمل والولادة ، والارضاع ، والحضانة سواء بسواء ، في غير استعلاء وترفع ، او في غير سيادة وتكبر .

والمنحرف من الأزواج هو الذي يتخذ من مسئوليته عن الحياة الزوجية سبيلا إلى الاستعلاء ، ومركزاً لإهانة الزوجة . والمنحرفة من الزوجات هي

التي تحول دون وضعها ، ودورها الطبيعي في الحياة الزوجية ، فتمتنع عن إنجاب الأولاد ، او عن أرضاعهم ، او عن حضانتهم . إنها إن فعلت ذلك تسيء الى طبيعتها كأنثى ، قبل أن تسيء الى علاقتها بزوجها ، وبأسرتها ومستقبل الأمة .

والخير – إذن كل الخير – في أن يحافظ كل من الرجل والمرأة في الحياة الزوجية على أداء الدور الخاص بكل منهما . لأنه دور طبيعي وفيه تحقيق هدف الحياة الزوجية ، وهو ما يعبر عنه قول الله تعالى « ومن آياته : أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا اليها » . وقوله : « والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ، وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة » . فجعل هذف الزوجية : الاستقرار ، وراحة النفس ، والمعاونة على دفع مشقة الحياة ، ثم النسل في استمرار الانسانية ، ودوام رسالتها .

الاصلاح :

إذا تجاوز الشأن .. الفرد .. إلى غيره في علاقته معه ، فمن المتوقع أن يجد خلاف بينهما .. وربما الى درجة الخصومة .. وربما كذلك الى درجة المقاتلة . وعندئذ: للابقاء على علاقة المودة ، ثم على علاقة الاستمرار في الحياة المشتركة .. كان : « الاصلاح » بين المتخاصمين – او المتقاتلين – ضرورة اجتماعية . وبالأخص اذا كانت العلاقة الثنائية هي علاقة بين الزوجين في الأسرة ، او بين طائفتين – او مجموعتين – في الأمة الواحدة .

وكتاب الله جاء ليوصي بما يبقي للانسان خصائصه الانسانية في سلوكه ، ويدفع عند الانحراف فيما يتميز به عن غيره . ومن أهم خصائص الانسان : ميله الفطري الى الاجتماع : إن في بناء الأسرة ، او في كيان الأمة . ولذا جاءت وصايا القرآن بالاصلاح في شأن الأسرة اذا أضحى الخلاف بين الزوجين يهدد بالقطيعة النهائية . فما أوصى به : قوله تعالى : « وان خفتم شقاق بينهما

(أي ان خفتم بين الزوجين . والخطاب موجه الى المؤمنين ، ممثلين في أولياء الأمر)فابعثوا حكماً منأهله وحكماً من أهلها، ان يريدا اصلاحاً يوفق الله بينهما، ان الله كان عليماً خبيراً »[1]..فالحكم المشترك من أهلالزوج وأهل الزوجة، هو المسعى الحميد لإعادة العلاقة بين الزوجين الى وضعها من : المودة ، والرحمة ، والسكنى . وتوفيق الله في نجاح اصلاح الحكمين بين الزوجين : كفيل بالرغبة الصادقة بين جميع الأطراف المعنية ، وهي : الحكمان ، والزوجان معاً .

وكذلك يعطي القرآن الأولوية : لجانب الزوج ، عندما يراجع زوجته في طلاق رجعي – وهو الطلاق مرة واحدة ، لم تنته عدته بعد – ويستهدف مصلحة الزوجة في ذلك وعدم الاضرار بها : « والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء، ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن، إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر ، وبعولتهن أحق بردهن في ذلك (أي وأزواجهن أولى بردهن وارجاعهن في تلك المدة . ومعنى أن الأزواج أولى بذلك : أنه تستجاب رغبتهم ويؤخذ بها في العلاقة بين الزوجين) إن أرادوا إصلاحاً (ولكن هذه الأولوية للأزواج مرهونة بالرغبة الصادقة لديهم : في الاصلاح ، وعدم إلحاق الضرر بالزوجات) »[2] .

.. والاصلاح المطلوب في الأسرة – كما يعبر عنه القرآن هنا – هو تجنيبها الضرر بسبب الفرقة : سواء باشر الزوج هذا الاصلاح بمفرده عند رد زوجته اليه في الطلاق غير البائن .. او باشره الحكم المشترك باتفاق أهل الطرفين . وليس للاصلاح وضع في العلاقة الزوجية ، اذا لم يكن هناك : خلاف يهدد بالفرقة والانفصال .

---

(١) النساء : ٣٥

(٢) البقرة : ٢٢٨

ويوصي كتاب الله أيضاً : بالاصلاح بين جماعات الأمة وطوائفها اذا هددت الفرقة بينها بالقتال وخروج بعضها على بعض . والاصلاح هنا محاولة كذلك لتجنيب الامـــة خطر : الانقسام ، والحرب الاهلية ، والصراع الطائفي . والمطالب بمباشرة الاصلاح عندئذ : هو الأمة كلها ، وفي مقدمـــة صفوفها : أولياء الأمر فيها . يقول الله تعالى : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا (أي بالفعل،أو هدد وضعهم القائم بالقتال : كشح الاغنياء وامساكهم عن الانفاق، مع ازدياد حال الفقر والحرمـان المحرومين) فأصلحوا بينهما ، فإن بغت احداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى امر الله ، فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعـدل وأقسطوا ، ان الله يحب المقسطين »[1] . والتهديد بالحرب الاهلية ، والانقسام الطائفي : لا يكون سببه فقط : الاعتداء على سلطة الحكم . بل قـــد يكون في مقدمة أسبابه : ثورة أصحاب الحاجة والضعفاء في الأمة ، بسبب عدم وفاء الاغنياء والموسرين بحقهم في مـال الله الذي استخلفوا عليه . والاصلاح بالعدل بين طوائف الأمة عندئذ : يكون بتوصيل هذا الحق اليهم ، وإعادة النفوس إلى صفائها،والروابط الى تماسكها.

ومفهوم : « الاصلاح » – في القرآن الكريم – يرتبط إذن بأمرين : الأمر الأول : خشية وقوع الضرر بسبب الفرقة : ان في الاسرة او في الامة، والامر الثاني : محاولة إزالة هذا الضرر ، وردّ الامر في العلاقات الى الوضع المرجو منها .

زينة المرأة :

يقول الله تعالى : « وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن (أي يقصرن أبصارهن على ما يحل لهن رؤيته من الرجال والنساء . وهو ما فوق السرة .. وتحت الركبة ، كما يقول الفقهاء) .. ويحفظن فروجهن (أي يسترنها) ولا

(١) الحجرات : ٢٩ .

يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها »[1] .. ويذكر بعض المفسرين – كصاحب الكشاف مثلاً – ان: «زينة» المرأة ما تتزين به. وما تتزين به: اما ظاهر يجوز للمرأة ابداؤه: كالحلى، والكحل، والخضاب. واما خفي لا يجوز لها ابداؤه: كالسوار، والخلخال، والقلادة، والقرط. والمقصود – كما يقول الكشاف بإبداء الزينة الظاهرة هو ابداء مكانها من الجسم، وبعدم ابداء الزينة الخفية هو عدم إبداء مكانها من الجسم أيضاً. فمكان السوار من معصم اليد، ومكان الخلخال من الرجل، ومكان القلادة من العنق، ومكان القرط من الاذن .. لا يجوز للمرأة أن تظهره. والنهي عندئذ عن عدم إظهار زينة المرأة هو نهي بالأولى عن عدم إظهار مكانها.

ولكن اذا استرسلنا في قراءة بقية الآية عندما يقول الله جل شأنه: « ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن (أي لأزواجهن) .. الى آخر الأنواع التي استثنيت في الآية: من المحارم ومن عداهم، ربما نفهم: ان « زينة » المرأة ليست هي الأماكن من البدن وحدها التي تزين، زينة ظاهرة او خفية. وإنما كان بدن المرأة يعتبره الاسلام زينة لها. أي يعتبره مصدر فتنة وإغراء للرجل. ثم من البدن ما هو عورة .. ومنه ما ليس بعورة. فاذا أوجب على المرأة أن تستر زينتها بالنسبة للأجانب منها، فمعنى ذلك: انه يجب عليها أن تستر بدنها إلا ما تدعو اليه الضرورة، مما يعينها على اداء وظيفتها في الحركة، والأخذ، والعطاء، وأداء واجبها في الشهادة، وإتمام العقد، كعقد الزواج مثلاً. واذا أباح الاسلام لها أن تبدي زينتها لزوجها ولمحارمها فمعنى ذلك: ان تظهر من بدنها ما لا يقع في دائرة العورة منها لزوجها، ولمحارمها، وغيرهم ممن نصت عليهم الآية. أما عورتها فهي لها، ولزوجها وحدهما.

ويرجح مفهوم الزينة للمرأة على هذا النحو: ما جاء في آية[2] أخرى في

---

(١) النور: ٣١

(٢) النور: ٦٠

سورة النور أيضاً في قوله تعالى : والقواعد من النساء (والمراد بقواعد النساء: العجائز اللائي قعدن عن الحيض والولد لكبرهن في السن) اللاّتي لا يرجون نكاحاً (اي أولئكنّ اللاتي لا يطمعن في الزواج ولا يتوقعنه) : فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن ، غير متبرجات بزينة (أي غير متعمدات وقاصدات أن يكشفن عن زينتهن) » .. فأية زينة للنساء العجائز اللاتي لا يطمعن ولا يتوقعن الزواج ، واللائي فات عليهن الوقت لتقدم سنهن .. سوى بدنهن ؟ . ان أي مكان في بدنها كانت تزينه - زينة ظاهرة او خفية - أصبح في كبر سنها الآن لا يوحي اطلاقاً بأي إغراء للرجل . بل على العكس : اولى لها الآن أن تستره ، بدلاً من أن تكشف عنه .

إن اعتبار الاسلام بدن المرأة كله .. زينتها الخاصة بها : يعود الى وزنها في حياة الرجل ، وقيمتها في سلوكه ومواقفه .. يعود الى ما تستطيعه هي بحكم تكوين أنوثتها من تأثير سلبي ، او ايجابي عليه .

الاسلام لا يجزىء المرأة ولا يصنف بدنها الى أصناف تختلف قيمتها : بعضها عن بعض في جذب الرجل وشده اليها: فبعض منها تافه مثلاً في تأثيره على الرجل لضآلة جماله .. وبالتالي لا يعير التفات نظره . وهنا يجوز لها أن تكشف عنه وهي في مأمن من نظرته الوالهة .

المرأة في نظر الاسلام كل ، ووحدة .. هي زينة الرجل في حياته ، ومن ثم : تطلب فتمهر ، ولا تطارد ولا تساوم ، وتحترم ولا تبتذل ، ويصان عرضها وتصان رغبتها من فحش القول ، كما يصان بدنها من فجر النظرة ، وتتبعها .

فاذا لم ترض المرأة بنظرة الاسلام اليها .. فلها : أن تختار نظرة أخرى تؤسس عليها : ما ينبغي ، وما لا ينبغي لها أن تكشفه من بدنها وتعرضه لاغراء الرجل بها . ولكن ليس لها أن تلوم الاسلام إذا بقي على نظرته من

أنها كلها : زينة ، وجمال ، ومصدر إغراء وفتنة : كل ما لها من بدن ، وأنوثة .

التبرج :

يقول الله تعالى موصياً نساء الرسول محمد : صلى الله عليه وسلم — وهو قول يوجه الى جميع المؤمنات الأخريات - احتفاظاً بكرامتهن ، وصوناً لهن من التعرض لأذى الكلام ، او إيذاء النظرات : «يا نساء النبي : لستن كأحد من النساء (أي لأنكن قدوة في السلوك لغيركن) : ان اتقيتن (اي ان كنتن تقيات ومطيعات لما يأمر به الله ورسوله) فلا تخضعن بالقول (أي لا تلن ولا تتخنثن في الحديث) فيطمع الذي في قلبه مرض ، وقلن قولاً معروفاً (أي مهذباً لطيفاً دون أن يثير سوء الفهم في استغلال لطفكن) . وقرن في بيوتكن (أي ولحماية أنفسكن من عبث العابثين يجدر بكن أن يكون لكن بالأولى والأفضل استقرار في مساكنكن) ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى (كما يجدر بكن أن لا تسلكن ان خرجتن من منازلكن .. مسلك العارضات لأنفسهن في الطرقات على الرجال ، كما تصنع النساء اللائي استغرقن في التبعية للاتجاه المادي وحده) وأقمن الصلات ، وآتين الزكاة ، وأطعن الله ورسوله (أي كن مؤمنات صادقات) إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت (أي يذهب قذارة النفوس في مسلكها وموقفها) ويطهركم تطهيرا »[1] .. فنصحهن بأمرين :

أولاً : بالحرص على التهذيب واللطف في الحديث ، والبعد في الوقت نفسه عن الميوعة والتخنث فيه — كما تصنع المريبات — كي لا يساء فهمهن ممن به مرض النفس والقلب من الرجال .. ممن هم من أصحاب العبث والفجور . وهؤلاء يوجدون في كل وقت .

---

(١) الأحزاب : ٣٢ ، ٣٣

وثانياً : بحماية أنفسهن – بقدر الامكان – وذلك بالاستقرار في مساكنهن من تطاول العابثين والفجار. على أنهن إذا خرجن يخرجن مبتعدات عن التبرج.. مبتعدات عما يشير الى عرض أنفسهن على الرجال في الطرقات .. مبتعدات عن مسلك العابثات المائلات .. عن مسلك أولئكن اللاتي يقصدن الى إغراء الرجال وشدهن نحوهن ، بطريق ، او بآخر .

فمفهوم التبرج للمرأة هو محاولتها بما تصنعه بنفسها: إغراء الرجال ودعوتهم إليها . وما تصنعه بنفسها قد يكون في ملبسها . فقد تلبس مما يكشف او يحدد بدنها تحديداً دقيقاً . ويروى عن الرسول صلى الله عليه وسلم نهيه عن أي منهما : فيروي أبو هريرة عنه قوله : « صنفان من أهل النار لم أرهما بعد: نساء كاسيات ، عاريات .. مائلات ، مميلات ، ورجال معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس »[1] . كما يروى عن أسامة بن زيد قوله : كساني رسول الله صلى الله عليه وسلم قبطية كثيفة (والقبطية ثوب رقيق معروف في مصر قبل الفتح الاسلامي كان لا يستر البشرة عن رؤية الناظر ، بل كان يصفها) فكسوتها أمرأتي ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مرها أن تجعل تحته غلالة (والغلالة ما يلبس تحت الثوب) قال (أي في سبب الأمر بلبس الغلالة :) أخاف أن تصف حجم عظامها »[2] .. وقد يكون طريق التبرج ما تصنعه في خلقها من تغييره ، او في حركتها في السير مما يثير الريب حولها .

وتبرج المرأة بهذا المعنى – وهو خروجها في الطرقات ذات فتنة في صورة ما ، قصداً الى إغراء الرجال ، وذات دعوة مقنعة اليهم بطريق او بآخر – يختلف عن مفهوم التجميل وهو أن تزين المرأة وتجمل نفسها . وإذا كان

(١) في رواية أحمد ومسلم : نيل الأوطار جـ ٢ ، ص ١٢٠
(٢) في رواية أحمد : نيل الاوطار جـ ٢ ، ص ١٢٠

ينطوي تجميل امرأة لنفسها على إبراز أنوثتها .. فان ذلك منها لإغراء زوجها وحده ، وليس لجذب الأجانب عنها .. نحوها .

والاسلام يدعو الزوجة الى تجميل نفسها لزوجها ، ويريدها : أن تكون دوماً ذات إغراء له . يروى عن عائشة رضي الله عنها : « ان امرأة عثمان ابن مظعون كانت تخضب وتطيب (أي تضع الخضاب في يديها وقدميها ، كما تستخدم الطيب في ثيابها وبدنها) فتركته (أي تركت الخضاب والطيب) فدخلت علي (أي دخلت على عائشة) فقلت (بعد ان لاحظت : انها لم تعد تجمل نفسها) : أمشهد أم مغيب ؟ (أي تتركين تجميل نفسك وزوجك موجود معك الآن ، أم هو غائب عنك ؟) فقالت : مشهد (أي هو حاضر معي وغير مسافر) قالت : (أي ثم علّلت تركها التجميل مع أن زوجها غير غائب عنها بقولها) : عثمان لا يريد الدنيا ، ولا يريد النساء (أي هو منصرف عن متع الدنيا ، وعن متعة المرأة) . قالت عائشة : فدخل علي رسول الله ﷺ فأخبرته بذلك . فلقي عثمان فقال : يا عثمان : تؤمن بما نؤمن به ؟ قال : نعم يا رسول الله . قال (أي قال الرسول عليه الصلاة والسلام) : فأسوة ما .. لك بنا (أي فلك أسوة بنا في عدم هجر الدنيا والنساء »[1] .. فحمل الرسول عليه الصلاة والسلام صحابياً من أصحابه على العودة الى الاستمتاع بالدنيا ، وعلى معاشرة زوجته .. هو دعوة — ضمناً — الى زوجته كذلك : في الاستمرار في تجميل نفسها لزوجها حتى يسعدا بحياة زوجية طبيعية .

فالنهي عن تبرج المرأة هو نهي عن ابتذالها ومذلتها في طلب الرجال الآخرين والدعوة الى تجميل الزوجة هو لصون العلاقة بين الزوجين من التفكك والفرقة .

* * *

(١) نيل الاوطار جـ ٦ . ص ٢٠٥

ولكن هل ترضى المرأة المعاصرة : أن لا تتبرج ؟ . انهـا تنادي بثورة « التحرر » لتفعل ما تشاء أن تفعله بنفسها وشد الرجال اليها :

فقد كان من نتائج الحرب العالمية الثانية تزعزع القيم الانسانية العليـا في نفوس المجتمع الاوروبي،وبالأخص تلك القيم التي تدعو اليها المسيحية ـ كدين ـ وهي قيم : الاخوة ، والمحبة والسلام . فانقسام المجتمع الاوروبي في هـــذه الحرب الى معسكرين مـــاردين : حاول كل منهما أن يفني الآخر ـ او على الأقل حاول أن يلحق به أشد الأضرار فتكاً بالأموال والأنفس والثمرات ـ ذهب بمعنى الاخوة المسيحية في هذا المجتمع ، كما ذهب بمعنى المحبة والسلام بين أفراده .

هذه النتيجة للحرب العالمية الثانية بالاضافة الى الخصومة السياسية للكنيسة منذ عصر النهضة الاوروبية، التي لبست ثوب الخصومة العقلية أو العلمية للدين ومبادئه، زادت من ضعف الدين والتقاليد على « جيل مـــا بعد الحرب » . وأصبح هدف هـذا الجيل هو أن يتحلل من الدين وتقاليد المجتمع الاوروبي التي توارثت فيـــه قروناً عديدة ، كي يعيش لوقته او لآونته ، ولا يفكر في غده .

وساعد على تحقيق هذه النظرة « الوجودية » ـ وهو أن يعيش الانسان لآونته وليس لغده ، وان يستمتع بوجوده الحاضر ما وسعت له الامكانيات التي تتيح له ذلك ـ التقدم الاقتصادي في المجتمع الاوروبي كنتيجة للتقدم الصناعي والتكنولوجي . وهو تقدم لم تشهده البشرية من قبل : في كمـــه ، ونوعه . وبالأخص التقدم الآلي ، وهو التقدم السائد الآن في بحوث الفضاء ، والعقول الاليكترونية .

فجيل ما بعد هذه الحرب وجد نفسه في رخـاء اقتصادي وفي محيط من الامكانيات العديدة التي تقدم له في يسر : وسائل الرفاهية وإشباع الرغبات

والشهوات. ولا يجد الآن في نفسه ما يحول بينه وبين الاستمتاع بالحياة المادية، طالما لا تنطوي هذه النفس على احترام للتقاليد، ولمبادىء الدين والمقاييس الاخلاقية. وذلك الاحترام الذي أضعفه: الشك في قيمة تلك التقاليد، وقيمة المبادىء والمقاييس، بسبب أحوال الحرب العالمية الثانية ومصائبها وأضرارها. هذا الشك الذي ورثه من جيله السابق، وهو جيل الحرب الذي عاشها.

فهنا انطلاق في غير حدود، وهنا إمكانيات اقتصادية تساعد على هذا الانطلاق. وليست هنا قيود ولا حواجز نفسية، وليست هنا كذلك عوائق او صعوبات مادية. والطريق الآن مفتوح على مصراعيه والحياة مليئة بالمغريات وما يفتن به الانسان: مما تقدمه الصناعة المعاصرة لرخاء الانسان في معيشته.

هذا الجو النفسي والمادي هو جو الجيل الحاضر – جيل ما بعد الحرب – في المجتمع الاوروبي. وهذا الجو كما أوحى للشاب بالثورة على التقاليد والقيود التي كانت تسود المجتمع في جيل سابق عليه، أوحى كذلك للشابة بالثورة على هذه التقاليد والقيود. وربما التقاليد والقيود بالنسبة الى المرأة كانت تنطوي على ما يجعلها غير متساوية مع الرجل في اوضاع اجتماعية معينة، او على الأقل كانت تنطوي على نظرة في حياة المرأة تختلف عن تلك النظرة الأخرى في حياة الرجل: ان في العلاقة الجنسية، او في وضع العمل خارج المنزل، او في مستوى الأجر على العمل.

وفي هذا الجو النفسي والمادي – وهو جو التحلل والرخاء – تحركت المرأة في «ثورة التحرر» وفي طريق «المساواة». ووصلت في فترة قصيرة الى هدفها في المساواة مع الرجل في مجال العمل والأجور وخطت خطوات واسعة كذلك في سبيل العلاقة الجنسية: في شؤون الزواج والطلاق.. في شؤون الأمومة وانجاب الأطفال.. في شؤون المباشرة الجنسية في غير علاقة

زوجية تقليدية .. الى غير ذلك مما تتناوله حياة الرجل والمرأة .

وفي بعض المجتمعات الاوروبية -كمجتمع السويد - فاقت المرأة« مستوى المساواة » مع الرجل ، ونشأت عن هذا التفوق مشكلة أخرى ، هي مشكلة مساواة الرجل بالمرأة ، وليس المكس . وأصبح العمل المنزلي ، وحضانة الأطفال من غير اختصاص المرأة وحدها . وإنما هو لصاحب الاجر الأقل من الزوجين. فالرجل إذا كان دخله من عمله خارج المنزل أقل من دخل زوجته، تفرغت الزوجة لعمل الوظيفة الخارجية ، وتفرغ الزوج نفسه للعمل المنزلي وحضانة الاطفال .

وثورة « الزي للمرأة » هي جانب من « ثورة تحرر المرأة » في جيل ما بعد الحرب العالمية الثانيه . تستهدف التحلل الكامل من تقاليد المجتمعات السابقة ، ومن نظراتها الى الحياة ، كما تستهدف تحقيق « المساواة » بالرجل : نصاً .. وروحاً :

١ - فلماذا لا تتساوى به وتقلده في زيه : فتلبس «الجاكتة والبنطلون»؟

٢ - ولماذا لا تتساوى بـه وتقلده في تسريحة شعره : فتقص شعرها ، وفي بعض الأحيان الى درجة أدنى من الرجل ؟

٣ - ولماذا لا تتساوى به وتلبس «القصير جداً» ميني جيب .. وتكشف عن فخذيها ، كما يلبس الرجل في الصيف ويكشف عن فخذيه ؟

٤ - ولماذا لا تتساوى به وتلبس « البيكيني» عند الاقامة على الشواطىء وتكشف عن جسمها كله ، عدا ذلك الساتر الضئيل للعورة، كما يفعل هو ؟.

٥ - ولماذا لا تتساوى به وتطلب رفيقها الى الرقص كما يطلب هو رفيقته كذلك ليراقصها ؟ .

٦ – ولماذا لا تتساوى به في الصلة بالجنس الآخر فيحل لها – عرفاً – ما يحل له ؟

لماذا ... ولماذا ... لا تتساوى به وقد أصبحت تؤجر على عملها خارج المنزل ، كما يؤجر هو أو أكثر ؟. كما أصبحت تتخرج في الجامعة ، وتشغل الوظائف التي يشغلها في مصالح الحكومة أو في الشركات ؟ . وكما أصبحت أيضاً تعيش في جو هذا الجيل الجديد – جيل ما بعد الحرب – وهو جيل التحلل من تقاليد الماضي ، وجيل الرخاء الاقتصادي ، والتقدم الصناعي الآلي ؟ .

ولا فرق بين « الأنوثة » و « الذكورة » . كلتاهما صنع الطبيعة . والعلم أصبح في قدرته تغيير هذه الطبيعة ، فيحيل الأنثى .. إلى ذكر ، والذكر .. إلى أنثى ! .

والحديث عن « الأنوثة » و « الذكورة » ونسبة العاطفة والحنان والرقة إلى الأنوثة ، ونسبة الارادة والحزم والخشونة إلى الذكورة .. هو حديث الماضي ؛ قصد به تخدير المرأة ، فلا تطلب حقها في المساواة ، كما قصد به جعل الرجل مغروراً فيتشبث بمنزلة ليست له في واقع الأمر ، وهي منزلة القيادة أو الاستعلاء على المرأة .

ان ذلك تصور بدائي للمرأة ، والرجل . فالمرأة المحاربة ليست في حاجة الى عاطفة أو حنان والرجل في العصر الآلي ليس في حاجة إلى مباشرة القيادة أو الاستعلاء !

... وعلى هذا النحو يسير منطق « الثورة » لتحرر المرأة في جيل ما بعد الحرب العالمية الثانية :

١ – في دائرة الزي ،
٢ – وفي دائرة الحقوق والمساواة ،
٣ – وفي دائرة التركيب العضوي والاجتماعي .

وتشجع هذه الثورة – وكذا ثورة الجيل كله – على التقاليد والمقاييس الأخلاقية : نظم الحكم السياسية المعاصرة في المجتمعات الأوربية . إذ أن هذه النظم تعيش مزدهرة في غيبة القيم الأخلاقية والدينية ، أكثر منها في وجودها . فهذه النظم ترتكز على « العلمانية » او « الالحادية » . والعلمانية والالحادية كلتاهما تخاصم الدين ، وما تكون عنه من تقاليد . بسبب أن الدين في المجتمع الأوربي يكون سلطة سياسية ثانية ، وهي سلطة الكنيسة . ولذا، سلطة الكنيسة خصم لسلطة الدولة في أي مجتمع أوربي . وفي البعد عن الدين وتقاليده ، وفي التحلل من المقاييس الأخلاقية .. تخف حـــدة التنازع على السلطة » وبالتالي تصبح سلطة الدولة أقوى . ومن جهة أخرى في غيبة الدين والمقاييس الأخلاقيـة : تشيع « الانتهازية » و « الميكافيلية » و « النفعية » و « القرصنة » . وكلها وسائل لاشباع الرغبات الشخصية عن طريق السلطة .

* * *

والمجتمعات غير الأوربية ما زالت تتبع وتقلد المجتمعات الاوربية في اتجاهها وفي ثوراتها ، وان اختلفت درجـة التقليد او اختلف مستواه . ولكنها على أية حال تسير في طريق التقليد . لأن شخصيتها المستقلة لم تتبلور بعد تماماً . إذ استقلال شخصية أي مجتمع يعتمد في الدرجة الاولى على التمسك بمقوماته التاريخية . وطالما هذه المقومات لم تكن لها السيادة في الاعتبار بعـد ، فإن استقلال شخصية المجتمع تبقى في حيز الظهور .

وثورة « تحرر المرأة » من الثورات التي تلقى رواجـــاً خارج المجتمعات الاوربية . وجانب « الأزياء » فيها أكثر قبولاً . لأنه يشعر المرأة في سرعة بحريتها التي تنشدها . وهي حرية الاعلان للرجل عن تخلصها من تقاليد الماضي ومبادئه . وان لم تتحرر في واقع أمرها . إذ التحرر : تطور نفسي قبل أن يكون اعلاناً عن الحرية في المظهر .

و « ثورة تحرر المرأة » اذا قلدت فيهـا المرأة في مجتمع آخر – كالمجتمع

الاسلامي مثلا يصعب على المرأة المقلدة أن تفهم نظاماً آخر للأسرة ، وان كان ينطوي على تحرير المرأة .. وان كان هو في نفسه « ثورة » على المذلة ، واهدار كرامة المرأة. لأنها مقلدة ، ولأنها تحرص على تقليدها على أن تسير في خطوط ما قلدت فيه ، وأن كان فيه مذلتها واهدار كرامتها .

١ – فاذا جاء الاسلام وجعل للمرأة الحرية في اتمام عقد الزواج كالرجل سواء بسواء ،

٢ – وإذا جاء الاسلام وجعل للرجل الطلاق ، وللمرأة الخلع في فصم عرى الزوجية ، ان تضرر أحد الزوجين بالمعاشرة الزوجية ، دون الرجوع الى قضاء .

٣ – واذا جاء الاسلام وجعل للمرأة حرية البقاء على عقيدتها ، يهودية او مسيحية – كما للرجل عقيدته الاسلامية ،

٤ – واذا جاء الاسلام وجعل للمرأة حرية التصرف في مالها الخاص ، كما للرجل سواء بسواء حرية التصرف في ماله الخاص ،

٥ – واذا جاء الاسلام وأعطى المرأة حقوقاً مماثلة للرجل في العلاقة الزوجية ، وان فرق بينهما فالفرق هو في مطالبة الرجل في أن يكون أكثر انسانية وأكثر تهذيباً ، وبالأخص عند الطلاق ،

٦ – واذا جاء الاسلام وأصر على أن تكون المعاشرة الجنسية في علاقة زوجية – أي في علاقة قد شهر أمرها باعلان الزواج – وحرم العلاقة السرية التي تمتهن فيها المرأة ، فأباح تعدد الزوجات حتى يتحمل فيها الرجل مسئوليته نحو زوجه وولده مسئولية علنية كاملة .

٧ – واذا جاء الاسلام وأبقى على حياء المرأة – وهو جزء في أنوثتها – وعلى كرامتها كانسان فيطلب الى الرجل الزوج أن يقدم لها مهراً وهو منحة وهدية ، كي يعبر عن طلبه اياها ورغبته في الزواج بها ...

... إذا جاء الاسلام وصنع كل ذلك في إطار العلاقة بين المرأة والرجل فهو في نظر المرأة المقـلدة لثورة تحرير المرأة في أوروبا .. من مخلفات الماضي ، وان كان يحقق « المساواة » الذي هو هدف هذه الثورة ، وان كان يحقق الكرامة الانسانية ، التي لم تحققها هذه الثورة ، ولم تطلبها أيضاً :

كيف تطلب هذه الثورة المحافظة على كرامة المرأة وهي تدفعها الى أن تنزل « بلحمها مكشوفاً » : مجال العرض في الشارع ، وعلى الشاطىء ، وفي الأندية وأمكنة الاجتماع والاختلاط ؟ .

كيف تطلب هذه الثورة المحافظة على كرامة المرأة وهي تدفعها الى أن تلح في إغراء الرجل بتقلبها في أزياء مختلفة وبخروجها عن الحيـاء في موقفها منه ان هي ارادته ؟ .

الاسلام يبقي على أنوثـة المرأة وحنانها وعاطفتها ، كما يبقي على رجولة الرجل وإرادته ، ويحول دون أن تتحول المرأة الى رجل ، ويتحول الرجل إلى امرأة، وان كانت ثورة تحرير المرأة في جيل ما بعد الحرب العالمية الثانية في المجتمع الاوروبي تطالب بالمساواة الحرفية ، وان كان التقدم العلمي في عصرنا الحاضر قد باشر بالفعل تحويل الرجل الى امرأة ، ويسعى الى تحويل المرأة الى رجل تحويلاً عضوياً .

الاسلام سيظل دين الانسان في انسانيته ، رغم ثورة « الجنس» لأنها ثورة من أجل الانحلال والانطلاق . والاسلام سيظل مصدر الحضارة الانسانية التي هي حضارة الانسان ، وليست حضارة الانطلاق .

الطلاق :

يأتي الطلاق في القرآن للتعبير عن فصم عرى الزوجية التي ارتبطت بعقد النكاح . ولكن قبل أن يباشره الأزواج طلب اليهم التريث في الاقدام عليه،

وذلك فيما يوجهه من نداء في قوله : « وعاشروهن بالمعروف ، فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ، ويجعل الله فيه خيراً كثيرا »[1] .. فالآية توصي – كمبدأ عام – بحسن المعاشرة في العلاقة الزوجية . وحسن المعاشرة ينطوي – فيما ينطوي – على الصبر والتحمل ، وعلى محاولة الملاءمة في هدوء وحكمة عند الخلاف في الرأي ، او النظرة . بين الطرفين . كما توصي الازواج بمراجعة الامر عندما يحسون بكراهية ، او ببغض ، او بضيق صدر ، من زوجاتهم ، إذ تقول : « وعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً » . ومراجعة الأمر وتحليله : قد يكشف عن عنصر هام في الزوجة المكروهة او المبغوضة : يذهب بكراهتيها وببغضها ويعيد من جديد للزوج : رغبته في الإبقاء عليها ، والحرص على مودتها : فقد تكشف مراجعة الامر عن عنصر : الوفاء والأمانة ، او عن عنصر حسن التدبير في المنزل ، وحسن الرعاية للأولاد ، او عنصر الحكمة في الرأي والمشورة ، او عنصر المساعدة في العمل وحل المشاكل .. الى غير ذلك.. من الصفات التي تجعل الرجل حريصاً على زوجته. ثم طلب أيضاً قيام الاهل بالاصلاح بينهما في قوله : « وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكمًا من أهله وحكمًا من أهلها ، ان يريدا اصلاحاً يوفق الله بينهما »[2] .

وعندما يباشر الازواج الطلاق : جعله القرآن على مراحل ثلاث ، تستغرق كل مرحلة : ثلاثة أشهر ، او ثلاثة قروء. فعن مراحل الطلاق يقول الله تعالى : « الطلاق مرتان ، فامساك بمعروف (أي في الطلقة الثالثة) أو تسريح باحسان »[3].. وعن زمن كل مرحلة يجيء قوله سبحانه : «والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاث قروء»[4] .. والتعبير بتعدد الطلاق هنا : « الطلاق

---

(١) النساء : ١٩
(٢) البقرة : ٢٢٩
(٣) النساء : ٣٥
(٤) البقرة : ٢٢٨

مرتان » .. يميل الى أن الطلاق بلفظ الثلاث لا يقع إلا طلقة واحدة .. أي ليست له الا آثار طلقة واحدة . وآثار الطلقة الواحدة : هي جواز مرجعة الزوجة مدة الثلاثة أشهر او الثلاثة قرؤ . والمراحل الثلاث للطلاق وأزمنتها الثلاثة التي تبلغ في جملتها تسعة أشهر .. قصد منهـا افساح الوقت لمراجعة الطرفين : وضع العلاقة الزوجية بينهما ، وإعادة تقييمها في جو هادىء ، وفي عزلة كل من الآخر .. مما يتيح الفرصة لهما لاستخلاص النتائج السليمة لحال الاستمرار في العشرة ، ولحال الفرقة وإنهاء تواجـد الحياة المشتركة بينهما ، على السواء .

ثم لو استقر الرأي على الطلاق .. فيجب أن يكون تعبيراً عن إزالة الضرر الناتج عن سوء العشرة الزوجية ، وليس وسيلة للاضرار بالزوجة في أية صورة ما . والطلاق من أجل إزالة الضرر فقط في العشرة الزوجية .. يستتبع من الزوج : أن يكون محسناً في طلاقه . وإحسانه في الطلاق يتمثل في أمرين : في أن يعطي زوجته المطلقة والتي دخل بها : منحة — او متعة — تستعين بها على اجتياز الفترة التي تعقب الطلاق . وهي فترة : صعوبتها من الناحية النفسية .. قد تكون أشد . ولكن الجانب المادي من جانب الزوج الذي تعبر عنه المنحة قد يكون له أثر في تخفيف الصعوبة النفسية . ويجيء في هذا قوله سبحانه : « ومتعوهن : على الموسع قدره ، وعلى المقتر قدره ، متاعاً بالمعروف ، حقـاً على المحسنين » [١] . وكذلك يتمثل إحسان الزوج عند الطلاق في أن يتنازل لزوجته التي عقد عليها ولم يدخل بها .. عن نصف المهر المستحق له : من المهر كله الذي دفعه لها . وفي ذلك يقول جل شأنه : « وان طلقتموهن من قبل أن تمسوهن ، وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم (أي لكم أيها الازواج : الحق في استرداد نصف المهر عندئذ) إلا أن

---

(١) البقرة : ٢٣٦

يعفون او يعفوا الذي بيده عقدة النكاح (أي الا أن يعفو أحد الطرفين في الزيجة : الزوجة ، او الزوج ، او ولي الامر لهما ، او لأي منهما عن حقه) وان تعفوا أقرب للتقوى (اي وان تتنازلوا أنتم ايها الازواج .. أقرب الى تقوى الله . لأن في تنازلكم عن مستحقكم من نصف المهر .. ما يكون شبه عوض على خيبة أمل الزوجة في زوجها) » [1] ..

ولا ينبغي بحال أن يتخذ الطلاق وما يستتبعه من آثار .. وسيلة للاضرار بمصلحة الزوجة في زواج جديد : « واذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن (وهو نهاية الشهر ، او القرء) فـلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن اذا تراضوا بينهم بالمعروف (اي فلا تمسكوهن من جديـد بمراجعتهن : لا لرغبتكم في معاشرتهن ، ولكن حرصاً منكم على فوات مصلحتهن في زواج جديـد ينتظرهن) » [2] .. ولا أن يتخذ وسيلة لارهاقها ، والاضرار بها ، وتحصيل المشقة لهـا : « واذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن : فأمسكوهن بمعروف ، او سرحوهن بمعروف (اي بعد انتهاء عـدة الطلاق فالأزواج مخيرون : بين الاستمرار في حسن العشرة الزوجية ، او مفارقة نسائهن ، ولكن في تهذيب وانسانية) ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه (أي ولا ينبغي أن يكون امساككم - أيها الازواج - لنسائكم بمراجعتكم اياهن : صادراً عن رغبة في إلحاق ضرر بهن في معاشرتكم لهن . لانكم ان فعلتم ذلك كنتم قد باشرتم عدواناً عليهن وظلمتم بذلك أنفسكم) » [3] .. ولا أن يتخذ أيضاً : وسيلة لابتزاز ما لها او استرداد المهر منها : « ولا يحـل لكم (والخطاب للأزواج) أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً ، إلا أن يخافا : ان

---

(١) البقرة : ٢٣٧

(٢) البقرة : ٢٣٢

(٣) البقرة : ٢٣١

لا يقيما حدود الله (وذلك بالاستمرار في سوء العشرة) فان خفتم أن لا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما أفتدت به (اي فيما أعطته الزوجة من مهرها ، ابتغاء خلاصها من سوء عشرة الزوجية . عندئذ فقط يحل للزوج أن يأخذ مالاً من زوجته ، على شرط أن لا يزيد ما يأخذه عن المهر . وإلا كان مبتزاً للمال وآكلا لأموال الناس بالباطل) »[1] .

والطلاق إذن : ليس وسيلة ارهاب ، ولا تهديد ولا وعـــد او وعيد ، وليس وسيلة استغلال لمال الزوجة وإلحاق الأذى والضرر بها. انه فقط:تعبير عن نية الفرقة في الحياة الزوجية ، وعن عزم الزوج وتصميمه على وضع حد لسوء العشرة بين الزوجين .

الافتداء ـ او الخلع :

تأتي كلمة : « الافتداء » في القرآن .. تعبيراً عن الخلاص من ضرر ، في مقابل فدية من مال وخلافه ، مما يدخل في اعتبار الانسان وتقييمه :

تأتي هذه الكلمة في التعبير عن خلاص الاسرى من أسرهم في مقابل شيء ما . على نحو ما جاء في قوله تعالى ـ في خطابه لبني اسرائيل ـ : « ثم أنتم هؤلاء : تقتلون أنفسكم ، وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم ، تظاهرون عليهم بالاثم والعدوان ، وان يأتوكم أسارى تفادوهم ،وهو محرم عليكم اخراجهم »[2] .. فجاءت كلمة : «تفادوهم» هنا لتوضيح ان بني اسرائيل انتهكوا كل الاصول التي تراعى في كيان الامة : فارتكبوا شذوذاً : في معاملة بعضهم لبعض ، فقتلوا بعضهم بعضاً ، وأخرج فريق منهم فريقاً آخر : من الديار ، وان عاد

---

(١) البقرة : ٢٢٩

(٢) البقرة ٨٥

الفريق المنفي اعتبر أسيراً وأخذت منه الفدية مقابل اطلاق سراحه وتخليصه من الاسر .

وتأتي في التعبير عما يتمناه الكافرون من الخلاص : من عذاب الآخرة .. مقابل ما يملكون ، لو أنهم ملكوا ، كما يقول الله ، مصوراً حال الكافرين وما هم فيه من مذلة ومشقة : « ان الذين كفروا : لو أن لهم ما في الأرض جميعاً — ومثله معه — ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ، ما تقبل منهم ، ولهم عذاب أليم » [1] .. ويقول : يبصرونهم : يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ : ببنيه . وصاحبته (اي زوجه) وأخيه . وفصيلته التي تؤويه . ومن في الارض جميعاً ، ثم ينجيه » [2] .

ويلاحظ ان المفتدي – او من يقدم الفدية — هو في وضع سيء يشق على نفسه الاستمرار فيه . ومن أجل ذلك يسعى الى الخلاص منه ، في مقابل ما : فالأسير في وضع سيء يشق على نفسه الاستمرار فيه . والكافر أو المجرم في يوم الآخرة : في وضع سيء يتمنى الخلاص منه .

وعلى هذا النحو تأتي كلمة الافتداء في العلاقة الزوجية . في جانب الزوجة . يقول الله تعالى : « ولا يحل لكم : ان تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً (أي ولا يحل للأزواج أن تسترد شيئاً ما : مما أعطته من مهور لزوجاتهم . وهذا أصل عام ، وحد من حدود الله في شأن الاسرة) إلا أن يخافا أن لا يقيما حدود الله ، فان خفتم : ان لا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به (اي ولكن في حالة واحدة فقط : يجوز للمرأة أن تعطي من مهرها ، ويجوز للرجل أن يأخذ منها ما تعطيه إياه . وتلك هي الحالة التي

---

(١) المائدة : ٣٦

(٢) المعارج : ١١ – ١٤

يخشى فيهـــا كل من الزوج والزوجة .. عدم تنفيذ حدود الله في عشرتهما الزوجية .. يخشيان الاستمرار فيها لسوء العشرة بينهما ، ولضيق الزوجـــة بالحياة الزوجية وتضررها بها تضرراً يدفعها الى أن تتنازل عن المهر : بعضاً او كلاً في مقابل الخلاص من هذه العشرة السيئة . فهنا : سوء العشرة الزوجية يخالف لحدود الله في قوله : « وعاشروهن بالمعروف » . والوجه المعروف في العشرة الزوجية هو الوجه الانساني الكريم المهذب »[1] .

فالزوجة هنا متضررة ، وفي وضع تريـد أن تتخلص منه ، وهو وضع يشق عليها الاستمرار فيه . ومن أجل ذلك تريد أن تعطي مقابلاً لخلاصها من سوء العشرة : من مهرها ، إما بعضه ، او كله . فهي تفتدي .. أي تعطي فدية .

وفي عرف الفقهاء تسمى الزوجة المفتدية .. مختلعة ، أي طالبة : ان تخلع نفسها من عقد الزوجية . ولتخفيف الامر على الزوجة المفتدية – أو المختلعة – كانت عدتها شهراً واحداً ، وليست ثلاثة أشهر كالمطلقة . لأنهـــا متضررة بارتباطها بزوجها الذي جعل حياتها المشتركة في غاية المشقة عليها . وللغرض نفسه – وهو التقليل ما أمكن من آثار الزوج في حياتها – كان الافتداء ، أو الخلع ، فسخا لعقد الزواج – عند ابن القيّم ، وكما وقع على عهد الرسول عليه الصلاة والسلام – ، دون الحاجة الى وقوع طلاق من الزوج نفسه . وبذلك يصير الخلع في جانب الزوجة ، كالطلاق في جانب الرجل . وكلاهما – الخلع ، والطلاق – تعبيران عن التصميم على ترك الحياة الزوجية ، وإنهاء عقد النكاح الذي صدر باختيارهما اختياراً مطلقاً ، اول الامر .

ولا يحل للزوج اذا رأى استعداد زوجته للافتداء .. ان يأخذ منها أكثر

---

(١) البقرة : ٢٢٩

مما أعطاها من مهر . وإلا كان آكلاً لأموال الناس بالباطل ، وهو سحت وعقابه عند الله نار جهنم .

الظهار :

الظهار نوع من أنواع الفرقة في العلاقة الزوجية . وقد كان مستعملاً في الجاهلية — اي على عهد الاستخفاف بانسانية المرأة — كطلاق : يعفي الزوج من التزاماته الزوجية نحو زوجته ، بينما لا يعطي الزوجة : الحرية في ترك منزل الزوجية .. او الزواج بآخر . والزواج عن طريق الظهار كان يمارس أنانيته في إبعاد الزوجة عن حقوقها ، مع ربطها به ربطاً وثيقاً كرقيقة له ، دون أن تصير حرة حتى في التزوج برجل آخر . وهو يشبه العضل في آثاره . وعضل النساء — كما جاء في قوله تعالى : « ولا تعضلوهن » — هو أن يطلق الرجل امرأته طلقة غير بائنة ، ثم عندما يقرب انتهاء مدتها يراجعها .. وهكذا . ويحول بذلك دون إعادة الحرية لها لتتزوج برجل آخر .

ولفظ الظهار — هو : أن يقول الزوج لزوجته : أنت علي كظهر أمي . اي في الحرمة علي .. كحرمة أمي علي ويلحقها بذلك بأمه في الحرمة .. وبذلك لا يقترب منها أشهراً ، وربما سنين عديدة . وهي على وضع الآن لا تعتبر فيه زوجة .. كما لا تعتبر فيه غير زوجة . وبذلك كان الظهار صورة من صور الاستبداد .. استبداد القوي بالضعيف : القوي بعضلاته .. والضعيف بجسمه ، يمارسها الرجل الأناني .

وقد جاء إلغاء القرآن لهذا النوع من التعبير عن الفرقة بين الزوجين : في صورة تدل على منتهى الاهتمام من جانب الله سبحانه بتأكيد انسانية المرأة ، وإبعاد ما كان يمارسه الأنانيون غير المهذبين حيال النيل من كرامتها : فقد روي عن خولة بنت ثعلبة قالت : ظاهر مني أوس بن الصامت — وهو

زوجها – (اي قال لها أنت علي كظهر أمي) فجئت لرسول الله ﷺ يجادلني فيه (اي يحاورني ويراجعني في شأنه) ويقول : اتقي الله ، فإنه ابن عمك فما برح (اي لم يزل يراجعني في شأنه حتى نزل القران : « قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها ، وتشتكي الى الله (اي في صلاتها والدعاء له بأن يخلصها مما هي فيه من وضع مؤلم غير إنساني وغير كريم) والله يسمع تحاوركما، ان الله سميع بصير . الذين يظاهرون منكم من نسائهم (اي الذين يحرمونهم – الآن بعد الاسلام – على أنفسهم : تحريم الامهات) : ما هن أمهاتهم ، ان امهاتهم إلا اللائي ولدنهم ، وانهم ليقولون منكرا من القول وزوراً (اي ان ما كان يستعمل في الجاهلية – اي في العهود غير الانسانية – من هذا النوع من التحريم ، ان هو إلا قول زور ومنكر ، ولا أساس له من واقع ، ويقصد به فقط إلحاق الاذى والضرر بالزوجات . وإلا فكيف تكون الزوجة أماً للزوج – وأمه هي وحدها التي ولدته – وبالتالي : كيف تنتقل حرمة الأم الأبدية على ولدها .. الى زوجته وهي حلاله بمقتضى عقد الزوجية ؟) وان الله لعفو غفور (أي لما سلف ووقع منه قبل نزول تحريمه) . والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا (فيغفلون شأن ما قالوه من ظهار ويرجعون إلى الوضع الطبيعي للزوجية .. هؤلاء يلزمون – قبل التقائهم بزوجاتهم – بكفارة عظمى، عقوبة لهم على مسلكهم الأناني، وإتيانهم بالمنكر والزور من القول) . فتحرير رقبة (أي مؤمنة) من قبل أن يتماسا ، ذلك توعظون به والله بما تعملون خبير . فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا ، فمن لم يستطع فاطعام ستين مسكينا ، ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله (اي ان أداءكم هذه العقوبة الكبرى : يستهدف الاستقرار بكم على الوضع الجديد الذي أوحى به الله لرسوله عليه السلام .. وهو وضع تحريم الظهار كصورة من صور الطلاق والفرقة) وتلك حدود الله ، وللكافرين عذاب أليم [1] .. وبعد أن نزلت هذه الآيات قال رسول الله عليه الصلاة والسلام ،

(١) المجادلة : ١ – ٤

لخولة - بعتق رقبة (أي على زوجها الأوس : عتق رقبة) قالت : لا يجد، قال : فيصوم شهرين متتابعين ، قالت : يا رسول الله انه شيخ كبير ، ما به من صيام ، قال : فليطعم ستين مسكيناً ، قالت : ما عنده من شيء يتصدق به ، قال : فأني ساعتئذ (أي من ماله الزكاة) بعرق من تمر (اي زنبيل من تمر) قالت : يا رسول فإني سأعينه بعرق آخر ، قال : قد أحسنت. اذهبي فأطعمي بهما عنه ستين مسكيناً ، وارجعي الى ابن عمك»[1].

وبتحريم القرآن الظهار ، وبتحايلات أخرى كانت تربط بالطلاق يقضي الاسلام على الصور غير الانسانية التي كانت تمتهن - او تستغل - فيها المرأة في العلاقة الزوجية .

الايــلاء :

وصورة أخرى من صور عدم التقدير لعلاقة الزوجة بزوجها .. ما يعبر عنها بالايلاء . وهو الحلف بالله من الزوج على عدم اقترابه من زوجته مدة غير معلومة .. كأن يقول لها : أنت علي حرام .

وهو مما نقله بعض المسلمين من جاهليتهم إلى عهد الاسلام . وقد كان يستعمل في بداية عهدهم به ، حتى جاء قوله تعالى : « لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم (أي لا يحاسبكم على الايمان التي تصدر عفواً ، من غير نية سابقة وقصد مبيت) ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم (أي ولكن مؤاخذة الله لكم تتم ، عندما يكون هناك اصرار على اليمين في أنفسكم . لأن الله - جلت قدرته - لا يريد أن يعرض اسمه في مجال أخطاء الانسان وكذبه) والله غفور حليم (لما مضى من ايمان قبل هذا التحذير) . للذين يؤلون من نسائهم (أي لأولئكم الأزواج الذين يحلفون على نسائهم بالحرمة عليهم) ..

---

(١) الحديث في نيل الاوطار : ج ٦ . ص ٢٧٨

تربص أربعة أشهر (أي انتظار مدة أقصاها أربعة أشهر ، يخير الزوج بعدها : أما إلى عودة لزوجته ، وأما إلى خروج من عقد الزوجية . ولم يلغ القرآن فوراً : هذا الايلاء ، كما ألغى الظهار – وكل فيه حالة تعسف .. وكل فيه مباشرة الزوج : تحريم ما لا يستطيع تحريمه – لأن الحلف بالله وقاره واحترامه ، وله كذلك : اعتباره . فرعاية لتضرر الزوجة بالايلاء عن طريق تحريم الزوج الاقتراب منها زمناً غير معروف .. وضع حد لانتهاء تضرر الزوجة بمدة أربعة أشهر . ورعاية لاعتبار اليمين بالله لأنها يمين تنعقد – لم يلغ أثرها كلية . بل جعل لها أثراً يمتد إلى آخر تلك المدة المحددة) فإن فاءوا فان الله غفور رحيم (وعند انتهاء مدة الأربعة أشهر ان عاد الأزواج إلى زوجاتهم فان الله غفور لهم على خطئهم هذا .. ورحيم بهم عندما يرفعون الضرر والأذى الذي ألحقوه بنسائهم) وان عزموا الطلاق فان الله سميع عليم »[1].

ويقول بعض الفقهاء – للشبه القائم بين الايلاء والظهار – ان في قول الرجل لزوجته أنت علي حرام .. كفارة ظهار : أي عتق رقيق ، فصيام شهرين متتابعين ، فاطعام ستين مسكيناً . ويذكر ابن القيم أن هذا الرأي صح عن ابن عباس ، وهو كذلك احدى الروايات عن أحمد . وحجة هذا القول : أن الله تعالى : جعل التشبيه بمن تحرم عليه .. ظهارا ، فالتصريح منه بالتحريم أولى . ويؤيده : أن الله تعالى لم يجعل للمكلف : التحليل والتحريم . وانما ذلك إلى الله تعالى . فإذا قال الزوج في الظهار : أنت علي كظهر أمي .. أو قال في الايلاء : أنت علي حرام .. فقد قال المنكر من القول والزور ، وكذب على الله تعالى ، فانه لم يجعلها عليه كظهر أمه ، ولم يجعلها عليه حراماً ، فقد أوجب بهذا القول المنكر أغلظ الكفارتين ، وهي كفارة الظهار .

---

(١) البقرة : ٢٢٦ / ٢٢٧

وكما أن الظهار جعل غير مقبول في الاسلام – بعد نزول القرآن الكريم بآيات المجادلة فكذلك الايلاء غير مقبول فيه أيضاً ، لقوله تعالى هنا : « ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم » .. فمؤاخذة الله لمن يحلف به كمبدأ عام – وعلى وجه أخص لمن يحلف بالله محرماً زوجته على نفسه – دليل على النهي عنه .

واذ يبعد الاسلام العبث ، والضرر في العلاقة الزوجية .. فانه يريدها انسانية في قيامها .. وانسانية في بقائها .. وانسانية في وضع نهاية لها بالطلاق .

اليتيم :

يمتن الله على رسوله محمد ﷺ في سورة الضحى بقوله : « ألم يجدك يتيماً فآوى » .. فأطلق عليه وصف اليتيم . إذ قد عرف من سيرته عليه السلام : أنه كان صغيراً لم تتجاوز سنه ستة أشهر ، عندما مات أبوه وتركه في حضانة أمه ، وفي رعاية عمه أبي طالب . واليتيم اذن هو من مات أبوه ولم يبلغ مستوى الرشد بعد في الانسانية . ولعدم بلوغه مستوى الرشد كان ضعيفاً ، كما كان في حاجة إلى رعاية غيره : ان في حسن معاملته وتوجيهه ، وان في استثمار ماله – ان كان ذا مال – والمحافظة عليه .

والضعف أمر ملحوظ في مفهوم اليتيم . وهذا الضعف هو : في مستوى المسئولية ، وفي درجة الاستقلال في التصرف ، قبل الضعف في القوة البدنية وفي البناء الجسمي . ويلحق باليتيم : كل ضعيف في مسئوليته ، وفي درجة استقلاله العقلي ، مهما كانت له من قوة البدن وفراهة الجسم . وقد يكون الضعف في المسئولية ، أو في درجة الاستقلال العقلي ناتجاً عن خوف أو ارهاب أو اذلال ، وليس عن قصور في الاستطاعة البشرية ، وامكانيات الذات نفسها .

ولأن ضعف اليتيم ضعف انساني ، جاءت آيات القرآن في شأنه ، حاثة على اتخاذ موقف خاص منه . وهو موقف يتكون من ثلاثة جوانب :

الجانب الأول : انكار الغلظة والجفوة معـه وفي معاملته . يقول الله تعالى : « أرأيت الذي يكذب بالدين (أي بيوم الجزاء في الآخرة) ؟ . فذلك الذي يدع اليتيم » (أي يعامله في غلظة وجفوة) » [1] .. فجعل القرآن من يعامل اليتيم في غلظة : في مستوى من ينكر الآخرة والجزاء فيها ، ولا يؤمن بأنها تقع . وهو ذلك المادي الذي تمكنت منه شهوات الحياة الدنيا ، وذلك الأناني الذي لا يرى في الوجود إلا ذاته وحدها .

والجانب الثاني : حسن معاملته ، كما جاء في قول المولى عز وجل : « وبالوالدين احسانا ، وبذي القربى ، واليتامى » [2] .. فالاحسان المطلوب هنا للوالدين ، ولذي القربى ، واليتامى : قد يكون احساناً معنوياً في لطف المعاملة ، قبل أن يكون احساناً مادياً في العطاء القليل أو الكثير . وليس من الاحسان الى اليتامى : تجنب مخالطتهم وعدم الاهتمام بأمرهم. لأن الاحسان ليس أمراً سلبياً . وانما هو عمل ايجابي : « ويسألونك عن اليتامى ، قل : اصلاح لهم ، خير (أي الاهتمام باصلاح أمرهم ، خير من تجنبهم وتركهم وشأنهم) » [3] .

والجانب الثالث : المحافظة على ماله، وحسن استثماره. على نحو ما تذكره هذه الآية : « ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتي هي أحسن ، حتى يبلغ أشده » [4] .. فهي تحدد المباشرة المقبولة في استثمار مال اليتيم، بأنها المباشرة التي هي أحسن .. أي التي تدر ثمرة وربحا أكثر ، مع قلة في الانفاق . أما

---

(١) الماعون : ٢
(٢) النساء : ٣٦
(٣) البقرة : ٢٢٠
(٤) الانعام : ١٥٢

المحافظة على رأس ماله فقد نهى القرآن عن حالتين يتصور بأية واحدة منهما هلاك رأس المال، وضياعه : الأولى : الاقتطاع منه ظلماً وعدواناً . وقد سماه « أكلا » في قوله : « ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً ، انما يأكلون في بطونهم ناراً »[1] . والثانية تبديل الخبيث بالطيب . أي أخذ الطيب والأجود من مال اليتيم ، ووضع الرديء والسيء من مال الوصي بدلاً منه . وجاء النهي عن ذلك في قوله : « وآتوا اليتامى أموالهم (أي كما هي ، عندما يبلغون الرشد وتسلمونها اليهم . والخطاب للأوصياء) . ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب (أي لا تأخذوا الطيب والأجود منها ، وتسلموهم الرديء والسيء من أموالكم ، بدلاً منه) »[2] .

وقد كان نصح القرآن في قوله : « فأما اليتيم فلا تقهر (أي فلا تغلبه على ماله وحقه لضعفه) »[3] .. مبدأ عاماً للحيلولة دون استغلال الضعف فيه بأي وجه من الوجوه .

وما يأمر – أو ينهى عنه – القرآن الأوصياء في شأن اليتيم ، فانه حق لليتيم نفسه ، وواجب على الأوصياء مباشرته . ومن وراء تحقيق الحق وأداء الواجب : سلطة الحاكم ، ووظيفة الدولة .

والقرآن اذ ينهى عن استغلال اليتيم لضعفه ، فانه ينهى عن كل استغلال بسبب الضعف أينما يوجد . واذ ينصح بحسن معاملة اليتيم لضعفه ، فانه ينصح بحسن معاملة الضعيف لأي سبب .

---

(١) النساء : ١٠
(٢) النساء : ٢
(٣) الضحى : ٩

المسكين :

يأتي ذكر : « المسكين » في آيات عديدة من آيات القرآن الكريم ، توصى بعونه وتغطية حاجته :

١ – جاء ذكره في مصارف الزكاة في قول الله تعالى : « انما الصدقات للفقراء ، والمساكين ، والعاملين عليها ... » [١] .

٢ – وجاء ذكره في توزيع غنائم الحرب في قوله جل شأنه : «واعلموا: أنما غنمتم من شيء فان لله خمسه ، وللرسول ولذي القربى (أي أقربائه عليه الصلاة والسلام على عهده) واليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل » [٢] ..

٣ – وجاء ذكره كذلك في مصارف البر العام – وراء الزكاة – فيما تقصه هذه الآيات : « واعبدوا الله ، ولا تشركوا به شيئاً ، وبالوالدين احسانا ، وبذي القربى ، واليتامى والمساكين » [٣] .. « ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة : أن يؤتوا أولى القربى والمساكين » [٤] .. « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله ، واليوم الآخر ، والملائكة ، والكتاب ، والنبيين ، وآتي المال على حبه : ذوي القربى ، واليتامى ، والمساكين ... » [٥] .

٤ – وجاء ذكر المسكين أيضاً في الكفارات عن الأخطاء التي ترتكب ، على نحو ما جاء في كفارة الصيد في قول المولى سبحانه : « أو كفارة :طعام مساكين ، أو عدل ذلك صياماً » [٦] .

---

(١) التوبة : ٦٠
(٢) الانفال : ٤١
(٣) النساء : ٣٦
(٤) النور : ١٧٧
(٥) البقرة : ١٧٧
(٦) المائدة : ٩٥

وجعل القرآن ما يعطاه المسكين من كل هذه المصادر للانفاق .. حقاً له، يجب على من يخرج الزكاة ، أو من ينفق فيما وراءها في سبيل الخير العام ، أو من يوزع غنائم الحروب ، أو من يكفر عن خطأ باشره وتجب فيه الكفارة : أن يحققه له : « فآت ذي القربى حقه ، والمسكين ، وابن السبيل ، ذلك خير للذين يريدون وجه الله ، وأولئك هم المفلحون » [1] .

فالمسكين صاحب حق في مال غيره . وغيره هنا عديد ومتنوع ، مما يجعل كفالة أمره في سد حاجته .. أمراً مؤكداً . وحقه – كحق غيره من نظرائه ممن يتكفل بهم المجتمع المؤمن – لا يرتبط بهوى من يجب عليه أداؤه، ولا برغبته . بل هو أمر ملتزم بأدائه المؤمن ، عندما يقبل الايمان بالله ، فوق أنه هذا الحق أما : عبادة ، أو قربى إلى الله . والعبادة ، أو القربى هي فوق الهوى والشهوة .

والمسكين صاحب الحق في مال غيره اذا أريد تحديده : من هو ؟ .. فهو ذلك الذي يقل في اعساره ، عن وضع الفقير . أي هو ذلك الذي ليس في حالة اعسار شديد ، كتلك الحالة التي هي للفقير . وقد وصف القرآن الكريم حالة الفقير في قوله تعالى : « وما تنفقوا من خير يوف اليكم ، وانتم لا تظلمون . للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله ، لا يستطيعون ضرباً في الأرض (أي من أجل السعي في سبيل الرزق) يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ، تعرفهم بسيماهم (من صفرة الوجه ورثاثة الحال) لا يسألون الناس الحافا ، وما تنفقوا من خير فان الله به عليم » [2] .. فقد وصف القرآن

---

(١) الروم : ٣٨
(٢) البقرة ٢٧٢ / ٢٧٣

هنا : الفقراء بأنهم العاجزون عن الكسب ، سواء لضعف بدني ، أو لحائل يحول دون سعيهم كحصار من الأعداء ضرب حولهم بسبب ايمانهم . ولأنهم عاجزون عن الكسب يبدو عليهم الاعياء ، كأمارة على النقص في التغذية ، أو في سوء المسكن ، والملبس .

والفقير اذن هو صاحب أعلى درجة في الحاجة . ومستواه الأعلى في الحاجة بسبب عجزه المادي عن السعي في سبيل كسب الرزق وسد حاجته . والمسكين ليس هو ذلك العاجز عجزاً مادياً عن الكسب والسعي في سبيل الرزق . وانما هو يسعى ويلهث في سبيل كسب العيش ، ويسخر كل طاقاته الممكنة في سد حاجته . ولكن مع ذلك لا يستطيع أن يسدها: إما لكثرة أولاده ، أو لضعف في مستوى دخله ، رغم كثرة حركته في السعي . هو ذلك الذي لم تواته الظروف ليكون أكثر عدة واستعداداً للسعي في الحياة. وطاقاته على العمل طاقات محدودة ، وقدرته الذهنية قدرة محدودة، وتصرفه في الحياة تصرف محدود . انه انسان يسعى . ولكن سعيه لا يوصله إلى اتمام حاجته . انه يؤمن بالقيم الخلقية ، ويسلك طريق تحقيقها ، ولذا لا ينفق في عبث أو لهو .

هذا العامل ، الجد في سعيه في الحياة ، وصاحب الحاجة إلى تغطية نفقته، هو : المسكين ، الذي جعل له القرآن حقاً لدى الآخرين ممن يفيض دخلهم عن حاجتهم ، ويلزم بأدائه له : بيت المال أو ما يسمى بالدولة في نظم الحكم المعاصرة . انه هو الذي ندد القرآن بسبب التقصير في حقه .. بأولئك الأثرياء الأشحاء في قوله : « كلا ! بل لا تكرمون اليتيم . ولا تحاضون على طعام المسكين . وتأكلون التراث أكلا لما. وتحبون المال حباً جماً »[1]..

(١) الفجر : ١٧ — ٢٠

وفي قوله : « الا أصحـــاب اليمين . في جنات يتساءلون : عن المجرمين . ما سلككم في سقر ؟. قالوا : لم نك من المصلين. ولم نك نطعم المسكين »[1] .
ان كفالة المسكين في المجتمع يراهـــا القرآن ضرورة اجتماعية ، وضرورة انسانية ، وضرورة سياسية .

---

(١) المدثر : ٣٩ - ٤٤

الفهرس

الموضوع	صفحة	الموضوع	صفحة
مقدمة	٣	الغيب	٨٣
الفصل الأول : في العقيدة	٧	النفاق	٨٦
أ ـ في دائرة الألوهية	٨	عباد الرحمن	٩٠
وجود الله	٩	المستكبرون	٩٣
أسماء الله الحسنى	١٣	المستضعفون	٩٦
الاسلام دين الله	١٥	الخاشعون	٩٩
الذكر	٢٠	ب ـ في دائرة الرسالة والرسول :	١٠٣
الحكمة	٢٣	الرسول	١٠٥
الكتاب المصدق	٢٦	الروح	١٠٨
الحق	٣٠	الاسراء	١١١
الهداية للحق	٣٢	الافك	١١٩
البينة	٣٦	جـ ـ في دائرة المخلوقات	١٢٣
المثل	٣٩	الجن والملك والشيطان والانسان	١٢٥
الآية ـ النسخ	٤٢	د ـ في دائرة الانسان :	١٤٣
الايمان بالله	٦٥	مسئولية الانسان	١٤٥
الشرك بالله	٦٩	مشيئة الانسان	١٤٨
ضلال المشركين	٧٢	كسب الانسان	١٥١
الكفر بالله	٧٥	القضاء والقدر	١٥٣
الصد عن سبيل الله	٨٠	الرزق على الله	١٥٦

الموضوع	صفحة	الموضوع	صفحة
التوكل على الله	١٦٠	الصبر	٢٢٤
التوبة لله	١٦٤	الابتلاء	٢٢٧
الشكر لله	١٦٦	ب ـ في دائرة الانحراف والفساد	٢٣٥
الدعاء لله	١٦٩	الفحشاء والمنكر	٢٣٧
ذكر الله	١٧٣	الجاهلية	٢٣٩
هـ ـ في دائرة الحياة الأخروية	١٧٧	السفه	٢٤٣
الساعة	١٧٩	التبذير	٢٤٥
جزاء الله	١٨١	الاسراف	٢٤٨
الجنة	١٨٥	حـ ـ في دائرة الاسرة:	٢٥٣
الفصل الثاني : في سلوك الانسان:	١٨٩	الزواج والنكاح	٢٥٥
أ ـ في دائرة الصراط المستقيم	١٩٠	العفة	٢٥٧
التقوى	١٩١	قوامة الرجل	٢٥٩
العمل الصالح	١٩٣	الاصلاح بين الزوجين	٢٦٢
سبيل الله	١٩٦	زينة المرأة	٢٦٤
العدل	١٩٨	تبرج المرأة	٢٦٧
الاحسان	٢٠٢	الطلاق	٢٧٦
الوسيلة	٢٠٦	الافتداء ـ أو الخلع	٢٨٠
الجهاد	٢٠٨	الظهار	٢٨٣
ولي الله	٢١١	الايلاء	٢٨٥
العفو والصفح	٢١٤	اليتيم	٢٨٧
القناعة	٢١٨	المسكين	٢٩٠
المعروف	٢٢١	الفهرس	٢٩٤